

بجئة النايف والترجمة والنشر

چانن دمك

المؤلف: چورچ برناردشو

المرجم: الدكتور أحمد زكي بك

العدد الرابع

عيون الأدب العربي

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٨

مقدمة المترجم

هذه قصة « جان درك » لمؤلفها « جورج برنارد شو » .
أما المؤلف فقد حضرتهُ خطيباً ، وسمته مجادلاً ، وقضيت
عقداً من الدهر في بلده وبين قومه فلم أجد بينهم اسماً في عالم
الأدب والسياسة تُرَهَف له الآذان كاسمه ، ولا جدلاً يهرع
الناس لحضوره كجدله ، ولا لساناً أقذع في النقاش وألذع في
الجواب كلسانه ، ولا فكاهة تَنَمُّ عن صاحبها كفكاهته .
كتبت له إحدى الغانيات الجيلات الفاتنات تعرض عليه أن
يتزوج منها وتغريه بأنه إذا اجتمع جمالها وعقله أتعجا أحسن
الخلق . فأجابها بقوله : أخشى أن يجتمع عقلك وجمالي . واستمعتُ
منذ أشهر بالراديو لحفلة أقيمت في إنجلترا لإحياء ذكرى من
ذكريات شيكسبير ، لا أذكر بالضبط مناسبتها ، وكان خطيب
الحفلة برنارد شو ، فسمعت صوته خافتاً قد أضعفته الشيخوخة
وإذابه يبدأ كلامه بسؤال الناس : « أتعرفون لماذا دعاني القوم
للخطابة في هذا الحفل ؟ » . فأنصت الناس وعلى شفاههم لا شك
ابتسامة ، توقفاً للنكتة التي لم تفارقه حتى بعد فواته الثمانين . فجاء

جوابه خافتاً كذلك: «أظنهم فعلوا ذلك لاعتقادهم أنى أنا الثانى من بعد شيكسبير». فسمعت على الأثير صدى الضحكات العاليات فى ذلك الجمع الحاشد. وهى نكتة تحمل أكثر من معنى واحد إذا نحن قرأناها برأيه المعروف فى شيكسبير^(١). ولم ينحصر صيت «شو» فى الجزر البريطانية، بل تمداه إلى كل بلد ينطق بالإنجليزية، وإلى كل مثقف لا ينطق بها، فهو فى الأدب الإنجليزى من أكبر شخصياته إن لم نقل أكبرها، وذلك فى القرن العشرين وإلى أحقاب خلت. وهو فى إنجلترا يحتل مثل المكانة التى احتلها أناتول فرانس فى فرنسا، وكانا صديقين حميمين، ذوى مشربين متقاربين. أذكر أن أناتول استقبل صديقه شو مرحباً به، وهما شيخان، فضمه وقبله على الملاء على عادة الفرنسيين، فاحمر وجه شو، ففى إنجلترا لا يقبل إلا النساء.

أما عن القصة، وهى إحدى القصص الثلاث التى يرى النقادون أنها خير ما أنتج شو، فقد حضرتها تمثل فى لندن منذ أكثر من أربعة عشر عاماً، وكان دور جان تقوم به الممثلة الشهيرة سبيل ثرنديك «Sybil Thorndyke» وكنت فى زمرة

(١) لا يقدر شو شيكسبير كتقدير الناس له. ويعتقد شو أن شيكسبير مهما جد واجتهد فهو لا يستطيع أن يأتى برواية كروايته Back to Methusalah، أو كروايته الأخرى Heartbreak House. ولا يبنيه عن هذا الاعتقاد شىء أبداً.

بينهم صديقٌ مصريٌّ حميمٌ معروفٌ بإسلاميته ، واتباع دينه على حرقته ، وهو إلى اليوم مؤمنٌ شديد الإيمان ، عالمٌ كبيرٌ العلم ، مثقفٌ واسع الثقافة ، ولكنه يفلو أحياناً فيترمت ترمتاً قد ياباه الفكر الطليق . وحسبى هذا في وصفه فإني أخشى أن أكون قد سمّيته . وكانت الرواية بالطبع نصرانية ممعنة في النصرانية ، فمجيئٌ كيف يحضر مثله مثلها ، وترقبت أنظر ما يكون منها فيه . ودرجت الرواية من منظر إلى منظر حتى جاء المنظر الخامس في السكتدرائية حيث انقض عن جان كل أصحابها ، حتى الملك الذي توجّه ، ونصحوها بالكف عن الحرب والرجوع إلى أيها وريفها فانفجرت فيهم تقول :

« لو أنى اتبعت مثل هذا الحق بالأمس ، فإلى أى حال كنتم تصيرون . إنكم لاعون لي فيكم ولا نصيحة . نعم أنا في هذه الدنيا وحيدة . وقد كنت فيها أبداً وحيدة . تركتُ أبى لأسيف بلادى ، فطالب إلى إخوتى أن يُترقوني في البحر إذا لم أطمعه فأرعى غنمه . بينا فرنسا تجرى دماؤها على الأرض سفحاً . وما ضره أن تجرى دماها ، إذا عاشت خرافه ناعمة في مهتوك حماها . وحسبتُ أن أرى نصراء خالصاء لبلادى في بلاط ملكها ، فلم أجد إلا ذئاباً يتنازعون على قطع من أشلاء وطنٍ مرقق . وحسبتُ أن لله أحباباً في كل مكان ، لأن الله محبٌ لكل إنسان . واعتقدت في سذجتى أنى سأجد فيكم قلاعاً رواسخ تدفع الأذى عنى ،

فإذا بي أجدكم تخلصوني خلع النعال البالية . ولكنى الآن قد تكشفت لى
حقيقتكم فرقتها عيانا ، ورأيت الحق فى أمركم عريانا ، ولن يكسب أحد
من معرفة الحق خسرا . وتهددونى بوحدتى ، وما بى والله ذعرا منها .
إن فرنسا وحيدة . وإن ربى لوحد . فما وحدتى إلى جانب وحدة قومى
ووحدة الله ربى . لقد تعلمت الآن أن وحدة الله هى سر قوته . ألا
ما كان حال الله لو أنه أصفى لنصائح منكم حقيرة ، تصدر عن قلوب
مريضة غيورة . قوة الله فى وحدته ، وكذلك قوتى ستكون فى وحدتى
بجوار الله ، فلن تخوننى صداقتة ، ولن تعوزنى محنته ، ولن تتخذلى
نصيحتة . وسأستمد مدداً من مدده ، فأقتحم المهالك ، وأركب الأخطار
حتى أموت . والآن أخرج إلى الشعب ، إلى عامة الناس ودهائمهم ، فلعل
الحب الذى أجده فى عيونهم يفرج عنى كربة البغضاء التى أجدها فى
عيونكم . إنكم ستفرحون جميعاً لحرى ، ولكنى إن سیرت إلى النار ،
فإنما أسير عبرها إلى الخلود فى قلوب الناس ، فى هذه القلوب ساحبى
أبد الأباد . والآن تداركنى بطفلك يا رحمن .

وكانت الممثلة قوية التمثيل قوية الأثوة رغم درع الفولاذ
الذى تلبسها . فنظرت إلى صاحبى فإذا دمه يجرى مدراراً ، ويكاد
يشهق فيفيضنا . وانتهى الفصل فحمدت الله . ولكن جاء
الفصل السادس حيث حوكت وأحرقت فلم يكن هذا الفصل
أقل تأثيراً من سابقه فى نفس صاحبى المسلم المؤمن . عندئذ
أدركت أن العاطفة الدينية شىء والدين نوع آخر ، وأن من

الحوادث النصرانية ما يهز قلب المسلم حتى إلى البكاء ، ومن الحوادث الإسلامية ما يحرك عاطفة النصراني ، وأن فؤاد الإنسان في صميمه واحد مهما اختلفت العقائد والأوطان . فلما دعيت لجنة التأليف والترجمة والنشر إلى ترجمة هذه الرواية لم أجد في نصرانيتها مانعاً من قبول ترجمتها . بل على النقيض وجدت فيها حافزاً على ترجمتها لما فيها من هذه العاطفة الدينية المشتركة بين الإسلام والمسيحية . وإن في اشتراك العاطفة الحب والتعاطف . قال تعالى : « وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ فَسَّيْسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » .

أحمد زكي

المنظر الأول

[صباحٌ صاحٍ من أصباح الربيع ، على نهر موز Meuse^(١) بين
لورين Lorraine وشمبانيا Champaigne^(٢) ، في عام ١٤٢٩ ، في قلعة
فوكولور^(٣) Vaucouleurs .]

[وفي المنظر اليوزباشى رُو يردى بُدريكور Robert de Baudricourt ،
صينٌ من رجال الحرب ، وسيمٌ جميل ، جمٌ النشاط ، إلا أنه لا إرادة له .
ويعلم هذه النقيصة من نفسه فيحاول أن يخفيها بالتنضّب والتسخط الشديد
على خولّيّه ، وبالإرغاء والإزباد في وجهه . ثم الخولّيّ وهو رجل حقير ذليل ،
قليل اللحم قليل الشعر ، يُعجزك تقديرُ سنّه ، فهي ثمانِ عَشْرَةَ سنة
أو خمسٌ وخمسون أو ما بينهما . وهو من صنف الرجال الذين لا تُدويهم
الأعمار لأنهم قطّ ما أزهروا .]

[والرجلان في حجرة مشمسة ، وهي من حَجَرٍ ، في الطابق الثانى من
القلعة . أما الضابط فجالسٌ على كرسى من خشب الأزو إلى خوان متين بسيط
على شاكلة الكرسي ، وهو مثله من الأرو . وتظهر من وجه الضابط
صفحته اليسرى . أما الخولّيّ فيقف في مواجهته في الطرف الآخر من
الخوان ، هذا إذا سمينا تلك الوقفة الذليلة المسترحمة المستعيذة وقوفاً . ووراء

(١) نهر ينبع في فرنسا ومصبه بهولندا في البحر الشمالى .

(٢) اللورين وشمبانيا مقاطعتان في الشمال الشرقى لفرنسا .

(٣) بلدة صغيرة على نهر موز .

الخلوى شباك مفتوح من شبايك القرن الثالث عشر ، وقد تقسمت فراغَه
قوائمٌ على أسلوب ذلك القرن . وبالقرب من الشباك برج صغير ذو باب
ضيق ، تملوه قبوة ، يودى إلى سُلْمٍ لفاف يهبط إلى فناء القلعة . وفي
الحجرة تحت الخوان مقعد ذو أربع أرجل متين ، وتحت الشباك صندوق
من الخشب] .

رُوَيْرٍ : ما عندك بيض ! ما عندك بيض !! عليك لعنة
الأولين والآخرين يا رجل ، ماذا تعني ؟ ما عندك بيض !
الخلوى : سيدي ، ليس الذنب ذنبي إنما هي إرادة الله .
رُوَيْرٍ : يا للكفران ! تقول لي ما عندك بيض ، ثم تُلقِي
ذنب ذلك على الله !

الخلوى : سيدي ، ماذا أصنع وأنا لا أستطيع أن أبيض ؟
رُوَيْرٍ : [يتهمك] ها ! إنك تمزح !
الخلوى : لا ياسيدي ، علم الله ! إن البيض يُعوزنا جميعاً ،
كما يعوزك ، اضطراراً ، وأى مندوحة عن ذلك والدجاجات تأتي
أن تبيض ؟
رُوَيْرٍ : صحيح ، صحيح ! [ينهض] والآف استمع لي
أيها الوغد .

الخلوى : [فى ذلّة] نعم سيدى .

روبير : من أنا ؟

الخلوى : من أنت ، سيدى ؟!

روبير : [يمشى نحوه] نعم . من أنا ؟ أنا روبر ، سيد

بُذريكور ، ويوزباشى هذه القلمة قلعة فوكولور ، أم أنا فارس
من رعاة البقر ؟

الخلوى : لا وعفواً ياسيدى ، فانت إلا رجل كبير ،

أكبر من الملك نفسه .

روبير : بالضبط ! والآن أتدرى ما أنت ؟

الخلوى : أنا لاشىء ياسيدى ، سوى شرفٍ كسبته

بأنى خوليتك .

روبير : [يتقدم نحوه ويدفع به إلى الخائط دفعات لكل صفة يصفه

بها دفعة] أنت لك الشرف بأنك خوليتى ، ولك فوق هذا الفضلُ

على جميع خول فرنسا بأنك أسوأهم ، وأجهلهم ، وأتهم ،

وأعجبهم ، وأغباهم ، وأبلههم ، وأرياهم فماً ، وأسياهم أنفاً .

[يأخذ فى الرجوع بخطى واسعة إلى الخوان] .

الخلوى : [وقد انكش على الصندوق مذعوراً] نعم ياسيدى ،

فلا بد أنى أترامى هكذا بالنسبة لرجل عظيم مثلك .

روبير : [يدور على عقبه إليه] تعنى أن الذنب يرجع إلى ؟
الخلوى : [يتقدم إليه مسترخياً مستغفراً] واه يا سيدى ، إنك
دائماً تُلوى كلماتى البريئة .

روبير : سألوى رقبتك إذا ما سألتك كم لدينا من البيض
فجرؤت فقلت لى مرة أخرى إنك لا تقدر أن تبيض .
الخلوى : [محتجاً منكراً] واه سيدى ، واه سيدى ...

روبير : لا تقل واه سيدى ، واه سيدى ، بل قل لا ياسيدى ،
لا ياسيدى . إن دجاجتى الثلاث البربرية^(١) ودجاجتى السوداء
أكثر الدجاج بيضاً فى شمبانيا ، ثم تأتيني بعد هذا وتقول
لا بيض عندك ! أين البيض ؟ من سرقه ؟ أجب وإلا رفستك
إلى باب القلعة ، فأنت كذاب ، وتبيع متاعى للصوص . واللبن
نقص بالأمس كذلك ، فهل أنت ناس ذلك ؟

الخلوى : [مستيئساً] أعلم ذلك يا سيدى . أعلمه علما لا أنساه
أبدأ . ذهب اللبن ، وذهب البيض ، وغداً يذهب كل
شئ لدينا .

روبير : كل شئ لدينا ؟! أفنسرَق كل شئ إذن ؟

(١) نبة إلى بربر ، ويقصد بها شمال أفريقيا ما بين مصر إلى المحيط الأطلسى .

الخلوى : لا ياسيدى ، ليس فى الدار من يسرق شيئاً ،
وإنما حلت بنا لعنةُ ساحرة .

روبير : ليس مثلى من يصدق مثل هذا . إن روبيردى
بديكوريحرق الساحرات ويشنق اللصوص . فقم وأتى بخمسين
بيضة وبجالونين من اللبن ، وأحضرها هنا جميعاً قبل الظهر ،
وإلا فرحمة الله على عظامك ، فسأحطمها لك تحطيماً ، وأعلمك ألاّ
تستغفنى مرة أخرى [ويعود فيتخذ مكانه من الكرسي كمن قضى
قضاءً مبرماً لا رجعة فيه] .

الخلوى : سيدى ، إنى أقول لك ليس لدى بيض ، ولن
تجد لدى بيضاً ولو قتلتنى مادامت الفتاة على الباب .

روبير : الفتاة ! أية فتاة ؟ عمّ تتحدّث يا هذا ؟

الخلوى : الفتاة التى جاءت من لورين Lorraine ياسيدى ،

من بلدة دُومريمي Domrémy .

روبير : [يقف غاضباً أشد الغضب] يا أرض ميدي وياسماء
أطبقى ! ماذا تقول أيها الرجل ؟ أتقول إن هذه الفتاة لازالت هنا ،
هذه الفتاة التى بلغت من الوقاحة أن طلبت لقائى من يومين ،
هذه الفتاة التى أمرتك بحملها إلى والدها وأعطيتك أمرى إليه
أن يضربها ضرباً طيباً ، هذه الفتاة لازالت هنا ؟

الخلوى : طلبتُ إليها أن تذهب ياسيدى ولكنها لاتفعل .
روبير : لم أقل لك اطلب إليها أن تذهب ، وإنما قلت
ارم بها رمياً . لديك خمسون فارساً كميّاً ، ولديك أربعة وعشرون
خادماً فخلاقوا ، كل هؤلاء لإنفاذ أمرى ، فهل خافوها جميعاً ؟
الخلوى : إنها عنيدة تثق أشدّ الوثوق بنفسها .

روبير : [يأخذ بقفاه] عنيدة ! إذن فانظر ما أصنع ؟ سأرى
بك على هذا السلم .

الخلوى : لا ياسيدى ، أرجوك ياسيدى .
روبير : كن عنيداً إذن وامنع نفسك من السقوط . إنه
أمر هين ، أمر تستطيعه أية فتاة رثة الهيئة قدرة .

الخلوى : [وقد تعلق مسترخياً فى يديه] سيدى ، سيدى ،
إنك لاتستطيع أن تتخلص منها برمى أنا [يُضطر روبيير إلى إسقاطه
من يديه ، فلما يسقط يقع على الأرض على الركبتين وينظر إلى سيده
مستسلماً ذليلاً] أرايت ياسيدى ؟ إنك أصدق عزماً منى ، وأصدق
كثيراً ، ولكن كذلك هى .

روبير : قل إنى أقوى منك أيها المأفون .

الخلوى : لا ياسيدى ، ليس هذا ، فإنما هى قوة شخصيتك
ياسيدى . إنها أضعف منا جميعاً . إنها فتاة قليلة لا حول فيها

ولا قوة ، ومع هذا لا نستطيع إخراجها .

روبير : إنكم جماعةٌ أنذال . إنكم تخافونها .

الخلوى : [ينهض على حذر] لا ياسيدى . نحن إن خفنا
فإنما نخافك . أما هي فتبتُّ فينا الشجاعة والثقة . والحق أنها
لا تخاف من شيء ، فلعلك سيدى تقدر أن تُخيفها .

روبير : [بوجه عابس] ربما . أين هي ؟

الخلوى : تحت ، في فناء القلعة ياسيدى ، تتحدث على
عادتها مع الجند . إنها تتحدث دائماً إلى الجند إلا إذا هي صلّت .
روبير : صلّت اها ! أتعتقد أيها العجبي أنها تعصلي . إنى
أعرف أىَّ صِنْفٍ من الفتيات ذلك الذى لا يفتأ يتحدث إلى
الجند . والآن آن أن تتحدث الفتاة إلى قليلا [يذهب إلى النافذة
ويصرخ بقوة منها] أنتِ يا من هناك !

صوت فتاة : [صوت بهيج قوى خشن] أتعيننى ؟

روبير : نعم أنتِ .

الصوت : أيوزباشى أنت ؟

روبير : نعم أنا يوزباشى ولعنة الله على وقاحتك . اطللى
هنا [يتكلم إلى الجند فى الفناء] أروها الطريق يا هؤلاء ،

وأسرعوا بها إلى [يترك النافذة ويعود إلى مجلسه لدى الخوان ويجلس
جلسة الأبهة] .

الخلوي : [يتكلم في هس] إنها تريد أن تكون جنديا ،
وتطلب إليك أن تعطياها ملابس الجند . تطلب درعاً يا سيدي ،
وسيفاً كذلك والله [يسترق الخطأ وراء روبر] .

[تدخل جان من باب البرج . وهي فتاة ريفية قوية البنية ، سنها
بين السابعة عشرة والثامنة عشرة ، في ملابس محترمة حمراء . ولها وجه
غير مألوف : فعيناها متباعدتان كل البعد ، وهما جاحظتان ، وهكذا تجدهما
دائماً في كل من لهم أو لمن خيال قوى . وأنها حسن الشكل طويل
واسع . وشفتها العليا قصيرة . وفما تقرأ فيه العزم القوي ولوم ترق شفتاه .
وذقها جميل تقرأ فيه الحرب والصراع . ثم هي تتقدم إلى الخوان مغتبطة
مبتهجة بأنها استطاعت أخيراً أن تخرق الحرم إلى صاحبنا ، مليئة آملا
بتحقيق رجائها . وعبس روبر فلم تردّها تعبيسته ولا أخافها أبداً . ولها
صوت ترسله على سجيته فكأنما تخرجه من قلبها ، فيه الثقة ، وفيه
الضراعة ، وفيه الترضى ، فلا يستطيع أحد أن يتنكر له] .

جان : [تحييه بثنية من ركبتيها] صباح الخير ياسيد يا يوزباشي .
أيها اليوزباشي ، إن عليك أن تعطيني حصاناً ودرعاً وأن تمدني
بعض الجند ثم ترسلني إلى الدوفين^(١) Dauphin ، بهذا يأمرك
مولاي .

(١) لقب للولاء الأكبر لكل ملك من ملوك فرنسا . والمقصود به هنا هو شارل
السابع ملك فرنسا .

روبير : [وقد اغتاظ] مولاك يا امرئى؟! ومن مولاك هذا؟
وفى أى داهية يكون؟ عودى إليه وقولى له إنى لست دوقاً
ولا شريفاً فى خدمته فألتقى منه أمراً، وإنما أنا سيد بدرىكور
لا ألتقى أمراً إلا من الملك .

جان : [تطمئننه] نعم يا سيد بدرىكور ، وصواب
ما تقول ، غير أن مولاي رب السموات والأرض .

روبير : ما هذا ! إن الفتاة مجنونة [إلى خويله] لم ألمّ تقل .
لى أيها الأحق إنها مجنونة ؟

الخلوى : لا تُغضبها ياسيدى وأعطها ما تريد .

جان : [جازعة ولكن غير غاضبة] إنهم جميعاً ياسيدى
يقولون إنى مجنونة إلى أن آتحدث إليهم . إن إرادة الله قضت .
عليك بأن تفعل ما يوحى إليك به الله .

روبير : إن إرادة الله قضت علىّ بأن أرسلك إلى أيبك ،
وأن أمره بمجسك وضربك حتى يخرج من جسمك هذا الجنون .
فاذا أنت قائلة ؟

جان : إنك تظن أنك فاعل ما تقول ، ولكن هيات
فسترى أن الأمور تجرى على غير ما تريد . ألم تقل إنك لن ترانى ،
ثم ها أنت الآن ترانى !

الخلوى : [يتوسل] نعم سيدى ، إنها تقول الحق ياسيدى .

روبير : اسكت أنت ياأحق .

الخلوى : [بذلة] نعم ، سيدى .

روبير : [يتحدث إلى جان وهو فى ألم من إحساسه بضياع ثقتة

بنفسه] إذن فأنت تستغلين إذنى لك فى الدخول على ؟

جان : [فى خفة روح] نعم ، سيدى .

روبير : [يحس بانغلابه فيضرب الخوان بيديه ضرباً شديداً ،

وينفخ صدره ويبرزه تكبراً وتعظماً على هذا يذهب بالضعف الذى أصابه
الساعة فى إرادته ، وهو ضعف عرفه من نفسه حتى ألقه [أنصتى إلى
أيتها الفتاة . إنى سأملى عليك إرادتى .

جان : إفعل بالله ياسيدى . إن الحصان ثمنه ستة عشر

فرنكا ، وهذا مبلغ كبير ، ولكنى سأقتصده فى الدرع ، فإنى

سأبحث بين الجنود عن درع تلبسنى بالقدر الذى يكفينى . إنى

مُحشوشنة فليست بي حاجة إلى درع جميلة تفصل على تفصيلا

كالتى تلبسها أنت . ولن أحتاج إلى عدد كبير من الجنود ،

فالدوفين سيعطينى كل ما يكفينى من ذلك ، لرفع الحصار عن

أرلين^(١) Orleans .

(١) بلدة فرنسية على الشاطئ الشمال لنهر اللوار . قصد إليها الإنجليز بعد =

روبير : [وقد طار لته] رفع الحصار عن أرلين؟
جان : [بكل بساطة] نعم يا سيدي . هذا ما أرسلني الله
لأدائه . ويكفيني أن ترسل معي ثلاثة رجال أخيار يعطفون عليّ .
وقد عاهدوني على الذهاب معي . وهم بولي وچاك و ...
روبير : بولي Polly ! أيتها الفاجرة كيف تتجرئين على
السيد برتران دي بولنچيه Bertrand de Poulengey فتسمينه
بولي في وجهي ؟
جان : هكذا يسميه إخوانه يا سيدي ، وما علمت أن له
اسماً غير هذا . وچاك ...
روبير : هذا السيد جُون أف مِتز John of Metz على
ما أحسب ؟
جان : نعم يا سيدي . فچاك سيذهب معي عن طيب خاطر .
إنه رجل طيب كريم يعطيني المال فأفرقه على الفقراء . وأظن
چون جدساف John Godsave سيأتي أيضاً ، وديكُ التبالُ
أيضاً Dick the Archer ، وخادماها جُون أف هُنكورت
John of Honecourt وچليان Juliau . قد رتبتُ كل شيء

= أن تغلبوا على النصف الشمالي من فرنسا (شمال نهر اللوار) ، غاصروها وطعموا
بعد فتحها أن تكون مفتاحاً لفتح النصف الجنوبي من فرنسا .

يا سيدي ، ولن أكلفك مشقة إلا أن تُصدر أمرك إليهم .
روبير : [يتألمها وقد علتته ذهلةٌ من الدهش] أَلالْعنة الأولين
والآخرين على أن يجري كل هذا من ورأى ولا أدري !
جان : [في خفة روح لم تتعكر] لا يا سيدي ، لالْعنة عليك
قاله غفور رحيم . والقديستان كترينة Catherine ومرغريت^(١)
Margaret ، وهما تتحدثان إلى كل يوم [يفتح فاه كأنما شُده] ،
سيدشمان لك عند الله ، وستدخل الجنة ، وستذكر بأنك أول
من أعانى في سبيل الله .

روبير : [يتحدث إلى الخولى وهو لا يزال في قلقه ، ولكنه يتغير
لهجته لاهتدائه إلى نهج جديد يخرج به من ورطته] أصحيح ما قالت
عن السيد دي بولنجيه ؟

الخولى : [يجيب وبه رغبة شديدة ظاهرة في الجواب] نعم
يا سيدي . وصحيح كذلك ما قالته عن السيد دي متز ، فكلاهما
يود الذهاب معها .

روبير : [ينبس بما لا يفهم وهو غارق في الفكر ، ثم يذهب إلى
النافذة وينادى من في الفناء] أنتم يا هؤلاء . أرسلوا إلى السيد

(١) ما قديستان . أما القديسة كترينة فهي راعية الفتيات وقد استشهدت
حول سنة ٣٠٧ ميلادية على ما يذكرون . وأما القديسة مرغريت فاستشهدت حول
سنة ٢٧٥ ميلادية .

دى پولنچيه . [يعود فيتحدث إلى چان] ، وأنتِ فاخرجي الآن
وانتظري في الفناء .

چان : [تبسم له ابتسامة وضّاءة] أفعلُ يا سيدي .
[ثم تخرج] .

روبير : [إلى الخولى] اذهبِ معها أيها المقتوه الرّعش ،
وابقى حيث تسمعني ، ولا ترفع عينك عنها ، فسأدعوها إلى
مرة أخرى .

الخولى : باللهِ افعلُ يا سيدي ، واذكر تلك الدجاجات ، وأنها
أحسن دجاج يبيض في شمبانيا ، و ...

روبير : بل تذكرُ أنتِ حدائِي ، وغب عن بصرى قبل أن
ينال ظهرك .

[يتراجع الخولىّ سريعاً فيلتقى عند الباب بيران دى پولنچيه ، وهو
رجل فرنسى ، لمفاوىّ المزاج مترهّل ، وهو فارس ممتاز^(١) gentleman-at-
arms ، له من العمر ستة وثلاثون عاماً أو نحوها ، وهو موظف في قسم
البوليس الحربى ، غائب الفكر حلام ، يندر أن يتكلم إلا إذا كلمه أحد ،
فإن هو أجاب أجاب في بطة وعناد . فهو على النقيض من روبر ،
فروبير يعتزّ بنفسه ويفرضها على الناس ، وله صوت جهير ، وله في الظاهر

(١) هو في العرف القديم واحد من رجال أربعين ، جرت العادة باصطحاب الملك
لهم حينما ظهر في تمثيل الدولة . ثم صار اللقب رتبة شرف .

نشاط جم ، وله في الباطن إرادة منجلة غاية الانحلال . يلتقي الخوئي ببولنجيه على الباب فيتراجع ويفسح له السبيل ثم يذهب هو لحاله [.
[يرفع بولنجيه يده بالسلام ويظل واقفاً يتربص أمراً] .

روبير : [ملاطفاً مؤانساً] لم أدعك لعمل من أعمال الوظيفة وإنما لحديث أخوي غير ذي كلفة ، فاجلس [يجر له المقعد بمشط رجله من تحت الخوان] .

[يرخي بولنجيه من صلابته ويدخل في جوف الحجر ، ويحمل المقعد فيضه بين الخوان والنافذة ، ويجلس وهو ساهم يفكر . أما روبرير فيرتكز على طرف الخوان بين الواقف والجالس ، ثم يبدأ حديثه] :

روبير : أصغ لي يا بولي ، أريد أن أحدثك حديث الوالد .
[يرفع بولنجيه بصره إليه دقيقة غير باسم ، ولكنه لا ينطق بكلمة] .
روبير : إنه حديث عن هذه الفتاة التي شغلت بعض هممك .
لقد رأيتها ، وقد تحدثتُ إليها . فهي أولا مجنونة ، ولكن هذا ليس بذي بال . وهي ثانياً ليست بنتاً فلاحية ، بل هي من أواسط الناس ، وهذا يجعل الأمر خطيراً . أنا أعرف طبقتها جيداً ، فأبوها حضر هنا في العام الفائت ليمثل قريته في قضية ، فهو بعض أعيانها ، وهو مزارع لم يرتق إلى طبقة الأسياد gentlemen ، فهو يكتسب من زراعته ويرتق منها ، ولكنه على كل حال ليس فلاحاً عاملاً يحرث الأرض ولا صانعاً . وقد

يكون له ابن عم في المحامين أو بين القساوسة . وأمثال هؤلاء الناس قد لا يكون لهم خطر في المجتمع . ولكنهم مع هذا قد يسبّبون متاعب كبيرة لرجال السلطة ، أعنى لى . وأنت تقصد إلى التفرير بهذه الفتاة ، وتضحك عليها بإفهامك إياها أنك تأخذها إلى الدوفين ، وهذا أمر لا شك يتراءى لك في غاية البساطة ، ولكن اعلم أنك إن أحدثت لهذه الفتاة سوءاً ، فستُحدث لى ألف سوء ، فإنى سيدأبئها وحامئها . إذن فأنسَ صداقتى وارفع يدك عنها .

بولنچيه : [بجرارة متعمّدة] يا لها من كبيرة ! إن عيني لا تنال من هذه الفتاة إلا ما كانت تناله من السيدة العذراء نفسها لو أنى نظرت إليها .

روبير : [ينزل عن الخوان] ولكنها تقول إنك أنت وچاك وديك تطوّعتم بالذهاب معها . فلأى شىء ما تطوّعتم ؟ لا تقل لى إنكم اقتنعتهم بالهراء الذى تقول وأنكم ذاهبون معها إلى الدوفين .

بولنچيه : [ببطء] إن فى هذه الفتاة شيئاً خفياً . إن فى المخفر تحت رجلاً فى أفواهم بذاءة وفى قلوبهم قذارة ، أو بعضهم

هكذا ، ولكنهم لم يفوهوا قط بكلمة تتصل بأوثتها ، وهم يعتقدون ألسنتهم عن اللعن والسباب في حضرتها . إن بها شيئاً خفياً ، سرا لا يُكْتَنه ، لعلنا إن جرّبناه حمدنا عقباه .

روبير : بولى ! بولى ! ما هذا الحديث ؟ تماسك يا رجل وانظر ما تقول . إن البصر بالأمور لم يكن يوماً خيراً فضائلك ، ولكن هذا الذى تزعم فات الحدّ وفاض [يتراجع روبيير عنه مستاءً متقرّزاً] .

بولنچيه : [لا يظهر فيه أثر لاستياء روبيير وتقرّزه] ماذا يفيد البصر بالأمور ؟ لو كانت لنا بصيرة إذن لانضمنا إلى دوق برجندى^(١) Duke of Burgundy وإلى ملك الإنجليز . إن نصف فرنسا إلى اللوار في أيديهم . ولهم باريس . ولهم هذه القلعة ، فأنت تعلم علم اليقين أنك اضطررت إلى تسليمها إلى دوق بدفورد Duke of Bedford ، وأنتك إنما احتفظت بها على عهد أن لا تخون . أما الدوفين في شينون^(٢) Chinon ، كالفأر محصوراً في ركن ، غير أنه يأبى أن يقاتل كما يقاتل الفأر . وعدا هذا فنحن لا ندرى أنه الدوفين حقاً ، فأمه تقول إنه ليس الدوفين ،

(١) برجندى مقاطعة فرنسية في شرق فرنسا .

(٢) بلدة فرنسية على نهر ثينين وهو فرع من نهر اللوار . وهي في الجنوب الشرقى من بلدة أرلين وتبعد عنها نحواً من مائة ميل .

وَمَنْ أَعْرَفُ بَوْلِدٍ مِنْ أُمِّهِ . فإِذَا تَرَى فِي مَلَكَةٍ تَقُولُ إِنَّ وَلَدَهَا
مِنْ حَرَامٍ ؟

روبير : إنها زوجت ابنتها ملكَ الإنجليز ، فهل تلومها ؟
بولنچيه : إني لا ألوم أحداً ، ولكن شكراً لها على
ما صنعت ، فالدوفين كسير ذليل ، ولا بد لنا من مواجهة الحقيقة
عارية . إن الإنجليز سيأخذون أرلين Orleans وابن الفاعلة^(١)
دُنُوا Dunois لن يستطيع إيقافهم .

روبير : إن ابن الفاعلة هزم الإنجليز منذ عامين في
مُنْتَرَجِي Montargis وكنت معه .

بولنچيه : مهما كان من أمره بالأمس فرجاله اليوم مستضعفون
أذلاء ، ولن نجينا الآن إلا معجزة ، وهو لا يستطيع المعجزات
روبير : إن المعجزات لا بأس بها يا بولي ، ولكن
الصعوبة في أنها لا تقع في هذه الأيام .

بولنچيه : هكذا كنت أحسب بالأمس ، أما اليوم فأنا
في ريبة من ذلك [يقوم ويمشى نحو النافذة مفكراً] . وعلى كل حال
فإننا اليوم يقضى بأن لا تترك باباً إلا طرقتاه ، وفي هذه الفتاة
شيء لا أدري كيف أسميه .

(١) هذا لقبه الذي عرف به واسمه دنوا Dunois

روبير : أتظن أن الفتاة تستطيع إثبات المعجزات ؟ قل لي ؛ أتظن ذلك ؟

بولنچيه : إن الفتاة في ذاتها معجزة أو بعض معجزة ، ومهما يكن من أمرها فهي آخر سهم في جماننا ، فالخير في إطلاقه لافي حبسه والرضاء بالهزيمة [يمشى على غير هدى نحو البرج] .

روبير : [يأخذ في التردد] أحققاً تظن ذلك ؟

بولنچيه : [يدور نحوه] وهل أبقيت لنا الحوادث شيئاً نظنه غير ذلك ؟

روبير : [يذهب إليه] قل لي يا بولي ، لو كنت في مكاني أكنت تأذن لفتاة كهذه أن تَخْتَلِكِ عن ستة عشر فرنكا ثمناً لحصان ؟

بولنچيه : أنا أدفع ثمن الحصان .

روبير : تدفمه حقاً ؟!

بولنچيه : نعم أدفمه لأعزز رأبي فيها .

روبير : أتقاصر على أمل خائب كهذا ، بهذا القدر

من المال ؟

بولنچيه : هذه ليست مقامرة .

روبير : فاهى إذن ؟

بولنچيه : إنها حقيقة واقعة كالفجر الطالع . إن كلماتها
وحرارة إيمانها أوقدت في القلب ناراً .

روبير : [يائساً منه] مجنونان استويتما في الجنون والله .

بولنچيه : نحن الآن في حاجة إلى طائفة من المجانين . ألا
ترى أين أدّى بنا العقلاء ؟

روبير : [عندئذ يكسح عجزه وضعف إرادته علنا كل ما ادعاه
من مظاهر العزم القوي] سأحس من نفسى السخف والتغفيل ،
ومع هذا فإن كنت موقناً مما تقول . . ؟

بولنچيه : موقن يقيناً يدفعني إلى أخذها لشينون Chinon
إلا أن تمنحني أنت .

روبير : ليس هذا من المدل في شيء . إنك تلقى
التبعة على .

بولنچيه : إنها عليك لا محالة ، بأيّ قضاء قضيت .

روبير : نعم ، نعم ، فهذا هو عين الحرج . فبأيّ قضاء
أقضى ؟ إنك لا تدري مقدار ما أنا فيه من ارتباك وخيلة [يخطو
خطوة بطيئة وفي نفسه أمل خفي] أن تأتي جان فتكوّن له رأيه [أما

تظن الخبير أن أستدعى جان فأحدثها مرة أخرى ؟

بولنچيه : [ينهض] نعم [ثم يذهب إلى النافذة وينادى] جان !

صوت جان : هل سمح لنا بالذهاب يا بولى ؟

بولنچيه : اصعدى وتعالى هنا . [يلتفت إلى رويير]

أأتركك وإياها ؟

رويير : لا ، بل ابق هنا وشُدَّ أزرى .

[يجلس بولنچيه على الصندوق ، ويعود رويير إلى كرسيّ الإمرة والسلطة ؛ ولكنه لا يجلس عليه بل يظل واقفاً ليستطيع أن ينفخ نفسه فيزداد مهابة . ثم تدخل جان وهي تطفح بالأخبار السارة الكثيرة] .

جان : چاك رضى بأن يدفع نصف ثمن الحصان .

رويير : [يجلس وقد ذهب عنه انتفاخه] جميل جميل

والله !!

بولنچيه : [بصوت قوى حادّ وهو عابس زاجر] اجلسى يا جان .

جان : [تردجر بعض الشيء ، ثم تنظر إلى رويير] هل

لى أن أجلس ؟

رويير : افعلى ما تؤمرين .

[ثنى ركبتيها احتراماً ، ثم تجلس على المقعد بينهما . ويجهاد رويير

فى الظهور بالقوة والجبروت ليخفى خبلته التى هو فيها] .

روبير : ما اسمك ؟

جان : [تتحدث بلا كلفة] في اللورين يسمونني دائماً جيني ،
وهنا في فرنسا يسمونني جان ، والجند يدعونني بالفتاة .

روبير : ما لقبك ؟

جان : لقيي ؟ ما هذا ؟ إن أبي يسمي نفسه أحياناً دَرَك ،
ولكني لا أعلم عن هذا شيئاً . إنك لقيت أبي . إنه ...
روبير : نعم ، نعم ، أذكر ذلك . إنك تأتيين على ما أظن
من دُمرمي Domrémy باللورين ؟

جان : ولكن ما خطرُ هذا والفرنسية لفتنا جميعاً ؟

روبير : لا تسألني الأسئلة وإنما أجيبها . كم سنك ؟

جان : سبع عشرة سنة . هكذا يقولون لي . وقد
تكون تسع عشرة ، فأنا لا أدري .

روبير : قلت إن القديسة كثرينة والقديسة مرغريت

تحدثان إليك كل يوم ، فإذا عيّنت بهذا ؟

جان : إنهما يتحدثان .

روبير : ما شكهما ؟

جان : [يتولاها العناد بغتة] لن أخبرك شيئاً عن هذا ، فهما

لم تاذناني

روبير : ولكن أرايتهما رأيت العين ؟ أتحدثنا إليك فملا
كما أتحدث إليك الآن ؟

جان : لا . إن حديثهما ومرآهما مختلفان كل الاختلاف
عن هذا . إني لن أستطيع أن أحدثك في ذلك ، فلا تحدثني في
الذي أسمع من أصوات .

روبير : ماذا تعنين ؟ أصوات ؟

جان : إني أسمع أصواتاً تأمرني بما أفعَل . إنها تجيء
من عند الله .

روبير : إنها تجيء من خيالك .

جان : بالطبع ، فهكذا تأتي رسائل الله إلى خلقه .
بولنجيه : غلبتكَ يا صاحبي .

روبير : لا ، أبداً . [إلى جان] فاللهُ إذن يأمركَ برفع
الحصار عن أُرلين Orleans ؟

جان : وبتتويج الدوفين في كتدرائية رانس Rheimes

روبير : [يستدرك أنفاسه] تتويج الدو... ! والله عال !

جان : وبطرد الإنجليز من فرنسا .

روبير : [في استهزاء] ثم ماذا بعد هذا ؟

جان : [في خفة روح جذابة] هذا يكفي الآن ، فشكراً لك ياسيدي .

روبير : أظنك تحسبن رفع الحصار سهلاً كطرد بقرة من حقل ؟ أظنك تحسبن الجندية صناعة يتعاطاها كل إنسان ؟
جان : بل أحسب أن الأمر لا يصعب جداً إذا جاءك نصر الله ، وإذا أنت رضيت أن تضع حياتك في يد الله يفعل بها ما يشاء . إن كثيراً من الجند سُذَّجُ أغرار .

روبير : [يتجهم] أغرار ! أرايت الإنجليز يقاتلون ؟

جان : إنهم ليسوا إلا رجالاً ، خلقهم الله كما خلقنا ، وأعطاهم أرضاً ولغة غير لغتنا وأرضنا ، وتأبى مشيئته أن يحتلوا أرضنا وتكلموا لساننا .

روبير : ما الذي أدخل هذا الهُراء إلى رأسك ؟ ألسنت تعلمين أن الجند إنما هم أتباع لربّ الإقطاع ، وأنهم لا يعنيه ولا يعنيتك مَنْ يكون هذا الربّ ، وسواءً عندهم أن يكون دوقَ برجندي أو ملك فرنسا أو ملك الإنجليز . وما دخل اللغات في هذا ؟

جان : لا أفهم كلمة مما تقول . إن الله ربّ السموات

ربنا أجمعين ، وهو قد قسم فينا الأرض والألسن فجعلنا أمماً
وأقطاراً ، وقد شاء الله أن تبقى كل أمة على قطرها ، ولولا هذا
لكان من الإثم قتل الرجل الإنجليزي في الميدان وإهراق دمه
وقد حرّمه الله ، ولولا هذا لكنت يا سيدي على وشك أن تدخل
النار . لا تفكر يا سيدي في واجبك لرب الإقطاع وإنما فكر
في واجبك لرب السماء .

بولنجه : لافائدة من هذا يارويير . إنها تُفحمك وتُخرسك
كلما فتحت فاك .

رويير : هي تفحمني الا والله ، وسترى . [إلى جان] نحن
لا نتحدث عن الله ولكن عن الأمور الواقعة . إني أسألك أيتها
الفتاة مرة أخرى : أرايت الإنجليزي يحارب ؟ ألم ترينهم أبداً
يسلبون ويحرقون ويقلبون الريف الأخضر خراباً يباباً ؟ ألم
تسمى القصص تُروى عن « أميرهم الأسود »^(١) Black Prince

(١) الأمير الأسود لقب جرى على إدوارد أمير الفال (١٣٣٠ — ١٣٧٦) أكبر أولاد إدوارد الثالث ملك إنجلترا (١٣١٢ — ١٣٧٧) ، غزا الاثنان فرنسا أكثر من مرة وجرت لها مع الفرنسيين موقعتان شهيرتان طمعاً في عرش فرنسا ، أولاهما موقعة كريسي Crécy في ٢٥ أغسطس سنة ١٣٤٦ قاد فيها الأمير الأسود بعض جيش أبيه وأبلى بلاء حسناً . وثانيتهما موقعة پواتيه Poitiers وفيها أسرا الأمير ملك فرنسا وباروناته وحمل الملك أسيراً إلى إنجلترا

وقد كان أسود من الشيطان؟ وملكهم^(١)، ألم تسمى الحكايات
تُحكى عن أبيه^(٢)؟

جان : يجب أن تنزع الخوف من قلبك يا رويير .

رويير : لعنة الله عليك ! ما أنا بخائف . ومن ذا الذى .

أذِنَكَ أَنْ تَسْمِنِي رويير؟

جان : هكذا سُمِّيتَ فى الكنيسة بإذن الله . وما لك .

من اسم آخر فهو اسم أبيك أو أخيك أو غيرها .

رويير : صَ . صَ .

جان : أنصبت إلى أيها السيد . فى بلدنا فى دُمرىمي .

Domrémy اضطررنا الحال إلى الفرار من العسكر الإنجليزى إلى .

أقرب قرية ، وفى هذه القرية وجدناهم قد خلقوا ثلاثة من .

جرحاهم . واتفق لى أن عرفت هؤلاء الثلاثة اللّمانين المساكين

خير معرفة ، فلم أجد لهم من قوة الجسم نصف قوتى .

رويير : أتعرفين لماذا يُسمَوْنَ اللّمانين؟

(٢) ملك الإنجليز المذكور هو هنرى السادس (١٤٢١ — ١٤٧١) تتوج فى .

لندن عام ١٤٢٩ وتتوج فى باريس ملكا على فرنسا فى عام ١٤٣٠

(٢) أبوه هو هنرى الخامس (١٣٨٧ — ١٤٢٢) ملك إنجلترا ، غزا فرنسا .

طمعاً فى عرشها ودخل باريس

چان : لا . كل الناس تسميهم لمانين^(١) .
روبير : ذلك لأنهم دائماً يدعون الله بعضهم في بعض بأن
يلعنهم ويهلك أرواحهم . فهذا معنى الكلمة في لغتهم ، فكيف
تجدون ذلك ؟

چان : رحمهم الله . إنهم سيعودون إلى بلادهم ، إلى
الأرض التي خلقها الله لهم وخلقهم لها ، وعندئذ يفعلون كما يفعل
عباده الصالحون . لقد سمعت قصة أميرم الأسود . إنه ما لبث
أن وطئت قدماه أرض بلادنا حتى تقمصه الشيطان فصار مارداً
أسود شريراً . ولكنه في بلاده ، في الأرض التي خلقها الله له ،
كان من عباد الله الصالحين . وهكذا شأن الناس . فأنا لو ذهبت
إلى إنجلترا ضد مشيئة الله لأغزوها وأعيش فيها وأتكلم لغتها ،
إذن لتقمصني الشيطان . فإذا جاءني الشيخوخة أخذني الفزع كلما
تذكرت ما صنعت من سوء في صباي .

روبير : قد يكون هذا . ولكن كلما ركبت الشيطان
ازددت مراساً في الحروب . ومن أجل هذا سيأخذ الإنجليز
أرلين Orleans بما ركبهم الشيطان . وأنت لن تصديهم عنها ولا
عشرة آلاف مثلك .

(١) أصل الكلمة جدمانز Godamns وهي تتركب من كلمتين جد God كلمة
معناها الله ، ودام damn كلمة أخرى معناها يلعن . ومن الإنجليز من يرم عند السباب
باللعن كما يرم بعض الشرقيين بالدعاء باللعنة

جان : ألف واحد مثلى يصدونهم عنها . بل عشرة
مثلى يصدونهم إذا كان الله معهم [تضييق بجلستها وسكونها فتقوم نجاة
وتهجم عليه] إنك لا تفهم يا سيدى . إن جنودنا يُغلبون لأنهم
يحاربون لخلاص رقابهم والإفلات من الموت . والهرب أقصر
الطرق إلى النجاة . وفرساننا النبلاء Knights لا يفكرون إلا فى
مال الفداء . فالحال معهم « ندفع أو تدفمون » لا « نُقتل
أو تُقتلون » . فسأعلمهم كيف يقاتلون حتى تكون مشيئة الله فى
هذا البلد الأمين ، وعندئذ يطردون الإنجليز من فرنسا طرداً ،
ويسوقونهم كاختراف سوقاً . وستعيش أنت ويعيش پولى لتريا
أرض فرنسا وقد دخلت منهم أجمعين ، فلا يكون فيها إلاملك واحد ،
ليس هو الملك الإنجليزى الإقطاعى ، ولكن ملك الله الفرنسى .
روبير : [إلى بولنجه] بولنجه ، قد يكون كل هذا خرفاً ،
ولكن الجند قد يصدقونه ، فإن هم صدقوه هاجهم إلى القتال .
على أنهم ما هاجهم إلى القتال شىء قلناه أبداً . والدوفين نفسه قد
يؤمن به ، فإن هى استطاعت حمله على القتال حملت عليه كل
الناس من ورائه .

بولنجه : لا أرى فى التجربة ضرراً ؟ فهل ترى فيها شيئاً ؟

إن فى هذه الفتاة سرا

روبير : [يلفت إلى جان] والآن أنصتي إلى أيتها الفتاة ،
[يضيق ذرعاً بقطعها الكلام عليه] لا تعجلي بمقاطعتي قبل أن
أتم تفكيري .

جان : [ترتمى في رثقل على المقعد كتمليذة مدرسة طيعة] سمعاً
وطاعة ياسيدي .

روبير : إن أمرى إليك أن تذهبي إلى شينون Chinon
بصحبة هذا الرجل السري وثلاثة من أصحابه .

جان : [يضىء وجهها فرحاً وقد شابكت بين يديها] أى سيدي
الأكرم . إني أرى هالة تدور حول رأسك كهالة القديسين .

بولنچيه : وكيف يكون دخولها إلى الحضرة الملكية ؟

روبير : [وقد كان ينظر فوق رأسه يبحث عن الهالة في شيء
من الخشبة] لا أدري . تدخل إلى حضرته بمثل ما دخلت إلى
حضرتي . فإن استطاع الدوفين أن يمنعها من الدخول فهو من
الرجولة فوق ما كنت أحسب . [يقوم] . سأبعث بها إلى شينون
ولها أن تقول إني بعثت بها ، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون فهذا
كل طوقى .

جان : والملابس ؟ تأذن لى فى ملابس الجند ، أليس
كذلك ياسيدي ؟

روبير : البسى ما تشائين و عليك تبعته فليس لى شأن فيه .
جان : [ثور فرحاً بنجاحها] هيا يا بولى هيا! [تخرج مندفة].
روبير : [يصافح بولنچيه] مع سلامة الله يا عزى . لانى
مجازف فى الذى أتيت و قلّ من الرجال من يصنع مثل الذى
صنعت ، ولكنى أرى كما ترى أن فى هذه الفتاة شيئاً خفياً .

بولنچيه : : نعم إن بها سرا . فى حفظ الله [يخرج]
[يعود روبيير من الباب على مهل وهو يحك رأسه يفكر فى الذى
حدث ، وهو فى ريبة شديدة أن يكون قد تغفلته أنى محبولة هى فوق
خيلتها دونه فى المجتمع شأنًا] .

[يدخل الخولى جاريًا هالغاً يحمل سلّة]

روبير : ماذا عندك الآن ؟

الخولى : سيدى ! إن الدجاج بيبيض بغير حساب . ستون
بيضة يا سيدى .

روبير : [يتصلب فى ارتعاش . ثم يرسم علامة الصليب على نفسه
ثم ينبس بالكلمات الآتية فى عسر من شفيتين قد هرب الدم منهما]
المجد لله فى السماء [ثم يقول فى صوت عال وهو ياهث لاقطاع أنفاسه]
إن رسالتها من الله حقا .

المنظر الثاني

[في بلدة شينون Chinon في مقاطعة تورين Touraine . يظهر طرف من حجرة العرش وقد انفصل عن باقي الحجرة بستار فصار مدخلا لها . وقد وقف فيه رجلان ينتظران قدوم الدوفين ، أحدهما مطران مدينة رانس Rheims وهو رجل قارب الخمسين معلوفٌ بدين ليس له من مظهر كَنَسِيٍّ غير الضخامة والوجهة ، وله في السياسة شأن . والرجل الثاني كبير أمناء الملك ، للنسيور دي لَتْرِيْمِي ، de La Trémouille وهو رجل فظيع متمجرف مليء كركق أغم خمرآ . وفي الخائط إلى يمين الرجلين باب . وتاريخ اليوم الثامن من مارس عام ١٤٢٩ . والوقت الأصيل] .

[يقف المطران وقفة وقار ، وإلى يساره كبير الأمناء يرغى ويزبد غاضباً عاصفاً] .

لَتْرِيْمِي : ماذا يعني الدوفين بهذا ؟ ماذا يعني مجبسننا في انتظاره كل هذه المدة ؟ وأنت ما صبرك ووقوفك هكذا كالصنم ؟

المطران : إنك تعلم أني مطران ، والمطارنة بعض صنوف الأصنام . أو على الأقل فن بعض عملنا أن نتعلم أن نحتمل

كالأصنام وقاحة البلهاء وجهل الأغبياء . وعدا هذا يا عزيزي
يا كبير الأمناء ، أليس من حق الدوفين أن يجسك في انتظاره ؟
لتريمي : لعنة الله على الدوفين ، وَعَدَّتْكَ اللعنة ! أتدري
كم لى عليه من الدين ؟

المطران : أكثر كثيراً مما لى أنا عليه ، لاشك ، لأنك
أغنى منى كثيراً . وهذا على فرض أنك أقرضته كل ما تستطيع
إقراضه ، فهكذا فعلت أنا .

لتريمي : سبعة وعشرون ألفاً ! هذه آخر نشلة نشلها .
سبعة وعشرون ألفاً !

المطران : وماذا صنع بها كلها ، فإنى لم أر قطُّ عليه
كسوة تصالح أن أرى بها لقسيس .

لتريمي : إنه يتغدى بدُجيجة أو بقطعة خسيصة من
الضأن . يقترض منى آخر درهم ومع هذا لا تجد عليه من آثار
ذلك شيئاً . [يظهر حاجب فى الباب] أخيراً !

الحاجب : لا يا مولاي . ليس هذا بالملك ، وإنما هو

السيد دى ريه de Rais .

لتريمي : الشاب ذو اللحية الزرقاء ! ولماذا تستأذن له ؟

الحاجب : الكبتن لاهير La Hire معه . حدث حادث
على ما أحسب .

[يدخل الكبتن چل دى ريه Gilles de Rais ، وهو فنى أنيق
رزين ، يُزهى بلحيةٍ مُحوَّاةٍ صغيرةٍ صبغها بالأزرق ، وازدهاه منها أنه انقرد
بها فأرسلها فى بلاط لا تُرسل فيه اللهى . وهو رجل يدأب دائماً ليكون
محبباً إلى الناس ، ولكن تعوزه البهجة المطبوعة ، وهو فى صميمه غير
لطيف . ومصداق ذلك أنه تحدى الكنيسة بعد ذلك بإحدى عشرة سنة
أو نحوها فاتهمته بأنه كان يبنى المتعة ويطلب اللذة من أفعال قاسية فظيعة ،
ومن جراً هذا شنقوه^(١) . أما الساعة فلم يكن قد أظله بعدُ ظل المشانق ،
فهو يتقدم فى ابتهاج إلى المطران . عندئذ يخرج الحاجب] .

ذو اللحية الزرقاء : عبدك ووليك ياسيدى المطران . ونهارك
سميد يامولاي ، أتدرى ماحدث للاهير ؟

لترىمى : إنه سبأب بندىء فلعله انتابته نوبة من السب
واللعن تركته صريعاً .

(١) چل دى ريه (١٤٠٤ — ١٤٤٠) ويلقب بندى اللحية الزرقاء حارب
الانجليز ومنح لقب مارشال فرنسا فى عام ١٤٢٦ . وقدم شارل السابع ملك فرنسا
وأثقف فى خدمته مالا كثيراً من ثروة كبيرة . ورعى الأدب والموسيقى وأولاهما عطفه
وماله . ولكن كانت به سوءة كبيرة لم يظن لها رؤساؤه وأقرانه حتى اتهمه بها
الفلاحون ، ذلك أنه كان يرسل خدمه تحتطف له الأولاد ، فيسومهم العنف ثم يقتلهم .
فلما خاصته الكنيسة على الزندقة والقتل كان عدد قتلاه قد بلغ المائة والأربعين .
واعترف بخطاياهم فهرب بذلك من حكم الكنيسة . ولم تستطع الحكم عليه فى تهمة القتل
فقام بمحاكمته رئيس برلمان بريتون فحكم عليه بالشنق فشنق فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٤٤٠

ذو اللحية الزرقاء : لا ، فالأمر على تقيض ما تقول . فما هو
بالصريح ، وإنما الصريح فِرَنَك ، ذلك السَّبَاب الوحيد في تورين
الذى يستطيع غلبة لاهير في السَّبَاب ، وكان يَسُبُّ وَيُفْحَشُ فقال
له جندى ما يحمل بك السَّبَاب وأنت على باب الموت .

المطران : ولا على أى باب آخر . ولكن قل لى كيف كان
فِرَنَك البذاء على باب الموت ؟

ذو اللحية الزرقاء : سقطتوا فى بئر وغرق فيه . وراه لاهير
فارتاع حتى فقد صوابه .

[يدخل الكبتين لاهير ، وهو جندى قديم ، لا يعرف من آداب
البلاط والقصور شيئاً ، ولكنه يعرف الكثير النابى من أدب المسكر
والخيام] .

ذو اللحية الزرقاء : كنت أحدث المطران وكبير الأبناء
عنك ، فقال المطران إنك نفسٌ ضالَّةٌ هالكة .

لاهير : [يمر أمام ذى اللحية الزرقاء بخطى واسعة ثقيلة إلى أن
يزرع نفسه بين المطران وكبير الأبناء] ليس الأمر مزاحاً ، فقد كان
الحال شراً مما ظننت . فالجندى لم يكن جندياً وإنما ملكاً فى
لباس جندى .

المطران والأمين وذو اللحية الزرقاء : [يصبحون معاً] ملكاً

لاهير : نعم مَلَكًا . إنها فتاة قامت من شمبانيا في ستة من الرجال ، ونفذت بهم في الكثيف من كل شيء ، في بُرْجَنْدِيِّين^(١) وانجليز وفارّين من الجيش ولصوص نهّابين وغير ذلك مما يعلم الله ، ومع كل هذا لم تقع أبصارهم على أحد إلا أهل الريف .
إني أعرف أحد هؤلاء الرجال ، هودي بوليني ، وهو يقول إنها مَلَك . أَلَا عَلَى اللعنة بعد هذا إن نطق في بفاحشة أبدًا .

المطران : فآتمحة في التقوى مُبِينَةٌ يَا كِبْتَن .

[يضحك لتريمى وذو اللحية الزرقاء . يعود الحاجب] .

الحاجب : جلالة الملك .

[يقفون في انتظام يؤدون واجب البلاط كمن يؤدى واجباً ثقيلًا .
ثم يدخل الدوفين من خَلَل الستائر وفي يده ورقة . وهو في الواقع قد أصبح الملك شارل السابع منذ مات أبوه ، ولكنه لم يكن قد تتوج بعد ، وهو في السادسة والعشرين ، وله جسم ضعيف حقير . وكانت تجرى العادة بالإلحاح في حلق الرأس فلا تبدو من تحت غطائه بادية من شعر ، فزاد هذا في منظره قبحًا . وكانت عادة تجرى في الرجال والنساء على السواء . وكانت له عينان صغيرتان ضيقتان متقاربتان ، وأنف متهدّل طويل يتدلّى من فوق شفة عليا سميقة قصيرة . وعلى وجهه سمة الكلب الصغير الذى اعتاد الرُفْسَ الكثير فلم يؤدبه الرُفْسُ ولم يصلح منه شيئًا . ولكن لم تكن فيه جلالة

(١) برجندى مقاطعة بفرنسا .

أو غباوة . وكانت له فكاهاة في صفاقة أعاتته على حسن الدفاع عن نفسه في الأحاديث . وكان في هذه الساعة مُهتاج المشاعر كالطفل وجد لُعبة جديدة . دخل وأتجه إلى المطران عن يساره فتراجع لاهير وذو اللحية الزرقاء نحو الستائر] .

شارل : أتدرى يا مطران ما بعث لي رويو دي بُدريكور من فوكولور؟

المطران : [في احتقار] أنا لا أحتفل بلُعباتك الجديدة .

شارل : [غاضباً] ليست هذه لُعبة . [بوجه عابس متجهّم] .

على كل حال أنا في غنى عن احتفالك .

المطران : سموك يفضب من غير ضرورة .

شارل : متشكر ! إنك دائماً حاضرٌ بخطبة تعظ بها .

لتريمي : [في غير رقة] كفاك شكوى . ثم ماذا بيدك؟

شارل : وما شأنك في هذا؟

لتريمي : إن من شأنى أن أعلم ما يجري بينك وبين حامية

فوكولور [يجذب الورقة من الدوفين ويبدأ يقرأها في صعوبة ويتتبع

كلماتها بأصبعه كلمة كلمة ، يتهجى مقاطع الكلمات مقطعاً مقطعاً] .

شارل : [كسير النفس] إنكم جميعاً تحسبون أن لكم أن

تعاملونى كما تشاؤون لأنى مدين لكم ، ولأنى لا أحسن القتال .

ولكن اعلّموا أن في هذه المروق يجري دم الملوك .

المطران : حتى هذا مشكوك فيه يا صاحب السمو ، ولن يجد الناظر فيك شيئاً من مخايل جدك شارل الحكيم .

شارل : دَعُوا جدي وذَكَره فأأ كاد أُطيقه . إنه غلا في الحكمة فلم يكتف بنصيبه منها ، وجار على أنصبه الأسرة جميعها واستحوذ عليها كلها الخمسة أحقاب تأتي من بعده ، وخلفني بينكم سخيفاً ضعيفاً تمتهنونني وتوعدونني جميعاً .

المطران : اضبط نفسك يا سيدي فهذه الغضببات الصارخة لا تليق .

شارل : أموعظة أخرى ! أشكرك . أليس من الأسف الكثير أن القديسين والملائكة لا تأتيك برغم أنك مطران ؟

المطران : ماذا تعني ؟

شارل : ها ، ها ، ها ! سل هذا المتفطر من الشرير [يشير إلى لتريمي] .

لتريمي : [وقد هاج غضباً] احبس لسانك يا هذا . أسمعني ؟
شارل : بالطبع أسمعك فلا داعي للصراخ . إن كل من في القلعة يسمعك . قل لي ، لماذا لا تذهب إلى الإنجليز وتصرخ فيهم هذا الصراخ ، وتهزمهم نيابة عني ؟

لتريمي : [يرفع قبضة يده مهدداً] أنت أيها ال...
شارل : [يجري وراء المطران] إياك أن ترفع يدك عليّ .. إنها
الخيانة العظمى .

لاهير : حلما أيها الدوق حلما .

المطران : [بقوة] لا ، لا . إن هذا لا يُجدي . سيدي الأمين
الأكبر ، أرجوك ، أرجوك ، فلا بد من بعض النظام فينا .
[إلى الدوفين] وأنت يا سيدي إن عجزت عن حكم مملكتك فلا
أقلّ من أن تبغى حكم نفسك .

شارل : موعظة أخرى ! أشكرك

لتريمي : [يعطى الورقة للمطران] خذ واقرأ لي هذه الورقة
المنكودة . لقد أصعد الدم إلى رأسي فلم أعد أتبيّن من حروفها شيئاً .
شارل : [يخرج من خلف المطران ويذهب وراء لتريمي ويُطلّ
من فوق كتفه اليسرى] أنا أقرؤها لك إن أحببت . أنا أعرف
كيف أقرأ ، حقاً لا كذبا .

لتريمي : [باحترار شديد ، وبدون أن تؤثر فيه التعميرة اللاذعة
التي قصدها شارل] نعم تعرف أن تقرأ ، وهذا كل ما تصلح له .
أقرأت ما بها يا مطران ؟

المطران : كنت أحسب بدريكور أعقل من هذا . إنه
يبعث إلينا بنت فلاحه معنوهة . .

شارل : [مقاطعاً] لا ، لا ، إنه بعث ملكاً . إنه بعث
قديسة . وهي تجيء إلى أنا ، نعم إلى أنا ، أنا الملك لا إليك أنت
يا مطران ، برغم قداستك . فإن أنت جهلت الدم الملكي أين
يكون فقد عرفت هي مكانه [يمشى إلى الستائر من بين لاهير وذى
اللحية الزرقاء رافعا أذنه نفوراً زاهياً] .

المطران : لن ترى هذه الفتاة البهاء .

شارل : [ينفك راجعاً] ولكنى أنا الملك وسوف أراها
لترى : [بقسوة] إذن فهي لن تراك ، فإذا عندك الآن ؟
شارل : قلت لك سأراها ، وفي هذه المرة سأعرف
كيف يطاع أمرى .

ذو اللحية الزرقاء : [ضاحكاً منه] يا صبيّ يا شقيّ ! ماذا كان
جدك الحكيم يقول لو أنه سمع منك هذا ؟

شارل : سؤالك هذا دليل جهلك يا ذا اللحية الزرقاء . إن
جدى كانت له قديسة تعلق في صلاتها في الهواء وتخبّره بكل
ما يؤدّ علمه . وأبي المسكين كانت له قديستان ، مارى دى ميّا

Marie de Maillé وجنسك أفتيون Gasque of Avignon . إن
هذا من تقاليد الأنسة ، فلست أبالي بالذى تقولون ، فلا بد لى
من قديسة أنا أيضاً .

المطران : إن هذه المخلوقة ليست قديسة . وما هى حتى
بالمرأة المحترمة . إنها لا تلبس ملابس النساء ، بل ملابس الجند ،
وهى تركب مع الجند وتطوف الريف مع الجند ، فهل تحسب
ياصاحب السمو أن امرأة كهذه خليفة بالدخول إلى بلاطك ؟
لاهير : صه ! [يذهب إلى المطران] أتقول إنها فتاة تلبس
درعا كالجنود ؟

المطران : هكذا يصفها بدرىكور .

لاهير : ولكن ، وحياة كل عفريت ، وعزة كل شيطان
مريد — آه عفوك اللهم ماذا أقول ؟ — بل وحياة العذراء مريم
وعزة القديسين أجمين إن هذه إلا الملك الذى صَعَقَ فرنك
البذاء وقتله لفحش لسانه .

شارل : [فرحا بنصره] ألا ترون ! إنها معجزة !

لاهير : أخشى أن تصعقنا جميعاً إذا نحن أسأناها ، فبريك
يامطران إلا وزنت ما تقول وتفعل .

المطران : [بشدة] كلام فارغ ! من هذا الذي صُمِقَ ؟ إن هو إلا رجل سافل سكير ليم ألف مرة على فخذه ، ثم ساقه القدر إلى بر فسقط وغرق فيها . مصادفة من مصادفات الحوادث
لاهير : أنا لا أعرف المصادفات ما هي ، ولكنني أعرف أن الرجل مات ، وأنها قالت له إنه سيموت .

المطران : ولكننا سنموت جميعاً يا كبتن .

لاهير : [يصلب على صدره] أعوذ بالله من الموت [يتراجع

خشية الاستمرار في الحديث]

ذو اللحية الزرقاء : من الميسور أن نكتشف إن كانت هذه الفتاة ملكاً أو غير ملك . دعونا ندعى إذا هي حضرت أنني أنا الدوفين ، ثم ننظر ما سيكون منها ، أتعرفني ، أم تجوز الحيلة عليها .

شارل : إنني موافق ، فإن هي لم تتبين أين يجري الدم الملكي فلا عرفتها ولا عرفتنى .

المطران : إن تنصيب القديسين من عمل الكنيسة ، فما بال بدريكور يدخل فيما لا يمينه ، وما باله يقتصب القساوسة أعمالهم .
لا والله ، لن تدخل هذه الفتاة هنا أبداً .

ذو اللحية الزرقاء : ولكنك يامطران ...

المطران : [بصلاة] إني أتكلم باسم الكنيسة [إلى الدوفين]
فهل تتجاسر أن تأذن لها في الدخول ؟

شارل : [مرتاعاً ولكنه عابس] إذا كنت تنذرنى بقطمى
من الكنيسة فبالطبع ليس لى ما أقوله . ولكنك لم تقرأ ذيل
الكتاب . بدريكور يقول إنها ترفع لنا الحصار عن أرلين ،
وتهزم لنا الإنجليز .

لتريمى : كلامٌ هُراء .

شارل : إذن فهل تقوم أنت برفع الحصار بكل ما أوتيت
من غلظة وطميان .

لتريمى : لاتسبئنى فى وجهى ، أفسامع أنت ؟ إنى حاربت
أكثر مما فعلت أنت أو تفعل أبداً ، ولكنى لا أستطيع تقطيع
نفسى هنا وهنا .

شارل : لا بأس عليك ، فى هذا بعض البلاغ .

ذو اللحية الزرقاء : [يأتى بين المطران والملك] أليس عندك جاك
دُنوا Jack Dunois على رأس جيوشك فى أرلين ، دنوا الشجاع ،
دنوا الوسيم القسيم ، دنوا البطل البارع الذى لا يُغاب ، دنوا

حبيب النساء جماء ، دنوا ابن الفاعلة ذو الملاحه والجمال ؟ أَفَيُثَقَل
أن فتاة من بنات الريف تقدر على ما لا يقدر عليه هذا الرجل ؟

شارل : إذن فلم لا يرفع الحصار عن أرلين ؟

لاهير : إن الرياح تهب على غير هواه .

ذو اللحية الزرقاء : أرلين ليست على بحر المنش ، فاله وللرياح

تهب على غير هواه ؟

لاهير : إن أرلين على نهر اللوار ، والإنجليز ممسكون
برأس الجسر ، فلا بد له إن أراد أن يأخذهم من ورائهم أن يرسل
رجاله عَبْرَ النهر وضدّ التيار . ولكن ريحا قوية لعينة لا تفتأ
تهب عكس اتجاهه . وقد أمر القساوسة أن يقيموا الصلوات
ويدعوا الدعوات عسى أن تتغير الريح دون جدوى ، ودفع لهم عن
صلواتهم ودعواتهم أجراً كثيراً حتى أملّه الدفع . فالذى يحتاجه
الآن معجزة تنزل عليه من السماء . إنكم تقولون لى إن الذى
فعلته الفتاة لفرنك البذاء لم يكن من المعجزات فى شىء . فهبوا
لم تكن معجزة ، ولكنها قضت عليه قضاء مبرما . وهذه الفتاة
لو أنها دَعَتْ للريح فتغيرت وجهتها ، ففى وسعكم أيضاً أن لا تمُدُّوا
ما تصنع معجزة ، وهذا لا يضير شيئاً ، ولكنها قد تقضى

بذلك على الإنجليز قضاء مبرماً . فما ضير هذا ، وما ضرر التجربة فيه ؟

المطران : [وقد جاء على قراءة الكتاب كله وأخذته التفكير] يظهر أن بدريكور لا شك تأثر بأمر هذه الفتاة تأثراً كبيراً .
لاهير : إن بدريكور جحش كبير، ولكنه جندي مكين أيضاً، فهو لو ظن أنه غالب الإنجليز، لظن ذلك معه الجيش كله .
لتريمي : [إلى المطران وهو في تردد] خذهم على هوام وأعطهم ما يريدون . إن رجال دنوا مُسلمون البلد لا محالة ، مسلّموها على الرغم منه ، إذا هم لم يأتهم من يشدُّ أزرهم ويُحيي أملمهم وبيت الجرأة في قلوبهم .

المطران : إن الكنيسة لا بد لها من امتحان الفتاة قبل أن يُقضى بأمر فيها . وعلى هذا ، فبما أن سموه يرغب في حضورها ، فادعوها تدخل إلى البلاط .

لاهير : سأجدها وأدعوها [يخرج] .

شارل : تعال معي يا ذا اللحية الزرقاء ، وهيا نهي أمرينا حتى لا تستطيع الفتاة تمييزي . فكن أنت الملك [يخرج من خلال الستائر] .

ذو اللحية الزرقاء : أنا أكون هذا الشيء الحقير ! اللهم

عفوا يارب السماء! [يخرج وراء الدوفين] .

لتريمي : أترى تستطيع الفتاة تمييز الدوفين؟

المطران : بالطبع تميزه .

لتريمي : وكيف؟ أتى لها عرفانه؟

المطران : إنها تعرف ما يعرفه كل الناس في شينون : أن

الدوفين أحقر من في البلاط منظرأ وأخسهم ملبسأ ، وأن الرجل

ذا اللحية الزرقاء إن هو إلا جل دي ريه Gilles de Rais .

لتريمي : فأتنى أن أذكر هذا .

المطران : إنك لا تعلم من أمر المعجزات ما علمت أنا . إن

علم المعجزات من بمض صناعتى .

لتريمي : [وقد اختلط فكره واستاء قليلا مما قال المطران] ولكن

هذا لا يكون معجزة أبداً .

المطران : [في هدوء] ولم لا؟

لتريمي : خلنا في الجد وقل لى ما هى المعجزة؟

المطران : إن المعجزة يا صديقى حادث يبعث فيك الثقة

ويخلق الإيمان . فهذا طبيعة المعجزات ، وهذا مقصدها .

والمعجزات قد تظهر غريبة جدا لمن يشهدونها ، وقد تظهر في

غاية البساطة لمن يأتونها . ولكن لا ضير من هذا ، فهى

معجزات حقًا ما بعثت في الناس الإيمان حقًا .

لترى : حتى ولو كانت خداعا .

المطران : إن الخداع يَخْدَع ، ولكنَّ الحادث الذي يبعث

الإيمان لا يَخْدَع ، فهو إذن معجزة لا خداع .

لترى : [يحك رقبتك وقد اختلط عليه ما يسمع] إنك مطران

فلا بد أنك على حق ، ولو أن الريبة تبدو لي بعض الشيء فيما

تقول . على أنى لست رجلا من رجال الكنيسة ولهذا تتعمى على

هذه الأمور .

المطران : نعم لست رجلا من رجال الكنيسة ، ولكنك

رجل من رجال السياسة وجندى من رجال الجيش ، قتل لي بالله

أستطيع جباية الضرائب من الناس أو إغراء الجند بالتضحية

بأرواحهم إذا هم علموا بالواقع الجارى بدلا مما يتراءى لهم أنه

الواقع الجارى .

لترى : لا وربك ، إذن لهاجوا وماجوا وأحدثوا

الأحداث قبل مغيب الشمس .

المطران : أليس من السهل أن تقول الحق لهم ؟

لترى : لن يصدقوه ورب العزة .

المطران : أصبت ! أصبت ! إذن فاعلم أن الكنيسة عليها
حُكْم الرجال لخير أرواحهم كما عليكم حكمهم لخير أجسامهم . ولهذا
وجب على الكنيسة أن تفعل ما تفعلوه : تَسْقِي إيمانهم بماء الشَّعْر
لترى : شعر ! إني أسميه غشا وخداعا .

المطران : تخطى يا عزيزى إن أنت سمّيته هكذا . إن
الأقاصيص تُحكى للعبرة ، والأمثال تُضرب في الناس ، فلا
تسمى أكاذيب من أجل أنها تصف أحداثا لم تقع في الزمن أبدا .
كذلك المعجزات ليست حُدُعات لأنها كثيراً — ولا أقول دائماً —
لا تكون إلا ابتكارات بسيطة بريئة يبتدعها القسيس ليحمى
بها إيمان قطيعه . إن هذه الفتاة إذا دخلت علينا فعرّفت الدوفين
من بين رجال البلاط ، فإن هذا العرفان لا يقع عندي موقع
المعجزة ، لأنى أعلم كيف جاء ، فهو لا يزيد في إيمانى . ولكنه
يكون عند غيرى معجزة ، ومعجزة مباركة أيضاً ، إذا هم أحسوا
منها تلك الهزّة التى تهزها الأنفس لخوارق الأمور ، وإذا هم
نسوا أجسادهم وطينتها الخاطئة فيما غَشِيهم من شعور بعجد الله
فاجئ . وستجد الفتاة نفسها قد تأثرت أكثر من كل أحد
بالذى فَعَلت . وستجدها قد نسيت أى السَّبُل سلكت لمعرفة

الدوفين . ولعلك أنت واجد من ذلك مثل ما وجدت .

لترى : من لى ببصرة نفاذة أنفذ بها فيك فأعرف أى
بعضيك أكبر ، بعضك الذى يسكنه مطران الله الورع التقى ،
أم بعضك الذى يسكنه أخبث ثعلب فى تورين . ولكن هلم
بنا وإلا فاتتنا النكته الواقعة ، فإنى أريد أن أراها ، معجزة كانت
أو غير معجزة .

المطران : [يتمهل عن الذهاب برهة] لا تظن أنى أحب
السبل الضالة والطرقات المعوجة . إن فى الناس روبا تنمو
جديدة ، ونحن فى فجر عصر أوسع أفقا مما نحن فيه . ولو أنى
كنت راهبا بسيطا ، ولم يكن من عملى حكم الرجال ، لطلبت
السلام لروحي والطمأنينة لنفسى لدى أرسطو وعند فيثاغورس
مؤثراً إياهما على القديسين ومعجزات القديسين .

لترى : ويحك من فيثاغورس ؟

المطران : حكيم كان يرى أن الأرض كرة وأنها تجرى
حول الشمس .

لترى : أى مغفل مُطبق الجمالة هذا ! ألم تكن له
عينان تبصران ؟

[يخرج الرجلان معا من خلل الستائر . وبسد برهة تعود الستائر
فتنفرج فتكشف عن قاعة العرش كلها حتى أقصاها ، فترى وقد انعدت
بها هيئة البلاط . ويرى فيها إلى اليمين كرسيان من كرسي الدولة
مرفوعان على منصّة ، وقد وقف على المنصّة ذو اللحية الزرقاء يمثل دور
الملك . وكان ، كالبطانة كلها ، يستمتع بالأضحوة التي أثمروا عليها استمتاعا
لا يكاد يخفيه . وفي الجدار وراء المنصّة باب حنّي يحجبه ستار ، ولكن
الباب الأكبر في الجانب الأيسر المقابل يخفّره جند في السلاح . وبين
الباين طريق خال اصطف على جانبيه أهل البلاط . ووقف شارل في
الصف في وسط الحجرة . ووقف لاهير على يمينه ، ووقف المطران على
يساره ، ولكنه اتخذ موقفه جنب المنصّة . ووقف لتريمي في قبالة في
الصف الآخر . وجلست دوقه لتريمي على كرسي الملكة مدعية أنها
الملكة ، واجتمع حولها طائفة من النساء من بطاتها وقفن خلف المطران]
[ويزيد لفظ الأحاديث ويشدد ، فيظهر الحاجب على الباب فلا
يراه أحد] .

الحاجب : إن دوق . . . [لا ينصت أحد] إن دوق . . .

[يستمر اللفظ ، فيغضب الحاجب لانصرافهم عنه وعجزه عن لقتهم
إليه فينتزع من أقرب حارس رمح ، وهو رمح له رأس بلطة ، فيضرب
برؤجه الأرض . عندئذ يذهب اللفظ وينصت الجميع وتجتمع عيون القوم
عليه] أنصتوا [ثم هو يعيد الرمح إلى الحارس] إن دوق فنقوم
Vendôme يقدم الفتاة جان إلى الملك .

شارل : [يرفع سبّابته إلى شفته يحدّر من الكلام] صه [ثم هو
يخفي وراء أقرب رجل من البطانة ولكنه يطاول برأسه من ورائه ليرى
ما يجري] .

ذو اللحية الزرقاء : خلّوا لها السبيل إلى عرشنا .

[تدخل جان يقودها نبيل من النبلاء حيّ صامت . وهي في لباس
الجند ، قد قصّت شعرها فقصرُ وتعلّق كثيفاً حول وجهها . وما تكاد تدخل
حتى تتخلّص من يد النبيل وتقف تبحث فيمن حولها عن الدوفين] .

الدوقة : [تتحدث إلى أقرب الوصيفات] انظري ! انظري !

شعرها ! [عندئذ لا تطيق السيدات حبس الضحك فيُرسّلهنّ عالياً] .

ذو اللحية الزرقاء : [يحاول ألا يضحك ويشير إلى السيدات بيده

غير راض عما هنّ فيه من حبور] لا . لا . سيداتي !

جان : [لا تنزعج مما جرى] إني أفعل هذا بشعري لأنّي من

الجند . أين الدوقين ؟

[تنوجه جان ناحية العرش فتجري في الحاضرين ضحكاتٌ محبوبسات

مسموعات] .

ذو اللحية الزرقاء : [في تواضع] إنك في حضرة الدوفين .

[فتنظر جان إليه في ارتياب ساعة من الزمان ، وتأخذ تنفّسه من

رأسه إلى قدمه ، والقوم صُمتٌ ينظرون ما عسى أن تفعل . ثم ينبثق في

حياها سرور النكتة فتقول] .

جان : اطلع مما أنت فيه ياذا اللحية الزرقاء فما مثلك من
يخدعنى . ثم قل لى أين الدوفين .

[تنطلق فحككات عاليات فى البلاط إذ يشير ذو اللحية الزرقاء إشارة
الخفية والتسليم ، ثم يضحك مع الضاحكين وينط من المنصة إلى جانب
لتريمى . أما جان فتتكص عن العرش ، وفى فيها ابتسامة عريضة ، تبحث
فى الصفين عن الدوفين ، وما هى إلا برهات حتى تنوص فى أحدهما
فتمسك بذراع شارل وتخرجه إليها]

جان : [ترفع يدها عن شارل وتثنى له ركبتيها احتراماً] أيها
الدوفين ، يا صغير ، يا رقيق ، يا رقيق ، إنى مرسلّة لطرد الإنجائز
عن أزلين وعن فرنسا ، ولتتويجك ملكاً فى كندراية رانس ،
ففيها يتوّج كل ملك حقّ من ملوك فرنسا الأصيلين .

شارل : [يتحدث إلى رجال البلاط مزهواً بنصرتهم عليهم] أفرايم
يا هؤلاء جميعاً كيف تعرّفت الفتاة فعرفت أين يوجد الدم
الملكى . فالآن من منكم يجرؤ فيقول إنى لست ابن أبى ؟
[يتحدث إلى جان] أما أنتِ فاإذا أردت تتويجى فى رانس فعليك
بالتحدّث فى هذا إلى المطران لا إلى . وها هو [وكان المطران خلفها] .

جان : [تدور على قدميها فى سرعة إلى المطران وقد هيمنت عليها
عاطفة شديدة] مولاي [تسقط أمامه على ركبتيها وتحنى رأسها وتخشع له

فلا تستطيع أن ترفع إليه بصرها [مولاي ، أنا لستُ إلا فتاة ريفية قليلة القدر مسكينة ، وأنت رجل جليل الخطر ، قد جباك الله بالفقر الكثير من بركته ومجده ، فبالله عليك إلا مَسَسْتَنِي بِيَدِكَ وباركْتَنِي بما باركك الله .

ذو اللحية الزرقاء : [يهمس إلى لتريمي] ان الثعلب الشيخ قد احمرَّ خجلًا .

لتريمي : تلك إذا معجزة أخرى !

المطران : [يرقّ لما قالت الفتاة فيضع يده على رأسها ثم يقول] أى بنيتي ، إنك تخلصين لله الدين ، وتُحِبِّينَ الإيمان حب صدق ويقين .

جان : [تزع وترفع بصرها إليه] أنا هكذا ؟ إنى لم أفكر قط في هذا فهل في حب الدين ضير ؟

المطران : ليس في حب الدين أضرار يا بنيتي ولكن فيه أخطار .

جان : [تنهض وقد شعّ في وجهها اغتباط ينمّ عن قلة تقدير للمخاطر] إن الأخطار في كل شيء وفي كل مكان ، إلا الجنة . أى مولاي ، لقد منحتَ القوةَ نفسى ، وبثتَ الجرأةَ والإقدامَ في

قلبي . ألا ما أجل وما أمتع أن يكون المرء مطرانا .
تفتقر ثغور القوم عن ابتسامات عريضة ، تصل أحيانا إلى ضحكات
مكتومة مسموعة] .

المطران : [يستقيم في وقفته وقد رق حسه واضطرب اتزانه مما
جرى] أيها السادة ، إن في شدة إيمان هذه الفتاة لجزراً لكل
ما بدا فيكم من خفة وطيش . إنى لست إلا رجلا ضعيفا حقيرا ،
وكان الله في عونى ، ولكن هذه البسمات والضحكات خطيئات
مُهلكات .

[تستقيم الوجوه ويسود السكون] .

ذو اللحية الزرقاء : مولاي ، ما كنا نضحك منك بل منها .
المطران : ماذا تقول ؟ انكم لا تضحكون منى أنا
الضعيف العاجز ولكنكم تهزأون بإيمانها ! اسمع يا جل دى راى
Gilles de Rais ، إن هذه الفتاة تنبأت بأن السباب الكفار
يعرق بخطيئته .

جان : [تجزع حتى تضيق عن السكوت] لا ! لا !

المطران : [يسكتها بإشارة] وأنا الآن أتنبأ بأنك ستشقى
بخطيئتك إذا أنت لم تتعلم متى تضحك ومتى تعصلى لله ^(١) .

(١) شقى ذو اللحية الزرقاء فعلا بعد ذلك وقد مر ذكر هذا .

ذو اللحية الزرقاء : مولاي . إني خجلٌ وآسفٌ على ما كان
فإذا أصنع فوق ذلك ؟ ولكنك إن تنبأتَ بأني لا بد مشنوق
فهذه النبوءة ستقرّ دائماً في خاطري وستغريني بمدّ يدي إلى الحبال ،
وسأقول لنفسى دائماً إن كان لا بد من الشنق ، فليكن موتي
في جَمَل ، لا في جَمَل^(١) .

[يتشجع القوم عند هذه ، ويعودون إلى الضحك كَثَبًا] .

چان : [وقد ساءها ما حدث سوءاً كبيراً] إنك ياذا اللحية الزرقاء
رجل لا نفع فيه ولا رجاء . إن من الوقاحة الكبرى ردّك القول
على المطران .

لاهير : [يقول والضحك الشديد يغلّبه] أحسنتِ أحسنتِ
يا فتاة . أحسنتِ أحسنتِ والله .

الفتاة : [تقول للمطران في خجر وجزع] مولاي ، لم لا تصرف
هؤلاء السخفاء عنى حتى أستطيع أن أتحدث وحدى إلى الدوفين ؟
لاهير : [في انبساط] أنا تكفيني الإشارة عن العبارة [ثم
هو يرفع يده بالسلام ويدور على عقبه ثم يخرج]

(١) يعني ان كان لا بد من الشنق فليشئق في ذنب كبير لا في ذنب صغير . وفي
القرون الوسطى كانوا يشنقون سارق الشاة .

المطران : هيّا بنا أيها السادة . إن الفتاة جاءت تحمل بركة
الله فأطيموها .

[يخرج الكل ، بعضهم من الباب الخفي ، وبعضهم من الجنب
المقابل له . ويمشي المطران عبْر القاعة إلى الباب يتبعه لتريمي وزوجته
الدوقة . وعند ما يمر المطران بجان تسقط على ركبتيها وتقبل طرف كسائه
قُبَلَاتٍ حِرَار ، فيهب المطران رأسه بحكم الطبع رافضاً ما تفعل ، ويجذب
كسائه منها ويذهب ، فتظل راكعة حيث هي ، قسدت بذلك الطريق على
الدوقة إلا أن تحيد]

الدوقة : [في برود] من فضلك خلييني أمرّ .

جان : [تنهض سريعاً وتراجع عن موضعها] طبعاً تفضلي
ياسيدتي وتقبلي معذرتي .

[تمر الدوقة وتظل جان تنظرها ، ثم تسأل الدوفين همساً] .

جان : أهذه ملكة ؟

شارل : لا ، ولكنها تحسب أنها ملكة .

جان : [تعود فتنظر الدوقة من ورائها] أوه [وكانت الدوقة في
لباس فاخر قد حدّد خطوط جسمها ، فلما صاحت جان من العَجَب الذي
أخذها لم تكن صيحتها كلها إعجاباً] .

لتريمي : [يقول للدوفين في توكيد كثير] أرجوك يا صاحب

السمو أن تتكرم فلا تعود إلى السخرية بزوجتي [يخرج وقد
سبقه الآخرون إلى الخروج]

جان : [إلى الدوفين] من هذا الرجل الفظ الغليظ ؟

شارل : هو دوق لتريبي .

جان : وما عمله ؟

شارل : يدعى أنه يقود الجيش ، وكلما وجدتُ صديقاً
عزيراً على قتله .

جان : ولم تأذن له في قتله ؟

شارل : [يضيق صدره ، فيتوجه من القاعة إلى ناحية العرش هرباً
من جاذبتها] كيف أمنعه ؟ إنه يتهدنى . إنهم يتهددوني جميعاً .

جان : أخافهم ؟

شارل : نعم أخافهم ، ولا فائدة من وعظك إياي في هذا .
إن المراك ليس من شيمتي ، وهو لا بأس به في هؤلاء الرجال
الضخام ، فهم يستطيعون لبسَ هذه الدروع التي تثقل علىّ ،
وحملَ هذه السيوف التي تنوء بها يدي ، ولهم عضل قوىّ ،
وصوت صيَّاح ، ومزاج غضوب مُنكر . فهم يحبون القتال .
فإن قعدوا عنه اشتغلوا بالسخافات وأزروا بأنفسهم ما داموا عنه
قاعدين . ولكنني هادئ الطبع عاقل ، فلا أريد قتل الناس ، وإنما

أريد أن أترك وحدى أستمتع بالحياة على نحو ما أهوى . إنى قطّ
ما طلبت أن أكون ملكا وإنما غصبتُ على الولاية غصباً . فإن
كنتِ حضرتِ إلىّ لتدعوني إلى القتال - إن كنتِ وفدتِ
علىّ تهتفى بى : « قم يا ابن سانت لويس فتقلّد سيفك وسرّ بنا قدّما
إلى النصر » ، فرجأتُ إليك أن تفرى عليكِ أنفاسك لتبردى
بها طعامك ، فما أنا بقادرٍ على ذلك . إنى لم أُخلق لهذا وكفى .

جان : [تجيبه فى إمرة وبعزم قاطع] نحن كلنا مثلك عند
البداية . ولكنى سأبثّ الجرأة فىك .

شارل : ولكنى لا أريد أن تبثى الجرأة فىّ . إنى أودّ النوم
فى فراشٍ وثيرٍ تحوطه الطمانينة والسلام ، وأكره العيش
المضطرب والخوف الدائم من أن أُقتل أو أُجرَح . مُبثى الجرأة
فى غيرى ، وأعطهم من الحرب حتى يطيبوا ، ولكن دعينى
وحدى فالوحدة هنأى .

جان : لا فائدة من كل هذا يا شارل . لا بد أن تنهض لما
اختارك الله له . إنك إن أخفقت فى الملك ، لم تجد وراءك غير
الشحاذة ، فما أنت بأهلٍ لصناعة غيرها . فهلمّ ، هلمّ إلى العرش
فاجلسْ عليه وأرنى كيف تكون فوقه ، فقد طالما اشتقت إلى
رؤيتك فيه .

شارل : وماذا يُعنى جلوسى على العرش وغيرى ممن رأيت
يأمر وينهى على هواه . ومع هذا [يجلس على العرش فلا يملؤه ولا يملأ
العين ، ويستدرع رآه الرحمة من كل راء] فهذا هو الملكُ فانظريه ،
واملئى عينك من هذا الزرىّ الحقيق .

جان : إنك يا صبيّ لستَ بعدُ ملكا ، فأنت لا تزال
الدوفين . احذرن أن يُفتَ في عضدك ما تسمع من القوم حولك .
إن الملابس الجميلة والكسَى الفاخرة لا تملأ فراغ الرؤوس
الخواوية . إن لى خبرة بالناس ، بالناس الأصيلين ، برجال الشعب
الذين يصنعون لك خبزك ، فاعلم متى أن هؤلاء لا يعدّون رجلا
ملكاً إلا أن يُصبّب الزيت المقدّس على رأسه ، وإلا أن يُصبّب
وَيُتَوَّج في كترائية رانس . إنك رثّ الثياب يا عزيزى شارل
فما بال الملكة لا تُعنى بك كما ينبغي ؟

شارل : نحن فقراء جدا ، والملكة فى حاجة إلى درهم
تقتصده لتستر به ظهرها . وعدا هذا فإنى أحب أن أراها جميلة
الثياب ، ولا أبالى ما ألبس أنا . على أن منظرى قبيح دائماً
لبستُ أو لم ألبس .

جان : أنا ألمح فيك بمض الخير يا شارل ، ولكنك لم يصل
بعدُ أن يكون جديراً بملك .

شارل : سنرى ما تأتى به الأيام . إنى غيى المظهر ، ولكن قلبى ليس فيه كل هذا الغباء . إن عيني مفتوحتان وقلبي بصير ، فصديقى إذا قلت لك إن معاهدة واحدة طيبة خيرٌ من عشر انتصارات فى الميدان . إن هؤلاء القوم الذين يحاربون يخسرون فى المعاهدات ما يكسبونه فى المحاربات ، فإليت لنا من الإنجليز معاهدة واحدة ، إذن لخسروا فيها كل الخسران ، لأنهم فى صراع الأجسام خير منهم فى صراع العقول .

جان : إن غلب الإنجليز فالمعاهدة منهم ولهم ، ولفرنسا رحمة الرحمن من بعد ذلك . لا بد من الحرب يا شارل فخاربٌ راغباً أو مُرغمًا ، وسأتقدمك لأقوى قلبك . لم يبق لنا الآن إلا الإقدام ، فلنمسك عليه بيدينا كلتيهما خشية أن يُفليت منا ، ولنُدع الله فى صلواتنا للمزيد منه بيدينا كلتيهما كذلك .

شارل : [ينزل عن العرش ويمشى عبر القاعة مرة أخرى هرباً من لجاجتها الغالبة] أرجو أن تكفى عن ذكر الله والصلوات ، فإنى أضيّق دَرعاً بمن يدعون دائماً ويصلون . ألا يكفيننا غمًا أنا نأتى الصلاة رغباً فى أوقاتها .

جان : [ترق له وترى] يا صبيّ يا صغير يا مسكين ، إنك لم

تصلُّ قط في حياتك . إني سأعلمك الصلاة من البداية .

شارل : أنا لست صبيّاً ، بل رجلاً نامياً كاملاً ، ووالدا ،
وقد فُتُّ دور التعلّم فلن أتعلّم الآن شيئاً .

جان : أى نعم ، إن لك ولداً صغيراً سيكون من بعدك
لويس الحادى عشر ، أفلا تحارب من أجله ؟

شارل : لا . إنه ولد قبيح . إنه يكرهنى . إنه يكره كل
الناس ، ولا يحب البهيمُ الأنانى إلا نفسه . إني لا أريد أن أُعنى
بالأطفال . لا أريد أن أكون أبا ، ولا أريد أن أكون ابناً ،
لا سيما ابنا لسانت لويس . إني لا أريد أن أكون شيئاً من كل
تلك الأشياء الجميلة الفاخرة التى تملأون بهارووسكم ، وإنما أريد
أن أكون كما أنا . فلم لا تقصرون أنفسكم على أموركم ، وتدعوني
أُعنى كيف أُعنى بأمر نفسى ؟

جان : [تعود إلى احتقاره] ما عنايتك بأمر نفسك إلا
كعنايتك بأمر جسدك ، هى أخصر الطرق إلى العلة والسأم .
وما أمر نفسك ؟ وما أمر نفسى ؟ أمرى أن اعين أسمى فى البيت ،
وأمرى أن تدلّل الكلاب وتمصّ عيدان الحلوى . إني أسمى هذا
لغوياً باطلا . فاعلم أننا هنا لإنفاذ أمر الله لا أمرنا . وعندى من
الله رسالة إليك ، أنت لا بد مُصنغ اليها ولو طار قلبك منها هلعاً .

شارل : إني لا أريد رسالة ، ولكن هل عندك علمُ الأسرار وإتيانُ الكرامات ؟ أتُبْرئين المريض وتُصحِّين العليل ؟ أتستطيعين قلب الرصاص ذهباً أو شيئاً من هذا القبيل ؟
جان : إني أستطيع قلبك ملكا ، في كتدرائية رانس .
وتلك معجزة ستكون على ما أرى غير هينة .

شارل : إذا نحن ذهبنا إلى رانس ، وكان هناك تنويج ، فستحتاج أن^(١) Anne إلى ملابس جديدة ليس في وسعي شراءها .
أما أنا فيكفيني ما أنا عليه .

جان : ما أنت عليه ؟ وما هذا ؟ إنه دون ما عليه أحقر راج في خدمة والدي . إن لك أرضَ فرنسا إرثاً حلالاً ، ولكنك في حكم الشريعة لا تملكها حتى تُتَوَّجَ ملكا .

شارل : إني في حكم الشريعة لن املكها على أية حال .
فهل يدفع التنويج عن ديوني ويفك عنى رهوني . إني رهنت آخر فدان إلى المطران وإلى هذا الفطريس السمين . إني مدين حتى لندي اللحية الزرقاء .

جان : [في غيرة وإخلاص] شارل . إني من الأرض أتيت ،

(١) آن اسم زوجته .

وعلى الأرض عَمِلت ، ومن العمل فيها كسبت قوتى . فاعلم أن الأرض لك لتحكمها بالعدل وتحفظ فيه سلام الله ، لا لترهنها كما ترهن أمّ سكّيرة ملابس أولادها . إعلم أنى جنتك من عند الله لآمرك بالركوع فى كتدرائية الله ، وأن تعلن فيها فى خشوع أنك تخرج عن ملكك لله إلى أبد الأبدى ، لتصبح بعد ذلك سيد الملوكة على هذه الأرض بأنك عبد الله وجنديه ورسول الله وخليفته . عندئذ يصبح كل الذى بفرنسا مقدساً حتى ترابها ، ويصبح جندها جند الله ، وعصاتها اللّوقاتُ عصاةً لله . وعندئذ ترى الإنجليز عندك يَخِرُّون إلى الأذقان خُشعاً يرجونك الإِذن لهم أن يعودوا فى سلام إلى بلادهم التى شرعها الله لهم . أفاعل أنت ما أرجوه ، أم تفعل بى ما فعل يهوذا فتخوننى وتخون من بعثنى ؟

شارل : [ينجح فيه الإغراء أخيراً] أواه ! من لى بالجرأة فأجيب إلى ما تطلين !

جان : الجرأة ! أنا أجرؤ ، ثم أجرؤ ، ثم أجرؤ ، فى سبيل الله . أفعى أنت أم على ؟

شارل : سأخطر وليكن ما يكون . إنى أهدرك من الآن إنى قد تخور عزيمتى أثناء السبيل ، ولكنى على كل حال سأخطر .

والآن انظري ما أفعل [يجرى إلى الباب الكبير ويصيح] هلموا جميعاً !
عودوا إليّ جميعاً ! [يرجع جاريّاً إلى الباب الخفيّ المقابل وهو يقول لجان]
لا تتركيني ، والزّمي جاني ، وامنمهم أن يتهدّدوني . [يصيح
من الباب الخفيّ] تقدموا جميعاً اكل البلاط ! [يجلس على كرسى الملك ،
بيناهم جميعاً يسرعون إلى الوقوف في أماكنهم حيث كانوا أولاً ، وتشد
فيهم جلبة الأحاديث ويكثر بينهم التسأل والتعجب] . والآف جاء
دوري لأصطليها ، ولكني لا أبالي ، وهأنذا أرى بنفسى فيها .
[إلى الحاجب] أنت يا ابن البهيم صبح فيهم بالسكوت لا أبالك !
الحاجب : [يختطف ربحاً من حارس كما فعل أولاً ، ويخبط بزُجه
الأرض مراراً] سكوتاً لجلالة الملك ! سكوتاً فالملك يتكلم !
[بإمرة] سكوتاً يا من هناك [يسود السكون] .

شارل : [ينهض] لقد أعطيت قيادة الجيش إلى الفتاة ،
فالفتاة تتصرف بالجيش كيف تشاء [ينزل عن المنصة] .

[يسود على القوم العجب . ويُسرّ لاهير وينتشى فرحاً ويضرب
بقفّازَه على فخذ درعه ، وهى من الفولاذ] .

لتريمي : [يتجه إلى شارل مهدداً] ما هذا ! إني أنا قائد الجيش .
[يهمّ شارل بطبعه إلى التراجع ، فتسرع جان فتضع يدها على كتفه
تطميناً وتثبيتاً . فيجتهد شارل في جمع كل شجاعته وحشد كل عزمه
للظهور بالقوة ، فيسفر مجهوده عن إسراف كثير إذ يقصف بأصبعيه في وجه
كبير أمنائه] .

چان : حسبك هذا جواباً أيها الفظ الغليظ [ثم تَنَجَّوْهَا
الخاطرة بأن ساعتها دَنَتْ ، فتمتشق سيفها حَظَفَ البرق ثم تصيح] من
منكم لله ولفقاته ؟ من معي إلى أرلين ؟

لاهير : [وقد أخذته صيحتها فسلَّ سيفه] لله ولفقاته !

إلى أرلين !

[تسقط چان على ركبتيها شكراً لله ، فيسقط الكل معها ، إلا المطران

فإنه يبارك عليهم بإشارته ، وإلا لترمي فتخور قواه ويسبّ ويلعن] .

المنظر الثالث

[في أرلين ، في التاسع والعشرين من عام ١٤٣٩ . ودُنُوا Dunois ، وهو رجل في السادسة والعشرين من عمره ، يذرع الأرض بخطاه يمنة ويسرة في قطعة أرض على الجانب القبلي من نهر اللوار النضى ، وقد أشرف منها على مسافات بعيدة على طول النهر من جهتيه . وكان قد ربط بأعلى رمح راية قليلة العرض طويلة مستدقة الطرف ، وكانت تجرى ريح شرقية قوية ، فجرت الاية مجراها . وحمل دنوا في يده عصا القيادة في الجيش . وكان قوى البنية ، فحمل درعه على جسمه حملا سهلا . واستعرض جبينه ، ورق ذقنه وتدبب ، فبدأ وجهه كثلث تساوت أضلاعه . وبالرغم من صفر سنه ظهرت في هذا الوجه خطوط ، خطها خدمة الجيش وتحمل التبعات ، وبدت عليه سِمَاتٌ تُنبئُ عن قلب طيب ونفس قديرة لا تعرف التصنع بالكذب ولا تتعلق بالأوهام . وكان تابعه الصبي جالسا على الأرض ، ومرقاه على ركبتيه ، وخداه على جُجَعِ كَفِيهِ ، وهو ينظر الماء مُتَلَهِيَا . وكان الوقت مساء . وكان الرجل والصبي كلاهما متأثرين بجمال النهر]

دونوا : [ينقطع عن السير برهة ويرفع فيها بصره إلى الاية وهي تجرى مع الريح فيهب رأسه ساما ثم يستأنف خطاه] ريح اللبور !

ريح الدبور ! ريح الدبور ! ربح الغرب يافاجرة ، لَوبُ أنتِ
عندما نريدك جادة ، وجادة أنت عندما نريدك لَوبًا . ربح
غربٍ فوق فضة اللوار . . . ما القافية التي تنسجم مع اللوار ؟
[يعود فينظر إلى الراية ويهزّ بجُمع كفه إليها] تغيّرى أيتها الريح عليك
لعنة الله . أيتها الريح الإنجليزية العاهرة ، هُي من الغرب ، من
الغرب هُي يافاجرة . ياربحا مؤنثة ، ياربحا مخنثة ، ياصلبة الرأس
ياخائنة العهد ، ألنّ تهبي من وراء الماء أبدًا ؟

الصبيّ : [ينفض نجاة] انظر ! انظر ! هناك ! هناك !

دنوا : [يقطع عليه الفرع أفكاره ويسأل في شوق شديد]

أين ؟ من ؟ الفتاة ؟

الصبيّ : لا ، بل الطائر السمّك^(١) يطير خطفًا كالبرق الأزرق .

لقد دخل في هذه الشجيرة الكثيفة .

دنوا : [وقد خاب رجاؤه فغضب] أهذا كل ما عندك يا غيّي

يالعين . تُحدّثني نفسي والله أن أرى بك في هذا النهر .

الصبيّ : [لا يخاف من تهديد سيده ، لأنه يعلم أنه لن يفعل] إنه جميل

(١) طائر صغير جميل النظر طويل المنقار قصير الرجلين والذنب أخضر الجناحين
أزرق الظهر أحمر الصدر . ومن عادته السكون الشديد حتى إذا وجد صيده في الماء
انطلق إليه بفتة كأنطلاق السهم .

في زرقته الخاطفة . انظر ! فهذا طائر آخر !

دنوا : [يجرى في رغبة إلى حافة النهر] أين ؟ أين ؟

الصبيّ : [يشير بيده] يَفُوتُ القَصَبَ ^(١)

دنوا : [فَرِحًا] نعم أراه أراه .

[يتبعان الفرخ الطائر حتى يدخل حيث لا يريانه] .

الصبيّ : إنك عنفتني بالأمس لَمَّا فاتك أن تراه .

دنوا : قد علمتَ أني كنت أنتظر الفتاة لما أفزعني

بصريحك . إنك إن فعلت هذا مرة أخرى فسأريك كيف

يكون الصريح .

الصبيّ : ما أجل هذه الطيور ! وددت لو قدّرتُ على

صيدها .

دنوا : إن رأيتك تصيدها وضعتك في قفص من حديد

شهرًا كاملاً لأذيقك طعم الأسر . إنك غلام شرير بغيض .

الصبيّ : [يضحك ثم يعود إلى جلسته الأولى] .

دنوا : [يعود إلى خطاه] .

يا طائرًا يا أزرقًا دفعتُ عنك الموبقا

فانصرُ صديقًا صادقًا جتّبك المزالقا

وغيرَ الريحَ لهُ

(١) كل نبات يكون سافه أنايب وكعوباً .

تميرت القافية . هذا لا يُعْنِي .

يا طائرأ يا أزرقا دفمت عنك الموبقا
فانصر صديقاً صادقاً جنبك المزالقا
فصار فذماً فاسقا

قافية طيبة ولكن الكلام هراء [يُجِدُّ نَفْسَهُ لِيُصِقَ الصَّبِيَّ] أيها
الغلام اللعين [يرجع عنه ويسير] .

يا طائرأ يا مَلِكِ الطيورِ يا خير سَمَّاكِ على الغدير
أطلق لنا منافذ الدُّبورِ

صوت حارس جهة الغرب : قف مكانك ! من أنت ؟
صوت چان : الفتاة

دنوا : دعها تمرّ . إلى هنا يا فتاة ! إلى !

[تدخل چان مسرعة تتقد غضباً ، وعليها درع فاخرة . عندئذ
تسكن الريح وتندلّي الراية على الرمح وتخفق خفقاً هيناً . ولا يلحظ دنوا
ما حدث لاشغاله بچان] .

چان : [في غير تحرّج] أنت ابن الفاعلة ، قائد أُرلين ؟

دنوا : [يحتفظ بحلمه ، ويحجب في شدة وقوة مشيراً إلى تُرسه]

هذي شارة النُفولة^(١) أفلا ترينها ؟ وأنتِ ، أنتِ چان الفتاة ؟

(١) فساد النسب . والنفيل ابن الزنا .

جان : نعم أنا هي .

دنوا : وأين جنودك ؟

جان : ورأى بأميال عدّة . إنهم خدعوني فجاءوا بي إلى هذا الشاطئ وقد كنت أريد ذلك .

دنوا : إنى أوصيتهم بذلك .

جان : ولم هذا ؟ إن الإنجليز على الشاطئ الآخر .

دنوا : إن الإنجليز على الشاطئين جميعاً .

جان : ولكن أرلين على الشاطئ الآخر ، ونحن ننازلهم هناك . فقل لى كيف نعبّر النهر .

دنوا : [فى عبوسة] إن على النهر جسراً .

جان : إذن فبالله إلاّ عبرنا النهر ووقفنا عليهم .

دنوا : هذا أمر ظاهره سهل ولكنه محال .

جان : من يقول هذا ؟

دنوا : أنا أقول هذا . ويقول هذا رجالٌ أسنّ منى وأحكم .

جان : [فى صراحة وبغير مداراة] إذن فاعلم أنهم رجال أغبياء

بلهائم ، ضحكوا عليك أولاً ، وهم يريدون أن يضحكوا الآن على

فيأتوا بي إلى الجانب الخاطئ الأبعد من النهر : أتدرى أى جثتك

بمدد لم يحيى مثله إلى قائد أو بلد أبداً ؟

دنوا: [يتبسم مصابرة] أهذا مدد منك أنت ؟
جان : لا ، ولكن مدد من الله رب السموات والأرض .
أين الطريق إلى الجسر ؟

دنوا : أنت قليلة الصبر يا فتاة .

جان : وهل هذا أو ان الصبر ؟ المدوّ على الأبواب ونحن
هنا عاطلون لا نعمل شيئا . قل لي بالله لماذا لا تحاربون ؟ أخائف
أنت ؟ إذن فدعني أطرّد الخوف من قلبك وأطهرك تطهيرا .

دنوا : [يضحك ملء فيه ويلوح لها مُنكرا] لا ، لا ، يا فتاتي .
إنك إن نزعْتَ الخوف من قلبي صرتُ فارسا بطلا كبعض
فرسان الأفاصيص ، وصرت شرفائد للجيش . تعالَى معي وتعلّمِي
أول درس في الجندیّة . [يأخذها إلى حافة الماء] . أترين هاتين
القلعتين في آخر الجسر ؟ هاتين القلعتين الكبيرتين ؟

جان : أهما لنا أم للإنجليز ؟

دنوا : اسكتي وأنصتي ! إني لو كنت في قلعة منهما في عشرة
رجال لصمدتُ فيها لجيش كامل . والإنجليز لهم فيهما عشرات
العشرات يحمونهما منا .

جان : ولكنهم لن يحموها من الله . إن الله لم يعطهم هذه
الأرض التي عليها القلعتان . فهم سرقوها من الله بغيا وعدوانا .

إن هذه الأرض أعطاهما لنا الله ، فلا بد لي من أخذ هاتين القلمتين .

دنوا : وحدك ؟

جان : رجالنا يأخذونهما وأنا أقودهم .

دنوا : لن يتبعك من الرجال أحد .

جان : لن أنظر ورأى لأرى هل اتبعني من الرجال أحد .

دنوا : [يدرك ما بها من شجاعة صادقة فيرت على كنفها في إعجاب كثير] هذا منك جميل . إنك قد سوّيت من طينة يسوّى منها الجنود . إنك تُقرّمين بالحرب .

جان : [تجفّل] أوه ! ولكن المطران قال إنى أغرم باللّين .

دنوا : عفا الله عنى ، فأنا أيضا مغرم بمض الإغرام بالحرب

على قبجها ودمامتها . إنى كرجل ذى امرأتين ، فهل تريدن أن تكوني كامرأة ذات بعلين ؟

جان : [في بساطة ساذجة] أنا لن يكون لي بعلٌ أبداً . إن

رجلا في تول تول قاضاني لأنى نقضت وعدى بزواجه ، وأنا

ما وعدته أبداً . إنى جنديّ ، ولا أحب أن يرى الناس فى امرأة ،

وسوف لا أتردّى زىّ النساء أبداً . إنى لا أحب ما يحبه النساء .

إنهن يحملن بالرجال ويحملن بالمال ، وأنا أحلم بالطراد أقوده ،

وبالمدفع الكبير أسدده . إنكم أيها الجنود لا تحسنون استخدام

المدافع الكبيرة . إنكم تحسبون أنكم تنتصرون بأصواتها الداوية
وأدخنتها الكثيفة .

دنوا : [بهزة من كفه] هذا حق . إن المدفعية في الأثرية
لا تساوى همتها .

جان : ولكنك يا غلامٌ لن تقا تل حوائط الحجر بالخليل .
لا بد لك من مدافع ، ولا بد لك من مدافع أكبر كثيراً مما تحال .
دنوا : [يتسم لرفعها الكلفة بينهما ، ويردّ عليها بأسلوبها] نعم
يا غلامه ، ولكنّ المرء بقلب مكين ، وسلم متين ، يتسلق أصلد
الحوائط حجراً .

جان : وسأكون أولَ صاعدة على السلم وصاعد ، إذا نحن
بلغنا القلعة ، وإني أتحدّثك يا نفل^(١) أن تتبغى .

دنوا : ليس لك أن تتحدّثي ضابطاً من أركان الحرب يا جان
فضباط المشاة وحدهم هم المأذونون في إظهار شجاعة ، أو إيغال في
جسارة^(٢) . وعدا هذا ، فأنا أرحّب بك لقد استك لا لجديتك
فالجنود المرّة المفامرون لدىّ منهم كفاية ، إذا دعوت لثوا .
ولكنهم لن يغنونى شيئاً .

جان : إني لست ماردة ، بل جارية من جوارى الله .

(١) فاسد النسب .

(٢) ضباط أركان الحرب هم الملوكون بإدارتها من وراء الصفوف .

وسيفي مقدّس : وجدته وراء المذبح في كنيسة القديسة كترينة ،
فهناك خَبَأَهُ اللهُ لِي ، وليس لي أن أضرب به رقبة واحدة . إن
قلبي مليءٌ شجاعةً لا غضباً . سأقود فينبغي رجالك وهذا كل
ما أستطيعه ، وهو لا بدّ واقع ، وأنت لا تستطيع ردّه .

دنوا : كل شيء موقوت بأوانه . إن رجالنا لا يستطيعون
أخذ القلعتين بغارة يُغيرونها على الجسر فلا بد لهم من عبر النهر ،
وعندئذ يأخذون الإنجليز من مؤخرتهم على هذا الشاطئ .

جان : [ينشط فيها حسها العسكري] إذن فأقيم على النهر عوامات ،
وضع عليها المدافع الكبيرة ، ومرّ رجالك أن يعبروا إلينا .
دنوا : العوامات مُقامة ، والرجال عليها ، ولكنهم
ينتظرون كلمة الله .

جان : ماذا تعني ؟ إن الله في انتظارهم .

دنوا : إذن فسليه أن يرسل إلينا ريحاً ، فسفائني في أسفل
النهر لا تستطيع مغالبة الماء والهواء معاً ، فلا بد من الصبر حتى
يغيّر الله الريح . هيّا أصبحك إلى الكنيسة .

جان : لا . إني أحبّ الكنيسة ، ولكن الإنجليز
لا يلينون للصلوات ، ولا يفهمون غير الدق الواجع والضرب
اللاسع . فلن أذهب للكنيسة حتى يُغلبوا .

دنوا : لا بد أن تأتي معي ، فلي لبانة عندك تقضينها هناك .
چان : أى لبانة ؟

دنوا : تدعين لنا الله أن يأتينا بريح غربية . إني دعوته ،
ووهبت الكنيسة شمعدانين من الفضة ، ولكن الله لم يجب
دعوتي . أما دعوتك فلملها تجاب ، لأنك صغيرة ، ولأنك بريئة .
چان : أى نعم صدقت ، فسأصلى وأطلب في صلواتي الى
القديسة كثرينة أن تشفع لى عند الله فيأتيني بريح من الغرب ،
فهيا بنا وأسرع ، وأرني الطريق إلى الكنيسة .

الصبيّ : [يعطس بشدة] آتْشُو ! !

چان : يرحمك الله يا صبي ! هلمّ يا نعلُ بنا !

[يخرجان وينهض الصبيّ لاتباعهما ، فيرفع الترس من الأرض ،
ويعرّج على الرمح ليأخذه فيلحظ أن الراية فوقه تجرى الآن نحو الشرق] .
الصبيّ : [يسقط الترس من يده وينادى وراءها في احتياج]
سيدي . سيدي . آنسِي . آنسِي .

دنوا : [يعود جارياً] ماذا ؟ الطائر السّمَاك ؟ [ينظر صوب
النهر عسى أن يجد الطائر] .

چان : [وقد لحقتُ بهما] أوه ! الطائر السّمَاك ؟ أين هو ؟

الصبيّ : لا . لا . بل الريح . الريح [وهو يشير إلى الراية] .
إنه هو الذى عطّسنى .

دنوا: [ينظر إلى الراية] تغيّر الريح ! [يصلب على نفسه]
جاءت كلمة الله ! [ينزل على ركبته ويعطى عصاه إلى جان] إليك
قيادة جيش الملك فقوده ، وأنا جندي من جنودك .
الصبي : [ينظر أسفل النهر] تحرّكت السفائن ، وهي تمخر
الماء مخرأ .

دنوا : الآن إلى القلعة . لقد تحدّيتني أن أتبع ، فأنا الآن
أتحدّك أن تقودي ، فهل تجرئين ؟

جان : [تنفعل فتجرى دموعها غزاراً ، وترمي بذراعها جول
دنوا وتقبل خديه] . دنوا ! يا أخي في السلاح ، أعني على ما أنا فيه .
إن الدموع أعمت عيني ، فعلى السلم فضع قدمي ، وقلّ دونك
فاصعدى يا جان .

دنوا : [يخرج ويجرّها معه] كفّيني الدّمع وهياً إلى المدفع
رعده وبرقه .

جان : [في سورة من الشجاعة] آه !

دنوا : [يجرّها معه] في سبيل الله والقديس دُونِي Denis !
الصبي : [بصوت حاد رفيع] في سبيل الفتاة ! في سبيل الفتاة !
في سبيل الله والفتاة ! [يختطف الترس والرمح ويقفز وراءها ، وقد
جنّ اهتياجاً] .

المنظر الرابع

[خيمة في معسكر الإنجليز . وقسّ إنجليزي غليظ العنق شديده ، في
الحنسين من عمره ، قد جلس على مقعد إلى خوان ، وانهمك في العمل
انهما كما شديداً . وقبالتة في الطرف الآخر من الخوان ، جلس رجل من
الأشراف ذو بزة ومهابة في كرسى نفم ، وأخذ يقلّب صحائف كتاب للأدعية
مزوّق . وهو في عامه السادس والأربعين . وبيننا كان الشريف في تلهيه
وتسليه ، كان القس يعانى من العمل ما يعانى ، على نفس غيرراضية وغضب
مكبوت . وكان على يسار الشريف كرسى من الجلد لا يشغله أحد . وكان
على يمينه الخوان] .

الشريف : هذا والله الجمال ، جمال هذه الصنعة ، فليس في
الدنيا أجمل من كتاب جميل . أسطرّ من سوادٍ فاحم ، قد
اصطفت في أعمدة متباعدة عن سعة ، أحاطتها أطرٌ مليحة ذات
حسن ورّواء . ثم صورّ ملوّنة مزوّقة أدخلت في السطور
مخالسة . هكذا تكون الكتب متعةً للبصر . إن الناس اليوم
لا ينظرون إلى الكتب ليستمتعوا برّوائها ، وإنما هم يقرأونها ،

حتى كاد الكتاب يصير توصيةً بشرّوة لحمٍ أو نُخالَةٍ كالتي أنت
قائمٌ في تبييها .

القس : لا مندوحة لي يا مولاي إلا أن أقول إنك تنظر
إلى حالنا الحاضر ، وموقفنا الراهن ، يبرود قاب شديد — يبرود
قاسٍ يا مولاي .

الشريف : [في كبرياء وقلة اكتراث] ماذا جرى ؟
القس : جرى يا مولاي أنا معشر الإنجليز قد هُزمنّا .
الشريف : وما ضرّ هذا ؟ إن الهزيمة تقع أحياناً ، وأعيذك
أن تجهل هذا . إن العدوّ ينهزم وينتصر ، إلا في كتب التاريخ
وفي أغاني الشعوب ، فهو دائماً مهزوم .

القس : ولكننا هُزمنّا مراراً وتكراراً . أولاً في أرلين .
الشريف : [يهزأ منه ويصغر مما يقول] أوه . أوه . أرلين !
القس : أعلم ما تنوى أن تقول يا مولاي . ستقول إن الذي
وقع في أرلين كان سحراً وكهانة ، ولكننا لانزال نُهزم . في
چارجو Jargeau ، في مان Meung ، في پوجانسي Beaugency ،
في كل هذه هُزمنّا كما هُزمنّا في أرلين . والآن ذُبُّنّا تذيحاً في
پاتاي Patay ، والسير چون طلبُوت^(١) Sir John Talbot أسروه

(١) أسرة طلبوت من أعرق الأسر الإنجليزية تمتد نسبها المعروف إلى الفتح الترماني .

أسراً يا مولاي [يرى بقله والدمع يكاد يغلبه] . إني أتألم لهذا الحال
يا مولاي وأتألم له كثيراً . إني لا أستطيع أن أرى رجالنا وأبناء
وطننا تهزمهم مُلَّة من الأجانب صغيرة حقيرة .

الشريف : آه !؟ أنت إذن ممن يقولون بالأوطان !؟
أأنت إنجليزى ؟

القس : لا يا مولاي ، بل أنا رجل كريم . ولكنى مثلُ
مولاي ، وُلدت في إنجلترا ، وهذا له خطره .

الشريف : أنت إذن مربوط بالأرض ؟

القس : إنه يَلدُّ لك يا مولاي أن تهزأ بي ، وأنت رجل
عظيم ، وفي عظمتك تستطيع أن تفعل ما تشاء من غير ما تخرج
أو خشية . ولكنك يا مولاي تعلم كلَّ العلم أنى إذا ارتبطت
بالأرض فعلى غير المعنى السيء والحال الحقيرة التي يرتبط عليها
المبد القنَّ بأرضه ، فيتنقل معها من يد سيد مالك إلى يد سيد مالك .
إن لى بالأرض هوى [يتزايد اضطرابه] لا يستحي منه قلبي [يقف
هانجاً نائراً] ، ووالله لو جرى الحال على هذا طويلاً لتهضت فنزعت
عن جسمي هذه النفَّارة^(١) ورميت بها إلى الشيطان ، ثم عطفت

(١) رداء القس .

على السلاح أحمله بنفسى ، ولذهبت إلى تلك الساحرة اللعينة
أخنقتها خنقاً بيديّ هذين .

الشريف : [يضحك منه عن نفس طيِّبة] ستفعل هذا
يا عزيزى القس . ستفعل هذا إذا لم نستطع نحن أن نفعل خيراً
من هذا . ولكن أوان هذا لم يَحِنُّ بعد . لم يَحِنُّ تماماً .
[يعود القس فيجلس على مقعده ووجهه عابس كئيب] .

الشريف : [فى انبساط] ما كان لى أن أبالى كثيراً بالساحرة .
إنى حججت إلى الديار المقدسة ، فالقدرة الإلهية حفظاً لسمعتها
الطيِّبة لن تأذن بأن تهزمنى ساحرةٌ قروية . ولكن ابن الحرام
سيّد أربلین بندقه أعصى مكسراً ، وهو قد حجّ مثلى إلى الديار
المقدسة ، فنحن فى الشرف صنوان ، على الأقل فى هذا .

القس : كيف ؟! إنه فرنسى يا مولاي !

الشريف : فرنسى ! من أين جئت بهذا الاسم ؟ أبداً هؤلاء
البرجنديون والبريتونيون والبيكرديون والجسكونيون^(١)
يسمون أنفسهم فرنسيين ، بمثل ما بدأ رجالنا يسمون أنفسهم
إنجليز ؟ إنهم يتحدثون فعلاً عن فرنسا وعن إنجلترا بأنها أوطانهم .
أوطانهم ملكا ، فانظر ما يدعون . فإن شاع هذا القول وجرت

(١) نسبة لقاطعات تتكون منها الآن فرنسا .

في الناس هذه الدعوى ، وصارت بدعة العصر ، وأسلوبه المختار ،
فماذا يكون مصيرى ؟ وماذا يكون مصيرك ؟
القس : كيف يا مولاي ؟ كيف يضرّ هذا مصيرك
أو مصيرى ؟

الشريف : إن الرجال لن تخدم سيّدين معاً . والقوم
يتحدثون عن خدمة الوطن ، فإن ملك هذا الحديث الفاسد
زمامهم ، فقل السلام على سلطة اللوردات الإقطاعيين ، وقل
السلام على سلطة الكنيسة . فعنى هذا ضياعى وضياعك .

القس : أما عن الكنيسة فأملُ أن أكون خادماً مخلصاً
لها . وأما عن الإقطاع فلا يحجبني عن بارونية إستونجمبر التي
أنشأها وليم الفاتح^(١) غير ست من أبناء الأعمام . ولكن أفي
هذا أو هذا ما يجعلنى أقف مكتوف اليدين أرى رجالنا الإنجليز
يهزمهم هذا الفرنسي ابن الزانية ، وهذه الساحرة التي جاءت من
البلاد القذرة بلاد شيبانيا .

الشريف : هوناً يا رجل هونا . إننا سنحرق الساحرة ،
وسنهمز ابن الزانية ، كلاً في أوانه . بل إنى الآن لفي انتظار

(١) ملك إنجلترا المروف ولد عام ١٠٢٧ ومات عام ١٠٧٨ م .

أسقف بوفيه Beauvais لأدبّر معه حرقها ، فإن حزبها أخرجه من أبرشيته .

القس : قبل أن تحرقها يتحتم عليك يا مولاي أولاً أن تأسرها .
الشريف : أو أن أشتريها . وسأجمل لها عنّا لا يشتري به إلا الملوك .

القس : ثمن ملكٍ لهذه اللّخناء القذرة ؟

الشريف : لا بد من بَحْبَحة في الثمن ، فبعض رجال شارل سيبعمونها للبرجنديين ، وهؤلاء سيبعمونها لنا : وسيكون بين هؤلاء وهؤلاء على الأرجح سمسرة ينتظرون لأنفسهم جُملاً يسيراً .

القس : هذا غَبْنٌ فاحش . إنهم أولئك اليهود الأوغاد الذين يتدخلون كلما انتقل مال من يد إلى يد ، ولو كان لي الأمر لما أبقيت على أحد منهم في بلد من بلاد المسيح .

الشريف : ولمَ هذا ، واليهود يعطونك عن مالك بضاعة طيبة ؟ إنهم يُغْلُون الثمن ، ولكنهم يعطونك السلعة التي تريد . في اختباري أن الرجال الذين يريدون شيئاً لله هم دائماً مسيحيون .

[يدخل الحاجب] .

الحاجب : صاحب النيافة أسقف بوثيه ، المنسيور
كوشون Cauchon .

[يدخل كوشون ، وله من العمر نحو الستين . ويذهب الحاجب .
ويقف الإنجليزيان احتراما للأسقف] .

الشريف : [في أدب جم قياض] عزيزي الأسقف ، حيثك
إلينا نكثرت كثير . اسمح لي أن أعرفك بنفسى . أنا رتشر دى
بوشان Richard de Beauchamp ، إرل ورك Warwick ،
عند أمرك .

كوشون : اسم اللورد شهير ذائع ، ولى به علم وافر .
ورك : وهذا القس المحترم السيد چون دى استوجبر
John de Stogumber .

القس : [في ذلاقة لسان] چون بوير إسبنسر نيثل دى
استوجبر ، عند أمرك يا مولاي . بكالوريوس في الفقه ، وحافظ
الخطام الخاص لفخامة كوردنال ونشستر Winchester .
ورك : [إلى كوشون] إنكم تدعون كوردنال إنجلترا على
ما أحسب . إنه عم ملكنا .

كوشون : ياسيد چون دى استوجبر : إني صديق نفامة
الكوردنال دائما أبداً [يمد يده إلى القس فيقبل القس خاتمه] .

ورك : شرّفني بالجلوس [يقدم كرسيه إلى كوشون بعد أن يضعه على رأس الخوان] .

[يتقبّل كوشون مجلس الشرف ، وينحنى شكراً في تجلّة ووقار . فيذهب ورك إلى الكرسي الجلد ، فيجمله في غير اكتراث إلى مكان جلوسه الأول ، ويجلس عليه . أما القس فيعود إلى مقعده] .

[ترك ورك مجلس الراسة لكوشون ، وهو يقصد إلى احترامه متممداً ، ولكنه مع هذا يبدأ الحديث آخذاً بزمامه ، كأن هذا هو الشيء المفروض المنتظر الذي لا ريب فيه . ويظل على وده وتبسّطه . ولكن نعمة جديدة تظهر في صوته تدل على أن الحديث سيخرج عن المباشطة إلى شأن ذي بال] .

ورك : والآن يا مولاي الأسقف قد حضرت إلبنا في ساعة من ساعاتنا التي ينبغي فيها الحظّ عتاً . إن شارل سيُتوّج في رانس ، ستُتوّج على الأقرب الأصح تلك الفتاة التي جاءت من لورين Lorraine . ولا أريد أن أكذبك ، أو أن أحيي فيك أملاً خائباً ، فاعلم أنّا لا نستطيع منع هذا التتويج . وأحسب أن هذا التتويج سيحدث حدّثاً كبيراً في مكانة شارل ؟

كوشون : بالطبع . إنها رميّة من رامية ذات براعة ودهاء .
القس : [يعود إلى ثورته] إننا لم نهزم بالحق والإنصاف أبداً .
إن الإنجليزى ، أنّى وأين كان ، لا يُهزم بالحق والإنصاف أبداً .

[يرفع كوشون حاجبيه قليلا ، ولكنه يعود سريعاً إلى امتلاك نفسه والتغلب على ملامح وجهه] .

ورك : إن صديقنا هذا يرى أن الفتاة ساحرة . فإن صحَّ هذا ، كان واجب نقامتك على ما أحسب أن تُعلمها بالاتهام لدى محكمة التفتيش تمهيداً لإحراقها على هذه الخطينة .

كوشون : نعم ، إذا نحن قبضنا عليها في أبرشيتي .

ورك : [وقد أحس بتوفيق كبير فيما جرى بينه وبين الأسقف] بالطبع . بالطبع . والآن أحسب أنه لا يوجد شك ممقول في أنها ساحرة ؟

القس : لاشك أبداً . إنها ساحرة من قمة رأسها إلى أخص قدمها .

ورك : [يعاتب القس في رفق على تدخله] إننا نطلب رأى الأسقف ياسيد جون .

كوشون : إننا مضطرون أن نعتبر فوق آرائنا التي نبديها هنا ، آراء المحكمة — أو إن شئت فيولها وأهواءها — وهي محكمة فرنسية .

ورك : [مصححاً] محكمة كاثوليكية يامولاي .

كوشون : إن المحاكم الكاثوليكية ، مهما تقدس عملها:

وتبارك وحيها ، ككل المحاكم تتألف من رجال آدميين . فإذا هم كانوا فرنسيين ، على نحو ما يدعوم لسان العصر الجديد ، فهم لن يقتنعوا أبداً بأن سحراً وقع بناء على حادثة فريدة واحدة ، هي أن جيشاً إنجليزياً هزمه جيش فرنسى .

القس : كيف تقول ! ألا يقتنعون بعد أن هُزِم الرجل الأشهر السير جون طلبوت John Talbot نفسه ، وبعد أن أُخِذ فعلاً أسيراً ، أسرته امرأة قحبة قذرة ، جاءت من مزابل لورين . كوشون : إن السير جون طلبوت جندي كاسر عنيف مخيف ، ونعلم عنه ذلك يا حضرة القس ، ولكنى لازلت أجهل أنه قائد قدير . وإنه ليروقك أن تقول إن الفتاة قهرته ، ولكن فينا من يميل إلى إعطاء دُنوا Dunois بعضاً قليلاً من هذا الفضل .

القس : [بازدراء] ابن زانية أرلين !؟

كوشون : دعنى أذكرك ...

ورك : [يتدخل] أعلم ما ستقول يا مولاي . ستقول إن

دُنوا غلبنى فى مُنتَرَجى Montargis .

كوشون : [ينحنى] إني آخذ هذا دليلاً على أن دُنوا قائد

قدير جدا .

ورك : مولاي مثال الفضل والكرم . أما من جانبنا فإني

أقر بأن تلبوت ليس إلا وحشا محاربا ، لا عقل له ولا حيلة ،
ولعله نال جزاءه بوقوعه أسيراً في باتاي Patay .

القس : [يأخذ في الاحتداد] مولاي ، إن هذه المرأة جُرِحَتْ
في أرلين ، أصابها سهم إنجليزي في حلقها ، ورآها القوم تصرخ
كالطفل من ألمه . فهذا جرح كان لا شك مميتاً ، ومع هذا لم
تمت ، بل ظلت تحارب به طول يومها . وردّ رجالنا كل حملة حملتها
كما يفعل الإنجليز الصميون ، ولكنها بمد كل ذلك سارت وحدها
إلى حائط قلعتنا ترفع علماً أبيض في يدها . عندئذ تخدّر رجالنا ،
وجمّدوا في أماكنهم ، لا يستطيعون رمياً أو ضرباً . فحمل عليهم
الفرنسيون وطردوهم إلى الجسر ، فلما حلّوه اشتعل ناراً ، وسقط
فرمى بهم في النهر فغرقوا فيه كتلا كتلا . فهل كان هذا عن
حذق في القيادة أتاه صاحبك ابن الفاعلة ، أم هذه النار من لهيب
جهنم ، جاء بها عمل السحر وأفانين الشياطين ؟

ورك : أرجوك أن تغفر للقس چون حدّته يا مولاي .
ومع هذا فهو قد عرض قضيتنا عرضاً موقفاً . إن دنوا قائد
كبير ، ولسنا ننكر ذلك ، ولكن قل لي بالله لماذا لم يستطع
شيئاً حتى جاءته هذه الساحرة .

كوشون : أنا لا أقول إن هذه الفتاة ليست بها قووى

خارقة . ولكنّ العلم الأبيض كان عليه اسم الربّ واسم أمه الطاهرة ، تقدّس اسمها ، ولم يكن عليه اسم الشيطان . وأمير جيشك الذي غرق ، أظنكم تسمونه كلّزده ...

ورك : جلسديل . السير وليم جلسديل Glasdale .

كوشون : جلسديل . أشكرك . فهذا لم يكن قديساً ، وكثير من قومنا يظنون أنه غرق لسبب الفتاة ، ولكفره بالطعن فيها .

ورك : [يبدو كأن الشك بدأ يداخله] إذا الذي نستنتجه من كل هذا يا مولاي . أنستنتج أن الفتاة حولتك إلى دينها ؟ كوشون : لو كانت فعلت هذا يا عزيزي اللورد ، لما أمّنتُ على نفسي أن أسلمها إليكم كما أسلمتها الآن .

ورك : [يستعيز في لطف] لا ! لا ! لا ! وعفواً يا مولاي !

كوشون : إذا كان الشيطان قد تقمّص هذه الفتاة ، واتّخذها حقاً أداة — وأظنه قد فعل —

ورك : [يعود إليه اطمئنانه] آه ! أنصت إلى هذا يا قسّ چون . إنني يا مولاي الأسقف قد علمت في قرارة نفسي أنك لن تمخذنا أبداً . لا تؤاخذني في المقاطعة ، وتفضل بالحديث .

كوشون : إذا كان الشيطان قد اتّخذ هذه الفتاة أداة ، فإن

له والله نظرة أتقبّ مما نحسب وأبعد مدى مما تقدّر له .
ورك : وكيف كان ذلك بالله . أنصت إلى هذه يا قس چون .
كوشون : أتري لو أراد الشيطان أن يقضى باللعنة على فتاة
ريفية ، أترأه يكلف نفسه في سبيل هذا الغرض الهين كسب
عشر وقائع وعناء حربها ؟ لا يا عزيزي اللورد . إنه غرض
هين يستطيعه أى عفریت صغير حقير ما قبلت الفتاة الضلال .
أما أمير الظلام شيخ الشياطين فلا يتنزل في سبيل ذلك إلى كل
هذا العناء . إنه إن ضرب فإنما يضرب في قلب الكنيسة ، في
قلب الكتلكة ، في ولاية يشمل سلطانها الرّوحى العالم أجمع .
وهو إن لمن وأهلك فإنما يلمن ويهلك أنفُس البشر جميعاً . فهذه
خُطّته الجبّلى وغرضه الأسمى ، والكنيسة تعرف ذلك منه ،
وتحذّره دائماً أبداً . وهذه الفتاة أراها أداة للشيطان في بلوغ
أرّبه ، فهى ذات وّخى ، ولكنه وّخى الشيطان .

القس : ألم أقل لك إنها ساحرة ؟

كوشون : [في غضب شديد] إنها ليست ساحرة ، إنها زنديقة
ضالّة ، ذات بدعة ، خارجة .

القس : وما الفرق بين هذا وذاك ؟

كوشون : أنت أيها القس تسألني عن فرق ما بين هذا

وذاك؟ يُدهشني معشرَ الإنجليز أن أرى فيكم هذا الغباء. إن كل هذا الذي تُسمونه سحراً تفسيره مستطاع قريب لا تمسّر فيه ولا التواء. إن معجزات هذه المرأة لا تجوز على حمار، وهي نفسها لا تدعوها معجزات. وانتصاراتها إن دلت على شيء فهي تدل على أنها تحمل فوق عاتقها رأساً خيراً مما يحمله صاحبكم السباب جلسديل، وثوركم الكاسر المجنون طُلبوت، وهي إن دلت على شيء آخر فهي تدل على أن قوة الإيمان فوق قوة الغضب، ولو كان الإيمان إيماناً مكذوباً.

القس [لا يكاد يصدّق أذنيه] أتشبهه يا مولاي السير جون طلبوت، وارث إرثية اشرووزبري Shrewsbury، بورمجنون؟! ورك: لا يليق بك يا سيد جون — وبينك وبين البارونية ستة محببونك عنها — أن تتدخل في هذا الشأن قبولاً أو رفضاً. أما أنا فإزل، وبما أن طلبوت لم يكن إلا « سير » Sir، ففي وسعي أن أقبل التشبيه الذي قد يسوءك [إلى الأسقف]: مولاي، عفا الله عما قلناه في أمر السحر والساحرة، فاعتبر أن شيئاً من هذا لم يكن، ولكن يبقى أن هذه المرأة لا بد من حرقها. كوشون: إني لا أستطيع حرقها، إن الكنيسة لا تقتل

الأنفس التي حرّمها الله ، فواجب الأول سمي في خلاص هذه الفتاة وتطهيرها .

ورك : لا شك أبدا في هذا ، ولكنكم قد تحرقون الناس أحيانا .

كوشون : لا ، إن الكنيسة إذا أعجزها زنديق كافر غنيد ، قطعت من شجرة الإيمان كما يُقطع الغصن إذا ذهب عنه الماء والخضرة ، وعندئذ تُسلمه إلى السلطة الزمنية ، وهذه تفعل به ما تشاء دون أن تحمل الكنيسة من تبعه ذلك شيئا .

ورك : هذا بالضبط ما أعنى . وفي هذه الحالة سأكون أنا السلطة الزمنية ، فأسلم إلى يامولاي هذا الغصن الجاف الذي فقد الخضرة والماء ، وأنا أهي له النار . تكفل أنت بنصيب الكنيسة ، وأنا أتكفل بنصيب السلطة الزمنية .

كوشون : [في غضب مكظوم] إني لن أتكفل بشيء . إنكم أيها اللوردات العظام تملون دائما إلى اتخاذ الكنيسة أداة سياسية هيّئة في سبيل أغراضكم .

ورك : [في ابتسام واستعفاف] لا نفعل هذا في إنجلترا ، فكن بذلك واثقا .

كوشون : في إنجلترا أكثر من كل مكان آخر .

لا يا سيدى اللورد . إن نفس هذه الفتاة الريفية تعدل في الميزان
نفسك ونفس ملكك عند الله . وأول واجبي خلاصها . ولن
آذن لك أن تبسّم لما أقول كأني إنما أقول خرفاً ، أو كأنما
كان مفهوماً بيننا أنى سأخون أمانة هذه الفتاة . إنى لست أسقفاً
سياسياً فحسب ، وإن إيماني منى في الموضع الذى فيه شرفك
منك . فأنا لو لمحت خرقاً صغيراً ثقلت منه هذه الفتاة بنتُ الله ،
المعمّدة طفلةً باسم الله ، لما تعدتُ عن هدايتها إليه لتنفذ منه ولو
زحفاً إلى النجاة .

القس : [ينهض فى احتياج] أنت خائن .

كوشون : [يقفز على قدميه] إنك يا قس تكذب . يرتعد
غضباً [إنك إذا فعلت ما فعلت هذه المرأة ، فوضعت بلادك
فوق الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، فستذهب معها إلى النار .

القس : مولاي . إنى ، إنى أنا قد جاوزت الحد [يجلس ويشير

إشارة التسلم] .

ورك : [يكون قد توقع شراً فوقف] مولاي ، إنى أعتذر إليك

عن الكلمة التى قالها القس چون دى استوجبر . إن معناها فى
إنجلترا غيرُ معناها فى فرنسا ، فلفظة خائن فى لغتكم معناها
رجل خداع غدار لا يحفظ عهداً ولا يرمى ذمّة ، أما فى بلدنا

فهي تعنى في كل بساطة رجلا لا يُخلص كل الإخلاص لمصالحنا
الإنجليزية .

كوشون : إنى متأسف ، فقد كنت أجهل هذا [يهبط في
كرسيه في وقار] .

ورك : [يعود فيجلس معتبطاً بانفراج الأزمة] وفيما يحصنى أنا ،
أودّ أن أعتذر إن كنتُ استهنتُ بحرق هذه الفتاة المسكينة .
إن قلب الجنديّ متنا يقسو ويتصلّد عندما يرى مناطق من الأرض
كاملة تُحرقُ المرّة بعد المرّة ، في برود قلب واطمئنان بال ، على
أنها جزء عادي من واجبات حرية وخطّط يومية دورية لا بد
من نفاذها . ولولا قسوة القلب هذه ، ولولا تصلّده ، لجنّ المرء
متاجنوناً ، أو على الأقل لجننتُ أنا . فهل لى أن أتجرأ فأفرض
أن مولاي أيضاً حاله كحالى ، وأنه من كثرة ما اضطرّ إلى
شهوده من حرق الزنادقة حيناً بعد حين ، أصبح مضطراً إلى
النظر إلى هذه الحوادث البشعة نظرة المرء إلى واجب معتاد
هيّن مألوف .

كوشون : نعم إنه واجب أليم ، بل هو كما تصف بشيع ،
ولكنه لا يُقارَن بِشاعة الزندقة . والذي يَهْمَنِي من الفتاة ليس
جسمها ، فالجسم يتألم برُّهات ، وهو مهما امتدَّ به الأجل صائرٌ

إلى الموت على حال فيها ألم قد يزيد وقد ينقص ، ولكن الذى يَهْمُنِي رُوحَهَا ، فهى قد تمعذب إلى أبد الأبدين .

ورك : هذا حق لا مرأى فيه ، فلندعُ الله أن تنجوَ وتخلص روحها . ولكنى إخال أن المقدة التى تتطلب منا حلاً ممكناً مستطاماً عاجلاً هى كيف نفعل لنخلص روحها دون تخلص جسمها ، فلا بد يا مولاي من مواجهة الحقيقة المنذرة ، فالدين الذى ابتدعته هذه الفتاة لو انتشر لَضِعْمُ به وضيعنا .

القس : [يتكلم فينقل صوته كأنما كان يبكي] أأأذن لى فى الكلام يا مولاي ؟

ورك : الحق يا قسّ چون أنى أفضل أن لا تتكلم ، إلا إذا استطعت كظم غضبك .

القس : لا أريد أن أقول إلا هذه الكلمة ، وإن أنا أخطأت فصححونى . إن هذه الفتاة يملؤها النور ، وهى تدعى الصلاح والتقوى ، وهى تُكثِرُ الصلوات وتُقرُّ بالخطيئات حتى لانهية لصلواتها واعترافاتها ، فكيف تستطيعون اتهامها بالزندقة وهى تقوم بجميع فروضها ، كما تفعل ابنة صالحة من بنات الكنيسة . ؟

كوشون : [ياخذ فى الحدة] ابنة صالحة من بنات

الكنيسة ! إن البابا في أكثر الساعات إعجاباً بنفسه لا يجرؤ على أداء ما تدعيه هذه المرأة . إنها تفعل كأنها هي الكنيسة ذاتها ، وتأتي برسالة الله إلى شارل . والكنيسة يجب أن تفسح لها الطريق . وهي ستتوجه في كتدرائية رانس . هي هي التي تتوجه لا الكنيسة . وهي تبعث بالكتب إلى ملك الإنجليز بأن يصدع بأمر الله الذي أوحى إليها ، فيعود إلى جزيرته وإلا حاق به غضبُ الله . وهي التي ستحقيق به غضب الله . ألا فاعلموا أن إرسال هذه الكتب هكذا عادةٌ جرى عليها قديماً محمد عدو المسيح . واذكروا أنها في كل ما تقول لا تذكر الكنيسة بكلمة ، فقولها دائماً في نفسها وفي الله .

ورك : وماذا تنتظر غير هذا من سخاظة إذا هي امتطت

جوادا ؟ إن رأسها دارت كأنما سُقِيَتْ خمرا .

كوشون : إنه الشيطان دار برأسها ، ولسببٍ جَلَلٍ فعل

هذا . إن الشيطان يبذر بذور الزندقة في كل مكان ، فنذ ثلاث

عشرة سنة قام رجل اسمه هوس^(١) Hus في بوهيميا فأعدى الناس

(١) مصلح ديني ولد في بوهيميا حول عام ١٣٧٥ م ، وأحرق حيا من أجل تعاليمه في ٦ يولييه عام ١٤١٥ . كان عميدا لكلية الفلسفة في براغ ، ثم رئيساً للجامعة كلها . واشتد انتقاده للبابا فطرده من الكنيسة مرتين . وكان يرى الرجوع في الدين إلى الإنجيل وحده .

بها فأحرق من أجلها . وفي إنجلترا قام رجل قس مرسوم^١ اسمه وكليف^(١) Wcleef ، فنشر الوباء فيها ، فتركتموه يموت في فراشه حتفَ أنفه فكسبتم بذلك حارا . وهنا في فرنسا قوم من هؤلاء أعرفهم من سيام ، وأتبين جنسهم من لقيام . إنهم كالسرطان إذا هو لم يُقطع ، إذا هو لم يُقلع ، إذا هو لم يُدعق ويُحرق ، فإنه يتمدد ثم يتمدد حتى يملأ جسم المجتمع الإنساني كله بالخطيئة والفساد ، بالوبال والخراب . وبمثل هذا قام عربيّ جمال فطارد المسيح وكنيسة المسيح ، حتى طردها جميعا من أورشليم ، ثم مضى يضرب في الأرض فيبث الفزع والخراب فيها ، حتى إذا بلغ مغربها قام جبل الأبواب^(٢) دونه وقامت رحمة الله ، وحيل بين فرنسا وبينه ، فنجت من لعنة الله . فاذا صنع هذا الجمال العربي في بداية أمره أكثر مما صنعت

(١) يقصد لا شك بهذا الاسم ويكلف Wycliffe ، وإنما أوردته على صورة خاطئة جريا مع لسان المتحدث وهو فرنسي . أما الرجل فهو جون ويكلف ، ولد في إنجلترا عام ١٣٢٠ ومات عام ١٣٨٤ . وتعلم في أكسفورد ، واختير رئيساً لكلية بليول فيها ، ودرس اللاهوت وعلمه . ولما قامت المحصومة بين ادوارد الثالث ملك إنجلترا والبابا ، ناصر ملكه على البابا . وكتب كتباً شديدة في البابا وانتقد الأساليب الدينية الجارية في ذلك النصر انتقادا صرا ، وشاعت تعاليمه في أوروبا وقامت بنصيبها في أحداث الثورة الإصلاحية الدينية العامة ، وحاكاه البابا مرتين فخته الملكية الإنجليزية ومات حتف أنفه ، إلا أنه في عام ١٤٢٨ ، أي بعد وفاته بأربعة عشر عاما ، حوكم ميتا ، وحكم على تعاليمه بالفساد ، ثم نبش قبره وأحرقت رفاقه .

(٢) هي جبال الپرينيه Pyrenees فهكذا كانت تسميها العرب .

هذه الفتاة ؟ جاء الوحي من جبريل ، وجاءها من القديسة
كترينة والقديسة مرغريت والمبارك ميخائيل . وأذن في الناس
بأنه رسول الله ، وكتب الكتب إلى ملوك الأرض باسم الله .
وكتبها لا تفتأ تصدر للملوك كل يوم ، وإليها يجب أن نتوجه
نحن بالشفاعة الآن ، إلى العذراء چان ، لأن العذراء أم الله .
إن بالكنيسة ذخيرة من علم وحكمة وخبرة تجمعت على
السنين والقرون ، وبها مجالس من حكماء علماء برة أتقياء ، فإذا
يكون حال هذه الدنيا إذا التقي بكل هذا التراث في المزارب
والمزابيل ، كلما قام عامل أجير جاهل ، أو قامت فلاحه حلابة للبقر
نققها الشيطان بالغرور الفادح فألهمها أنها يوحى إليها من السماء ؟
عندئذ تصبغ الدنيا معتركا تتناطح فيه الرؤوس الغاضبة ، وتسيل
فيه الدماء ساكبة ، فكل رجل وما تقدر عليه يدها . ثم تصبغ
الدنيا خرابا يبابا . وتحمل البربرية محل المدنية . إنا والحمد لله الآن
بخير ، فليس في الدنيا إلا محمد ومخدوعوه ، وإلا الفتاة چان
ومخدوعوها ؛ ولكن كيف يكون الحال إذا خالت كل فتاة أنها
چان ، وخال كل رجل أنه محمد . إنها حال تفرغني فزعا لا فزع
فوقه ؛ حال حاربت كل حياتي لاتقائها ، وسأحارب لاتقائها
ما بقي من أيامى . إنا ننفر لهذه المرأة كل خطاياها إلا هذه ، فهي

خطيئة في حق الروح القدس . إنها إذا لم تنصل من دعواها ،
وإذا هي لم تستغفر منها على الملأ وأنفها راغم ، وإذا هي لم تخرج
عن كل قيراط من روحها الى الكنيسة ، اذا هي لم تفعل كل هذا
فإلى النار مأواها لو وقعت يوماً في يدي .
ورك : [لا يتأثر بالذى قيل] أنت شديد التأثير من هذا الأمر
بطبيعة الحال .

كوشون : أأست كذلك ؟

ورك : أنا رجل حرب لا رجل دين . وقد حججت إلى
بيت الله المقدس ، ورأيت بعضاً من أتباع محمد ، فلم أجد من
سوء الأدب بالمكانة التي أفهمونها قبلاً ، بل وجدت لهم أدبا
لا يقل من بعض الوجوه عن أدبنا .

كوشون : [يستاء مما قيل] لقد لاحظتُ هذا من قبل : أن
رجالا يذهبون إلى الشرق لينصروا الكفار ، فلا يلبثون أن
ينقلبوا هم كفاراً . إن الجندي الصليبي يعود من الشرق وهو
نصف شرقى مسلم . دع أن الإنجليز جميعاً زنادقة من يوم يولدون .
القس : الإنجليز زنادقة !! ؟ [يستغيث بورك] مولاي ،
كيف نصبر على هذا !! إن مولاي الأسقف ضاع عقله . كيف
يكون ما يعتقدُه الإنجليزي زنادقة . إنه تناقض في اللفظ .

كوشون : إني أعفوا عنك يا قس بناءً على جهالة فيك مُطبقة .
إن جو بلادك الكثيف لا يُنشئُ الفقهاء .

ورك : إنك ما كنت لتقول هذا لو أنك شهِدتنا نتجادل
في الدين يا مولاي . وإنه ليعروني الأسف أن تظن بي إما الزندقة
وإما النباء ، لا لسبب سوى أني طوّفتُ في البلدان فعرفتُ
فيما عرفتُ أن أتباع محمد يحترمون المسيح احتراماً ظاهراً
شديداً ، وأنهم في تسامحهم أقرب أن يغفروا لبطرس القديس أنه
كان سماً كا ، من أن تغفرا أنت يا مولاي لمحمد أنه كان جماً لاً .
أ كثيرٌ ياسيدي أن أطلب منك أن تأخذ على الأقل فيما نحن
فيه الآن بغير تمصّب وضيق ذهن .

كوشون : إن الرجل إذا سمى غيرتي الكنسية وحميتي
المسيحية تمصّباً فقد تحلّلتُ في أمره وظننتُ فيه الظنون .
ورك : إن هُما إلا رأيان في شيء واحد ، أحدهما شرقيّ ،
والآخر غربيّ .

كوشون : [يتهمك في مرارة] شرقي وغربي ! ليس إلا !
ورك : يا مولاي الأسقف ، إني لا أناقض ما تقول . إن
الكنيسة لاشك ستبعمك ، ولكن لا بد لك أن تبعمك الأشراف

أيضاً ، وفي رأيي أن في الإمكان اتهام الفتاة تهمةً هي أشد من التهمة التي شرحتها هذا الشرح القوي . إني أفضي لك بقول صريح : إني لا أخشى أن تنقلب هذه الفتاة محمداً ، أو أن تحل محل الكنيسة بسبب زندقة كبرى . إنك تبالغ في خطرها . ولكن قل لي هل وجدت فيما تبعث الفتاة به من الكتب إلى ملوك أوروبا أنها تعرض عليهم صفقة سبق أن عرضتها ورفضتها على شارل ، صفقة لو أنها تمت لهدت كيان المجتمع في كل بلد من بلاد المسيح .

كوشون : لهدت كيان الكنيسة . وهذا ما أقوله لك .
ورك : [وقد بدأ ينفد صبره] مولاي ، أتوسل إليك أن تُخرج الكنيسة من رأسك وأن تنساها ساعة من الزمان ، وأن تذكر أنه إلى جانب المؤسسات الروحية الدينية ، توجد مؤسسات زمنية دنيوية . إني أنا وأشرفي نمثل الارستقراطية الإقطاعية بقدر ما تمثل أنت الكنيسة . نحن السلطة الزمنية .
أفلا ترى كيف أن الفتاة تضرب في الصميم منا ؟

كوشون : لا أدري كيف تضرب في الصميم منكم ، إلا بقدر ما تضرب في الصميم منا جميعاً بضرها الكنيسة .
ورك : إنها ترى أن يُعطى الملوك مُلكهم لله ، وأن يحكموا

من بعد ذلك في هذا الملك خلفاء الله .

كوشون [في غير اهتمام]: هذا في الفقه صحيح يا مولاي ،
ولكن الملوك لا تكاد تهتم لشيء أو تتورع عن أمر ما حكمت .
إنها فكرة نظرية بحتة ، أسلوب من أساليب الكلام .

ورك : لا ، لا ، أبدا . إنها حيلة مأكرة مؤداها خلع
الارستقراطية وإحلال الملوك محلها يحكمون مُطلقين كما يشاءون .
فبدل أن يكون الملكُ الشريفَ الأولَ بين أشراف ، يصبح
سيّدهم ومالكَ أمرهم . فهذا لا تُقرّه نحن معاشر الأشراف ، ولن
ندعو رجلا سيّدا فينا أبدا . إننا نتسلم أراضينا ومراتبنا من
الملك ، ولكن بالاسم لا في الواقع . وذلك لأنه لا بد لكل حنيّة
من حجر أوسط تستند إليه ، وتجتمع حجراتها كلّها عليه ،
والملك الحجر الأوسط للمجتمع الإنساني . ولكننا نملك أراضينا
بأيدينا ، ونحميها بسيوفنا وسيوف مؤاجرينا . وتعاليم الفتاة
تقضى بأن يأخذ الملكُ أرضنا ، يأخذ أرضنا نحن أصحابها ، فيهبها
لله ، والله يعود بمد ذلك فيها جميعاً للملك .

كوشون : وهل أتم تخشون هذا ؟ إنكم أتم تخلقون
الملوك : يورك York ، أو لنكستر Lancaster في إنجلترا ، لنكستر
أو فلوا Valois بفرنسا ، كلها تحكم على هواكم .

ورك : نم هذا حق ما تَبِعَ الناسَ أشرافهم الإقطاعيين ،
وما ظل الناس لا يعرفون من مَلِكهم إلا تلك المظاهر التي
يُطوَّف بها بينهم حيناً بحد حين ، لا يسألهم حقاً أو خراجاً
إلا تلك الطرق السلطانية التي يَتَلَكها الناسُ أجمعين . أما إذا
أجمعت أفكار الناس إلى الملك ، واجتمعت قلوبهم عليه ، وأصبح
لُورداتهم في أعينهم للملك خُدّاما ، استطاع الملك عندئذ أن
يكسرنا على ركبتيه واحداً واحداً ، فلا يكون منا إلا وُصفاً في
بلاطه ، نَلْبَسُ الكُمى ونقف في الردهات مستجيبين لدعواته .
كوشون : لا أزال أقول إنه لا داعي للخشية يا مولاي ،
فمن الناس من يولدون ملوكاً ، ومن الناس من يولدون ساسة ،
وقلّ أن يجتمع الملك والسائس في فرد واحد . فأين يجد الملك
ساسة ناصحين ، يخطّطون له وينفّذون ، إلا فيكم ؟

ورك : [يتسم ابتسامة ليست كلها ودّاً] لعله واجدم في
الكنيسة يا مولاي .

[يتسم كوشون ابتسامة مرّة كابتسامة صاحبه ، وهو يهز كتفيه
ولا يناقضه] .

ورك : اقصموا ظهور البارونات ، يَنخُلُ الجوّ للكردنالات .
كوشون : [يعود للترضى فيخض من صوته في المناقشة] مولاي ،

إنّا لن نقهر الفتاة إذا نحن تخاصمنا فيما بيننا ، وعمِلنا على مناوأة
بعضنا بعضا . إنى أعلم كل العلم أن الدنيا بها كَلْبٌ على السلطان ،
وأعلم أنه ما دام هذا فلا مندوحة عن نزاع بين الإمبراطور
والبابا ، ونزاع بين الدوقات والساسة من الكردنالات ، ونزاع
بين الملوك والبارونات . إن الشيطان يفرّق بيننا ، ثم هو يحكم
من دوننا . إنى أراك للكنيسة غير صديق ؛ أنت إزل أوّلا
وآخرا ، بمثل ما أنا كنسى أوّلا وآخرا . ولكن أفى هذا ما يمنع
أن نسى ما يفرّقنا ، وأن نجتمع كلانا على عدوّ واحد ، هو عدوّ
لنا وعدوّ لكم . أرى الآن أنه لم يكن فى نفسك أن الفتاة لم تذكر
الكنيسة وذكرت نفسها والله ، بل كان فى نفسك وأمضها أن
الفتاة لم تذكر الأشراف بل ذكرت نفسها والمَلِك .

ورك : نعم هذا ما كان بنفسى . ولكنّ الفكرتين إن
اختلفتا فرما ، فقد اتحدتا أصلا . وهذا أصل يضرب فى الأصول
إلى حد بعيد يا مولاي . وهذا الأصل هو رفضُ روح الفردِ
واحتجاجها أن يتدخلَ بينها وبين الله شريف أو قس . ولو أنى
صُنْتُ له اسما لقلت الرافِضية أو البروتستانية .

كوشون : [يرشقه بنظره] إنك تفهمها فهما مدهشا فى جودته
يا مولاي . حكّ رأس الإنجليزى ينكشف لك عن بروتستانى .

ورك : [يقول متصفا غاية التأدب واللطافة] لا أظنك تخلو
كل الخلو من عطف على الفتاة فيما ابتدئته من زئذقة تمس السلطة
الزمنية ، فأنا أترك لك أن تجد لها اسما أكثر توفيقا يا مولاي .
كوشون : قد أسأتَ فهما يا مولاي . فإبي عطف على
ما ادعته الفتاة صلفا من دعاوى سياسية ؛ ولكنى قسّ عرف
في سبيل مهنته شيئا عن عقول العامة وكيف تعمل . وإنك
لواجد في هذه العقول فكرة أخرى غاية في الخطورة ، لا أدري
كيف أعبر لك عنها . فكرة تجد معناها في قولهم : فرنسا
للفرنسيين ، وأنجلترا للإنجليز ، وإيطاليا للإيطاليين . إنها فكرة
توجد في الريف ، يتمسك بها الريفيون في تعصب وضيق ذهن
شديد يبلغ أحيانا حد الخصومة المرة بين القرية والقرية . من
أجل هذا يدهشني أن تستطيع هذه الفتاة القرية أن تسمو عن
مبدأ القرية : أن القرية للقرّوين . فإنها حقا تستطيع أن تسمو ،
بل هي قد فعلت . فهي لما تهدد بطرد الإنجليز من أرض فرنسا
تقصد لا شك بذلك كل الأرض التي ينطقون فيها بلسانها .
فعندها أن جميع من يتكلمون اللغة الفرنسية يؤلّفون ما يسميه
الإنجيل شعبا أو أمة واحدة . فلك أن تسمى هذا الجانب من
زندقتها قومية إن شئت ، فأنا لا أستطيع أن أجد لك كلمة خيرا

منها . ولكنى أستطيع أن أؤكدك أنها فكرة يناقض جوهرها الكاثوليكية ، ويناقض المسيحية ؛ فالكنيسة الكاثوليكية لا تعرف إلا أمة واحدة هي أمة المسيح ، وإلا دولة واحدة هي دولة المسيح . فإن أنت قسمتها أما وشعوبا فقد خلعت المسيح . وإن أنت خلعت المسيح ، فمن ذا يحول بين السيوف والرقاب ؟ إذن لو وقعت الحروب واختلطت ، وحقَّ على الدنيا الفناء .

ورك : إذن هان الأمر بيننا ، فاحرق أنت البروتستانتين ، أحرق أنا القوميين . ولو أن القس چون قد لا يوافقنى على هذه الأخيرة ، فأنجلترا للإنجليز تجد هوى في قلبه .

القس : بالطبع إنجلترا للإنجليز ، إنها من البداهة بمكان . إنها قانون الطبيعة الأبسط . ولكن هذه المرأة تجحد إنجلترا فتوحاتها الشرعية التي منحها الله إياها لما خصَّها الله به من القدرة على حكم شعوب دونها مدنية . وهي إنما تحكمهم بخيرهم . إنى لا أفهم يا سيدي ما تمنيان بروتستانتى وقومى ، فعلمك لا يدركه قس صغير مثلى . ولكنى أعلم حقيقة بسيطة واقمة يفهمها كل الناس ، هي أن هذه الفتاة نائرة خارجة ، وكفى بذلك عندى علما .

فهي قد نارت على الطبيعة فلبست ملابس الرجال ، وحاربت كما يحارب الرجال . وهي قد نارت على الكنيسة فاستلبت من البابا

سلطته الربانية استلابا . وهي قد ثارت على الله لما عاهدت الشيطان
ومن اتبعه من أرواح خبيثة على هزيمة جيشنا . وهي قد اتخذت
من كل هذه الثورات سبباً يؤدي بها إلى ثورتها الكبرى ضد
انجلترا . فهذا لا يمكن احتمالها ، فأعدموها ، وحرّقوها ، ولا تدعوها
تنال بالوباء سائر القطيع . إن من الحكمة قتل امرأة لخلاص الناس .
ورك : [ينهض] مولاي ، يظهر أننا قد اتفقنا .

كوشون : [ينهض أيضا ولكن في احتجاج] إني لن أورد
روحي موارد الهلاك . إني سأقضي بما يقضى به عدل الكنيسة ،
وسأفرغ جهدي لنجاة هذه المرأة .

ورك : إني أعطف على الفتاة المسكينة . إني أكره
القسوة ، وسأصرف عنها السوء إن وجدت إلى ذلك سبيلا .
القس : [وقد بقي على غضبه] إني لو استطعت لحرقتها
بيديّ هاتين .

كوشون : [يباركه] جهالة قسيس ، أو حماقة قديس ،
فاغفرها له يارحمن .

المنظر الخامس

[ممشى في كتدرائية رانس ، بجوار الحجرة التي يغير فيها رجال الكهنوت ثيابهم . وبالمشى عمود عليه صورة من آلام المسيح يصلى عندها المصلون . والأرغون يعزف حتى يخرج الناس جميعاً من ضمن الكنيسة بعد أن تُوجَّع الملك . وتكون جان عاكفة على صلاتها أمام العمود وهي في لباس فاخر جميل ، ولكنه لباس رجل لا أنثى . ثم يخرج دُنُوا من حجرة الثياب إلى الممشى في زى نغم جميل أيضاً . عندئذ يسكت الأرغون] .

دُنُوا : هيا بنا يا جان ، فقد كفاك صلاة . إن البرد لا شك مصيبك إذا أنت لبثت طويلاً هنا بعد هذا البكاء الشديد . قضى الأمر كله الآن . فرغت الكنيسة من الناس ، وامتلات بهم الشوارع ، وهم يدعون الفتاة أن تظهر فيهم . لقد قلنا لهم إنك باقية هنا وحدك للصلاة ، ولكنهم يصرون على أن يروك مرة أخرى .

جان : لا . دعوا الملك يقطف ثمر هذا المجد كله .

دنوا : عفا الله عنه ، إنه مسكين ضعيف ، وظهوره يفسد
هذا المنظر الجميل . لا يا جان ، أنت توجّه ، فلا مندوحة لك
عن بلوغ الناية من ذلك .

جان : [تهز رأسها في تردد] .

دنوا : [يرفضها من ركتها] هيا بنا هيا . إن كل شيء ينتهي
في ساعتين . حدّثيني ، أليس هذا خيراً مما وقع على الجسر
في أرلين ؟

جان : أى عزيزى دنوا ، كم وددتُ لو عاد الجسر وعادت
ساعة الجسر مرة أخرى . فعلى هذا الجسر ذقنا الحياة .

دنوا : أى والله ، وعليه ذقنا الموت أيضاً - ذاقه بعضنا .

جان : إني أعجبُ لحالى يا چاك : أجبني كل الجبن وأمتلى
بالذعر قبل الواقعة ، حتى إذا سحبت نارها ، وانقشع غبارها ،
وتولّت عن الدنيا مخاطرها ، سثمتُ نفسى العيش وعِفت الحياة .

دنوا : إنك تُقلّين الطعامَ والشراب ، فتعلّمي الإقلال
من الحرب أيضاً يا قديستى الصغيرة .

جان : عزيزى چاك ، أحسب أنك تحبني كما يحب الجنديّ

رفيقه .

دنوا : أنت في حاجة إلى محبتي يا مسكينة ، يا بنت الله ،
يا ساذجة . فليس لك في البلاط أحباب كثيرون .

جان : لا أدري لماذا تُبغضني بطانة الملك ، وكل هؤلاء
الفوارس الأشراف ، ورجال الكنيسة . ماذا صنعتُ لهم ؟ وماذا
سألتُ لنفسى منهم ؟ ما سألت إلا أن تُعفى قريتي من ضرائب
الحرب ، لأننا فقراء لا نُطيقها . لقد جئتهم بالنصر بعد الهزيمة ،
وأطلعتُ لهم نجم السعد بعد أفوله . وقومتُ أمورهم بعد أن
جاءوا من الأعمال بكل مُعوجّ سخيف . وتوجتُ شارل فصار
مَلِكاً صِدْقاً . وأعطى الرتبَ ، وفرّق الألقاب ، فذهبت كلها
فيهم . فلماذا لا يحبونى ؟

دنوا : [يحاول أن يذهب بالقنوط عنها] يا بلهاء ! اتحسبن
أن رجالاً أغنياء مُبداء يحبونك لأنك كشفت الغطاء عن
مناقصهم ؟ أيجب ضباطُ حربٍ شيوخُ خاوون خطأؤون ،
ضباطاً أحداثاً موقّنين ، حلوا من الجيش حيث كانوا يَحْلُونَ ؟
أيجب رجالُ سياسيون قدماء أمالون ، رجالاً سياسيين مُحدّثين ،
نافسوم في مقاعدهم الأولى في البرلمان فنفسوم ؟ والمطارنة ،
أتحسبنهم يقفون صامتين راضين مغتبطين إذا خادعهم مخادع

عن مذابحهم في كنائسهم ، ولو كانوا أطهاراً قديسين ؟ ولم نذهب بعيداً ، فهذا أنا ، ما كان أحقنى بالنيرة منك لو كنت مطمأناً أملاً .

جان : إنك يا جاك في هذه السلّة كلّها خيرٌ ما فيها . إنك صديق الأوحاد من بين هؤلاء الأشراف جميعاً . إن أمك لا بد قد جاءت من الريف . إنى إلى الريف سأعود - بد أخذ باريس . دنوا : لست موقناً بإقائتك بأنهم سيأذنون لك في أخذ باريس .

جان : [سرّاعة] كيف تقول ؟!

دنوا : لقد كنتُ أخذت باريس أنا نفسى من قبل ، لو كان الكلّ في أخذها صادقين مخلصين . أكبر ظنى أن فئة منهم تجد أحبّ إلى نفسها أن تأخذك باريس . فاحذرى ، ثم احذرى .

جان : جاك ، إن الدنيا هذه خبيثةٌ خبيثاً لا أطيعه . فإذا لم يهلكنى الإنجليزُ والبرجنديون ، أهلكنى الفرنسيون . إنى لولا أصواتى التى أسمع لَضَمَفَ قلبى وملاءة القنوط . ومن أجل هذا تسلّلتُ خفيةً إلى هنا بعد التتويج أهرع بصلاتى إلى الله

وحدى . أنصت إلى يا جاكُ أخبرك خبراً . إنى فى هذه الأجراس
أجراس الكنيسة أسمع أصواتى . إنى لم أسمعها اليوم لَمَّا دَقَّت
الأجراس كلها معاً ، فما كان هذا إلا صخباً صاخباً . ولكنى أسمع
أصواتى فى المادة هنا فى هذه الزاوية إذا دَقَّت الأجراس وجلجلتْ ،
وتنزلتْ أصداؤها على من السماء فلجَّتْ وترينتْ . وقد أسمعها
فى الحقل تأتى من بعيد ، تخرق إلى هواءها المديد ، وهدوءها
الصامت الشديد [تدق ساعة الكنيسة ربع الساعة] صه ! [يعترىها
ذهول] أسمع ؟ « عزيز ... زنى ... يا بذا ... ت الله » . بالضبط كما
دعوتنى . فإذا دقت نصف الساعة قالت الأصداء : « سي ... رى ...
قُد ... ما » . فإذا جاءت ثلاثة الأرباع قالت : « أنا ...
فى ... عَوْ ... نك » . ولكنها عند تمام الساعة عندما يدق
الجرس الأكبر تقول : « فَا ... رَنَسَا ... يُنَجِّي ... ها الله » .
وعندها تأتى القديسة مرغريت ، وأحياناً القديسة كثرينة
- حتى المبارك ميخائيل يأتى أحياناً - فيقولون لى أشياء
لا أستطيع أن أتنبأ بها . وعندها ، أى وعندها ...

دنوا : [يقطعها بحنو ، ولكنه لا يشاركها شعورها] وعندها
يا جان يستمع الإنسان فى جلجلة الأجراس ما يخال . إنى أخاف
عليك كلما سمعتك تتحدثين عن هذه الأصوات . ولقد كدت أظن

فيك مسًا من خبل لولا أنى أراك تأتينى بعلى معقولة مقبولة
لكل ما تصنعين . ومع هذا أسمحك تقولين لميرى إنك فى الذى
تصنعيه إنما تطيعين السيدة القديسة كترينة .

جان : [تقول وهى غَضْبَى] إنى أصطنع لك العلى اصطناعا ،
لأنك لا تؤمن بأصواتى . ولكن الأصوات تجيئنى أولاً ، والعلى
تجىء بعدها ، فصدّق ما بدا لك .

دنوا : أغضبت يا جان ؟

جان : نعم . [تبسم] لا ، لن أغضب منك . لَوَدِدْتُ أَنْكَ
ضبّى رضيع من صبية القرية .

دنوا : لماذا ؟

جان : إذن لاستطعت أن أحضنك وأناغيك ساعة .

دنوا : فأنتِ إذن لا يزال بك شىء من أنوثة المرأة .

جان : لا . لا شىء مطلقًا . فأنا جنديّة محاربة ليس إلا .

والجنود يحتضنون الأطفال كلما أمكنتُ فرصة .

دنوا : هذا حق [يضحك] .

[يخرج الملك شارل من حجرة الملابس بعد أن بدّل زيه ، ويكون
لاهير على يمينه وذو اللحية الزرقاء على يساره . عندئذ تتوارى جان فى
سرعة خلف العمود ، ويبقى دنوا فيقع بين شارل ولاهير] .

دنوا : هاقد أصبحت يا صاحب الجلالة بعد دهان الزيت
ملكا متوجًا ، فكيف تجد حالك الآن ؟

شارل : ما أودّ أن يعود ما كان ، ولو صرتُ به إلى
عرش الشمس والقمر . ألا ما أثقل هاتيك الكُسى والحُلل !
لقد وضعوا على رأسى ذلك التاج فكدت أنوء تحته . والزيت
المقدس الشهير الذى تحدثوا عنه كل هذه الأحاديث ، كان زَنِيحًا
فاسدًا . أف . والمطران لا شك أنه مات الآن إعياء ، فحُلُّهُ
لا شك وَزَنَتْ طنًا . لقد تركته فى حجرة الملابس يتمتر فيها .

دنوا : [فى جفاء] عليك يا صاحب الجلالة أن تكثر من
لبس الدروع ، فمندها تَخِفُّ عليك الكُسى الثقيلة .

شارل : نعم . نعم . هاتِ من تلك الفمّرات القديمة . ولكنى
لن ألبس الدروع فالحرب ليست شيمتى . أين الفتاة ؟

جان : [تخرج من خلف العمود إلى ما بين شارل وذى اللحية
الزرقاء ، ثم تركع على مولاى . قد نصبتك ملكا فاكتمل
واجبى ، فأنا عائدة إلى حقل أبى .

شارل : [يندهش ، ولكن يحس كأن أزمة قد تفرّجت] آه !
أحقًا تذهبين ؟ إذن تحسنين صنعًا .

[تنهض جان وقد ملأها اليأس] .

شارل : [يتادى غير عابىء] إن حياة الحقل حياة فيها
الصحة والمافية .

جان : ولكن فيها السامة والوخامة أيضا .
ذو اللحية الزرقاء : وتعودين إلى أبواب النساء ، غلائلهن
ومجاسدهن ، فتمعثرين فيها بعد ترك طويل .
لاهير : وسيشوقك القتال ، وهو عادة قبيحة ، ولكنه
متعة كبرى ، وهو فى المادات أشدها تأصلا فى النفس وأصعبها
استئصالا .

شارل : [يأخذہ القلق] ومع هذا فنحن لانود أن نُبقيك
معنا ، إذا أنتِ رغبتِ حقًا فى الذهاب إلى أيبك .
جان : [فى ألم] أنا أعلم حق العلم أنه ليس فيكم من يأسف
على ذهابى [تعطى ظهرها لشارل ، وتخطو أمامه ذاهبة إلى المكان
الأرحب الأحن : إلى جيرة دنوا ولاهير] .
لاهير : أما أنا ، ففى غيبتك أستطيع السبّ إذا أردته .
ولو أنى سأفقدك وأشتاك أحيانا .

جان : لاهير ، أنت برغم ما تقترفه من سبّ وخطيئة
ستلقانى فى الجنة ، فأنا أحبك كحبى كلبى المجوز حارس غنمى
يبتو . إن يبتو يقتل الذئب لو أراد . وأنت تظل تقتل الذئاب

الإنجليزية بإذن الله حتى يعودوا إلى بلدهم فيصبحوا كلاباً خيبرين
من كلاب الله . أنت فاعل ؟

لاهير : نعم ، إذا كنتِ معي .

جان : لن أكون معك . فلم يبق لي من العمر إلا عام
واحد ، بدأ باشتراكى في هذه الحرب .

الكل معاً : كيف تقولين ؟

جان : أقول ليس لي في الحياة غير عام . هكذا يحس قلبي .

دنوا : هذا لغو باطل .

جان : قل لي يا چاك ، أتستطيع طردهم من أرضنا ؟

دنوا : [يقول في هدوء المتكئ المقتنع بالذى يقول] نعم .
سأستطيع طردهم . إنهم غلبونا لما عددنا الحرب مملكة ، وميدان
الحرب سوقاً نكسب فيها القدي ، ولما اتخذنا الحرب هزلاً
واتخذوها جدًا . ولكنى أفدتُ من درسى ، وتعلمت من تجاربي .
وذرعت القوم وشبثهم ، فعلمت أنهم شجرات لا تضرب
أصولها في الأرض بميداً . لقد هزمتهم من قبل ، وإنى لتعين
أن أهرمهم مرة أخرى .

جان : ولا تكن قاسياً عليهم يا چاك .

ذوا : إنهم لن يلينوا في اليد الناعمة . وهذا شرٌّ مُمٌ بدأوه
والبأدى أظلم .

جان : [بغته] چاك . هيا بنا نأخذ باريس قبل أن أعود
إلى أبي .

شارل : [وقد دُعر] لا . لا . إننا إن فعلنا ، خسرنا
ما كسبنا . فدعوا القتال ، ففي مقدورنا الآن أن نمحطى من فوق
برجندى بمعاودة طيبة جدا .

جان : معاودة ! [تضرب الأرض بقدمها] .

شارل : نعم . ولم لا ؟ وقد صرت الآن ملكا مرسوماً ؟
أفٍّ من هذا الزيت !

[يخرج المطران من حجرة الملابس إلى الجماعة ، فيقف بين شارل
وذى اللحية الزرقاء]

شارل : أيها المطران ، إن الفتاة تريد أن تبدأ القتال من
جديد .

المطران : وهل سكتنا عن القتال ؟ هل نحن الآن في
سلام ؟

شارل : لا . أظن لا . ولكن حَسْبُنَا ما فعلنا ، فعلينا الآن

بالمعاهدة ، والحظُّ معنا ، فهو حظُّ جميل جداً لا أحسبه يدوم طويلاً ، فقفوا القتال قبل أن يتبدّل .

جان : حظ ! إن الله حارب دوننا . أفستسى هذا حظاً وتقف القتال ولا يزال الإنجليز على هذه الأرض المقدسة ، أرض فرنسا الغالية ؟

المطران : [في قوة وجفاء] يا فتاة . إن الملك توجه بحظابه إلى لا إليك . إنك تنسين مقدار نفسك فتتركين لها العنان فتجرحين . إنك تنسين فتجرحين كثيراً .

جان : [لا تحجل ، وترد في شيء من الحشونة] إذف فتكلم أنت وقل إن الله لا يرى له أن يرفع يده عن المحراث .

المطران : إن لسانك ذلق باسم الله ترددينه في كل آن . فإن لم تكن بلساني مثل هذه الدلافة ، فذلك لأنى إذا نطقت بعشيئة الله فإنما أنطق بها بلسان الكنيسة وما لها من سلطان ، وباسم منصبى وما له من قداسة . إنك كنت تحترمين سلطان الكنيسة وسلطان هذا المنصب لما جئتنا أولاً . عندئذ لم تكونى تجرئين على الحديث بمثل ما تتحدثين . وعندها كنت تحلين بفضيلة التواضع الجميل . ولكن لما كافأك الله عليها بالتوفيق دخل

العُجْبُ نَفْسِكَ وهو بئس الخطيئة . إنها المأساة الإغريقية القديمة
تعود فتمثّل فينا . إنه الغرور ينحدر بصاحبه إلى عاقبته المحتومة .
شارل : نعم . إنها تخال أنها تعلم خيراً مما يعلم الناس جميعاً .
جان : [تضيق نفساً . ولكنها في سذاجتها لا تدرك أثر ما تقوله
في الناس] ، ولكنني أعلم خيراً مما يتراءى لي أنكم تعلمون . إني
لا أنطق عن عُجْب . إني لا أنطق إلا أن أقول حقاً .
ذو اللحية الزرقاء وشارل : [يصيحان معاً] ها . ها . بالطبع !
بالطبع . !

المطران : وما أدراك أنه الحق ؟

جان : أنا دائماً أدري . إن أصواتي ...

شارل : أصواتك ، أصواتك ، دائماً أبدأ . لم لا تجيئني هذه
الأصوات ، وأنا لا أنت الملك ؟

جان : إنها تجيئك أيضاً ، ولكنك لا تسمعها . إنك
لا تجلس أبدأ في الحقول في الأمساء تسمع لها . وإذا دقت
الأجراس تُؤدّن بالصلاة فأنت تُصَلِّب على نفسك وتكتني .
أما لو أنك صليت من قلبك ، وأصغيت لجلجلة الأجراس بعد
سكونها ، لسمعتها كما أسمعها . [تُشيع عنه بغلظة] ولكن ما حاجتك
إلى أصوات تقول لك ما يستطيع الحدّاد أن يقوله : إضرب

والحديدية حامية؟ إني أقول لك لا بد من هجمة على كُنيين
Compiègne تَخْلُصُ بها لنا كما خَلَصَتْ أُرلين . عندها تفتَحُ
باريسُ لنا أبوابها ، فإن هي لم تُفْتَحْ مَرَقْنَا مَرُوق السهام فيها .
ما غناء تاج من غير عاصمة؟

لاهير : هذا رأي . وسنمرق من أبوابها مروق الرصاصة
الساخنة في رطل من زُبْدَة باردة . فاذا ترى يا ابن الفاعلة .

دنوا : لو كانت قنابلنا في سخونة رأسك ، وكان لدينا المدد
الوفير منها ، لم يبق موضع في الأرض إلا فتحناه . إن الشجاعة
والعنف خَصَّلتان جميلتان يخدمان الإنسان في الحرب ما مَلَكَهما ،
فإن هما تملكاه ضيِّعاه . ولقد ضيِّعانا وأوقعانا في يد الإنجليز كلما
ركنَّا إليهما . إن عيننا الأكبر هو أننا لا ندرك الهزيمة أبداً
إذا هُزِمنا .

جان : بل أتم لا تدركون النصر أبداً إذا ما انتصرتم ،
وهذا عيبٌ شرٌّ وأفضح . لكأني والله بكم ، وقد حَمَلْتُكم في
الحرب مرايا توَّكِّد لكم أن العدوَّ لم يَجْدَعْ بعدُ كلَّ أنوفكم .
إني لولا حملي إياكم على الهجوم لكنتم الآن لاتزالون محصورين
في أُرلين أتم ومجالس حربكم . احملوا يا قومُ دائماً ، وهاجوا
دائماً ، وصابروا العدوَّ فهو لاشك نافذٌ صبره . إنكم لا تعرفون

كيف تبدأون الواقعة ، ولا تحسنون ضرب المدافع . وأنا أعرف هذا وهذا .

[تقول هذا وتجلس ، متربّعةً على بلاط الأرض ، عبوسةً الوجه ممدودة الشفتين غضبي] .

دنوا : أعلمُ رأيك فينا ، يا جنرال جان .

جان : بل قل لهم ما رأيك في يا چاك .

دنوا : رأيتُ أن الله أمانك يا جان ، فلست بناسٍ كيف

تغيّرت الريح ، ولا كيف تغيّرت بكِ قلوبنا ، وبحقِّ إيماني لمن أنكر أنا إنما انتصرنا تحت لوائك . ولكني أقولها لك قولةً

جندیّ : إن الله ليس بالعبد المملوك لأى مخلوق ، رجلاً كان أو امرأة ، فنتظر منه الخدمة في كل آن . إن الذى يصنعه

الله لك أن ينتشلكِ أحياناً من بين برائن الموت إن كنتِ أهلاً لذلك . فإذا هو أقالك من عثرتك ، ووقفك على قدمك ،

تركك لنفسك ، وعندها يجب عليك القتال بكل ما فيك من حول وكل ما فيك من دهاء . واذكرى أن الله لا بدله أن يرعى

الأعداء كما يرعانا على السواء . وقد أقال الله عثرتنا ووقفنا على أرجلنا في أرلين . وقد جاءنا النصر فيها . والنصر إذا وقع لاتقطع

أسبابه وشيكا ، فبقوة النصر الأول كسبنا نصراً فنصراً في

ملاحم عدّة تناهت بتتويج الملك . فإذا نحن ركنا بمد ذلك إلى المجد الذي كسبنا ، واتكلنا على الله أن يصنع لنا ما يجب أن نصنعه لأنفسنا ، فقد حققت علينا الهزيمة جزاء وفاقاً .

جان : ولكن ...

دنوا : صدقنا لم أفرغ . فلا يظن أحدكم أن الذي كسب من نصر كسب من غير قيادة وإحسان إمرة . شارل أيها الملك ! إنك لم تُشر في خطبة التتويج إلى نصيبي من هذه الحروب ، ولا أشكو من هذا ، فالناس تجرى وراء الفتاة وما أتت من معجزات ، لا وراء ابن الفاعلة وما عانى لها في جمع الجيوش وإطعامهم . ولكنني أعلم بالدقة كم صنع الله لنا على يد الفتاة ، ولم ترك لي تحقق على يدي بفطنتي وحيلتي . إنني أُنذركم أن ساعة الكرامات فاتت ، وشمس المعجزات أفلتت ، وأن النصر لن يكون إلا لأكثر المتحاربين فطنة وأبرعها حيلة ، لو كان الحظ في جانبه .

جان : آه . لو . لو . لو . ما أكثر لوآتكم وما أقل غناءها [تهض بفتنة في عنف] إنني أقول لك يا ابن الفاعلة إنه لا نفع لفتك في الحرب ، لأن فرسانك ورجالك لا يُننون شيئاً في

الحرب الصادقة . فالحرب عندهم لعبة كالتنس وسائر اللُعب .
وهم يصنعون لها كالألعاب قواعد وقوانين ، فهذا يجوز وهذا
لا يجوز ، وهذا يحقّ ، وهذا يبطل . وهم يُهيلون الدروع على
أنفسهم ، وعلى خيولهم المسكينة ، ليتقوا بها السهام ، فإنهم وقعوا
تحت ثقلها عنّ عليهم القيام ، فيظلون مكانهم حتى يأتي سيدهم
يدفع الفدية عنهم للرجل الذي وكرّمهم فأطاحهم من فوق
سروجهم . ألا تدركون أن وقت هذا مضى وانتضى ؟ ما نفع
الدروع لقاء البارود ؟ وإن كانت تنفع ، فهل تحسبون أن رجالاً
يقاتلون عن فرنسا ، ويحاربون في سبيل الله ، يكفون عن القتال
ورحى الحرب قائمةً ليساوموا في الفداء . فهكذا يصنع النصف
من رجالكم ، ومن هذا يرتزقون . لا . لا ، إن الواجب أن
يُحاربوا ليغلبوا ، وإن هم دخلوا الميدان دخلوه بعد أن يخرجوا
مثل عن أرواحهم في سبيل الله . إن عامة الناس وطغاهم يفقهون
هذا . إنهم فقراء لا يستطيعون شراء الدروع ولا يُطيقون دفع
الفدى ، ولكنهم يتبعونني ، عرايا أو يكادون ، في خندق الماء ،
فإلى السلم ، وإلى الحائط ، فمن فوقه . عندهم : حياتي أو حياتك
يا عدو الله ، والله ينصر الحق من بعد ذلك . هز رأسك ما شئت
يا جاك . وأنت يا ذا اللحية الزرقاء اقتل لحيتك لِحية الجدى

ما حَلَّ لك ، وتطاول بأنفك عنى توقِّحًا ما بدالك ، ولكن
تذكروا جميعًا يوم أردتُ أن أحمل على الإنجليز في أرلين ،
فرفضتُ فرسانكم وقوادكم أن يتبعوني ، فعندما غلقتُ الأبواب
دونى لتمنوني ، كان الذى اتبعنى أهل المدينة وطعام العامة ،
فهجموا على الحصون وكبسوا الأبواب فَوَلَّجوها ، فعلموكم كيف
يكون القتال .

ذو اللحية الزرقاء : [وقد أسى] أما كفاك أن تكونى البابا
يا جان ، فتريدن أن تكونى قيصر والإسكندر أيضًا .
المطران : إن المعجب بنفسه لا يأمن الزلل يا جان . وفى
المعجب التردى .

جان : لا تحتفل بالذى بي ، مُجِبًّا كان أو غير مُجِب ، ولكن
قل لى أحقُّ ما أقول ؟ أمنطقُ بسبب كمنطق الخلق ما أحكى ؟
لاهير : نعم إنه الحق . إن نصفنا يخشى أن يجذع أنفه الجميل ،
والنصف الآخر همُّه الفدى ليفكَّ الرهون وما عليه من ديون .
خلها تفعل ما تريد يا دنوا . إنها لا تعلم كل شىء ، ولكنها
فى هذا الأمر تعرف ما تأخذ منه وما تدع . إن القتال اليوم
غيره بالأمس ، وقد يكون أقل الناس به علماء أكثرهم
فيه إحسانًا .

دنوا : أنا أعلم كل هذا ، ولست أقاتل على الأسلوب القديم .
لقد تعلمتُ من درسي في أجنكور Agincourt وفي پواتيه
Poitiers وفي كريسى Crecy . فكل حركة آتيا أقدر لها عدد
الأنفس التى تضيع فيها ، فإن كان الثمن عدلاً لها دفعته فيها . أما
چان فلا تقدر لحركاتها أبداً ، وإنما تسير قُدماً وتمتد على الله
كأن الله شىء في جيبها ، فهو لا يستطيع الخروج على أمرها .
وإلى الآن كان المدد العديدي إلى جانبها فرجحت القتال . ولكنى
أعرف چان ، وأتوقع أنها ستسير يوماً إلى القتال في عشرة رجال
لتقوم بما يقوم به المائة ، وعندها ستعلم أن الله قد فارقه إلى حيث
توجد الفرقُ الكبيرة ، والأعداد الكثيرة ، وعندها تقع في
الأسر ، يأسرها رجلٌ مُبختٌ محظوظ يتقاضى على فعلته ستة عشر
ألفاً من الجنيهات يدفعها إياه الإرل وِرِك Warick .

چان : [يداخلها العُجب والسرور] ستة عشر ألفاً ! أعرضوا

كلّ هذه الآلاف لأسرى ؟ فى الدنيا كلُّ هذا المال ؟

دنوا : نعم ، فى إنجلترا . والآن حدثونى جيماً : من منكم
يرفع عند ذاك إصبعاً لخلاص چان من الإنجليز إذا هم أسروها ؟
وقبل أن تجيبوا دعونى أجيكم نياةً عن الجيش . فى اليوم الذى
فيه يُمسك بها ويشدها عن جوادها انجليزى أو برجندى ثم

لا يُصَعَقُ صَعَقًا ، في اليوم الذي تُلْقَى فيه في غيابة الجبِّ فلا
يبحث لها بطرس الرسول مَلَكًا يفتح لها أبوابه ويطيّر من ألبسه
وقضبانه بِمَسَّةٍ من يده ، في اليوم الذي يتبين فيه للعدو أنها كمثل
تماما تُغلب وتقهّر ، في هذا اليوم لن تساوى حياتها لدى الجيش
حياة جندي واحد ، ولن أخاطر لخلاصها بحياة هذا الجندي الواحد ،
برغم ما بي من ضنٍّ بصحبتها وإعزازٍ لِمآلتها في القتال .

جان : إني لا أؤمك على ما تقول يا جاك ، فأنت إنما تقول
الحق . نعم لن تعدل حياتي حياة جندي واحد إذا خذني الله .
ولكن عندها قد تراني بلادي جديرةً بالفداء بعد الذي صنعه الله
لها على يدي .

شارل : اعلمي أنه لا مال عندي ، فهذا التتويج الذي جَنَيْتِ
به علىّ قد بذلتُ فيه آخر درهم أمكنتني اقتراضه .

جان : إن الكنيسة أغنى منك ، فعلى الكنيسة اعتمادى .
المطران : أيتها المرأة : إنهم عندها يسحبونك في الطرقات
ثم يحرقونك حرق الساحرات .

جان : [تجرى إليه] أى مولاى ، لا تقل هذا . إن هذا
محال . أنا ساحرة ؟

المطران : إن بطرس كوشون قديرٌ في صناعته ، جديرٌ

بوظيفته . لقد قالت امرأة إنك أحسنت فيما أتيت ، وإنك أطعت مشيئة الله في الذي فعلت ، فأحرقتها جامعة باريس بما قالت .
جان : [مرتبكة متحيرة] ولكن لمَ هذا ؟ وكيف يُعقل هذا ؟
إن ما فعلت كان بمشيئة الله ، فكيف يحرقون امرأة تقول الحق ؟
المطران : إنهم أحرقوها .

جان : ولكنك تعلم أنها قالت حقا ، فأنت لن تدعهم يحرقوني .
المطران : كيف السبيل إلى منعمهم ؟

جان : تتكلم باسم الكنيسة ، فأنت عينٌ جليل من أعيانها .
فإن أنت حميتني وباركتني فلن ينالني في الدنيا أذى أينما ذهبت .
المطران : لا أبارك لك وأنت على عُجبيك وعصيانك .

جان : أوآه ! لماذا تظلّ تؤلّني بهذا القول . أنا لست مُعجبةً بنفسى ، ولست عاصية . أنا بنت فقيرة جاهلة ، لا أعرف الألف من الباء ، فكيف أكون بنفسى مُعجبة . وكيف تقول إنى عاصية ، وأنا دائما أطيع ما أسمع من أصواتي لأنها تجي من الله .
المطران : إن صوت الله في الأرض هو صوت الكنيسة ، أمّا ما تسمعين من أصوات فهي أصوات لفكرك وعنادك .
جان : هذا غير صحيح .

المطران : [بحمر غضبا] تقولين لمطران كتدراثة إنه يكذب

ثم تقولين بعد ذلك إنك غير مُعجبةٍ ولا عاصية .

جان : أنا لم أقل أبداً إنك كذبت ، بل أنت الذى قلت ما يكاد يكون معناه أن أصواتى كذبت . فتى كذبتُ أصواتى ؟ وإن أنت لم تؤمن بها ، وحتى إن هى لم تكن إلاّ أصداء لفكرى البسيط ومنطق الساذج ، فهل هى أخطأت يوماً ؟ ونصائحكم ، ومآتها من الأرض ، هل هى أصابت يوماً ؟

المطران : [فى غضب] مضيعةٌ للوقت إنذارك وتحذيرك ! شارل : إنها تدور ، ثم تعود دائماً إلى الشيء الواحد : أنها دائماً مصيبةٌ وغيرها مخطىء .

المطران : أنصتى إلى هذا ، فهو آخر التذُّر . إنك إن حقاً عليك الهلاك لاستمساكك بآراء نفسك دون آراء أوليائك الروحانيين ، فسوف تتبرأ منك الكنيسة ، وسوف تدعك لما يجره عليك كبرياؤك وادعاؤك من بلاء . وقد قال لك ابن الفاعلة إنك إن ألححت فاستمسكت فى القتال بآراء يُملها عليك المرور دون آراء نصحاءك ورؤسائك فى الجيش ...

دنوا : [يتدخل] بل دعنى أعبّر أنا عن مرادى بالدقة . إنك

يا جان إن حاولت فكّ الحصار عن حامية كيين Compiègne .
يعدد من الرجال دون العدد الأوفر الذى كان معك فى أرلين ...

المطران : إذن لتبراً منك الجيش ولقعد عن خلاصك .
وقد قال لك جلالة الملك أن ليس لديه المال لفدائك .

شارل : ولا قرش واحد .

المطران : فأنت الآن وحدك ، فلا نصير ولا معين . أنت
في الدنيا في وحدةٍ مُوحشة ، أوحذك ارتكانك إلى غرورك ،
وإلى جهلك ، وإلى غطرستك وعنادك ، وأنتك سترت كل هذه
الخطايا بستار التقوى في الله فزدت بذلك ببدأً عن تقوى الله .
إنك ستخرجين الآن من هذه الأبواب إلى ضوء الشمس ،
وعندها تتلاقك الجماهير الحاشدة بالهتافات الصارخة . وسيأتونك
بالرضى منهم والأطفال لتشفيفهم ولتباركهم . وسيقبل السذجُ
المساكين يديك ورجليك ، ويفعلون كل ما يطيقون ليزيدوا
رأسك اختلالاً ، ويملاؤا نفسك ثقةً هي جائحةٌ بك لا محالة .
فتذكرى ، وأنت في وسط هذه الجماهير ، أنتك وحيدةٌ
كوحدتك هنا . فهذا الجمّ الغمرُ من الناس لا يستطيع لك
الخلاص . نحن ، لا غيرنا ، نستطيع لك الخلاص . نحن لا غيرنا ،
نقدر أن نحول بينك وبين هذا الجذع الذي أقامه أمادوك
لامرأة باريس المسكينة ، وإليه شدوها ، ثم أحرقوها .

جان : [ترفع بصرها مشيرةً إلى السماء] إلى هنالك أصدقاء ، ولـ
هنالك أولياء نصحاء خيرٌ منكم يا هؤلاء .

المطران : عبثاً أتحدث إلى قلب مُغلق وأذن صمّاء . إنك
ترفضين حمايتنا ، وتعملين جاهدةً على كسب خصومتنا ، فنـ
الآن فادفعي أنت بنفسك عن نفسك ، فإن أخفتِ فليكن
رحمة الله .

دنوا : إن الحق ما قيل يا جان فاتبعيه .

جان : لو أنى اتبعت مثل هذا الحق بالأمس ، فألى أى حال
كنتم تصيرون . إنكم لا عونَ فيكم ولا نصيحة . نعم أنا في هذه
الدنيا وحيدةٌ . وقد كنت فيها أبداً وحيدة . تركتُ أبى لاسيف
بلادى ، فطلب إلى إخوتى أن يُغرقونى فى البحر إذا لم أطعمه
فأرعى غنمه ، بينا فرنسا تجرى دماؤها على الأرض سفحاً . وما
ضرّه أن تجرى دماها ، إذا عاشت خرافه ناعمةً فى مهتوك حماها .
وحسبتُ أنى أرى نُصراءَ خالصاء لبلادى فى بلاط ملكها ،
فلم أجد إلا ذئاباً يتنازعون على قطعٍ من أشلاء وطنٍ ممزق .
وحسبت أن لله أحباباً فى كل مكان ، لأن الله محبٌ لكل إنسان .
واعتقدت فى سذاجتى أنى سأجد فيكم قلاعاً رواسخ تدفع الأذى
عنى ، فإذا بى أجدكم تخلمونى خلع النعال البالية . ولكنى الآن

عقد تكشفت لي حقيقتكم فمرقتها عيانا ، ورأيت الحق في أمركم
عربانا ، ولن يكسب أحد من معرفة الحق خسرا نأ . وتهددوني
بوحدي ، وما بي والله ذعرت منها . إن فرنسا وحيدة . وإن ربي
لوحيد . فما وحدتي إلى جانب وحدة قومي ووحدة الله ربي . لقد
تعلمت الآن أن وحدة الله هي سر قوته . ألا ما كان حال الله
لو أنه أصنى لنصائح منكم حقيرة ، تصدر عن قلوب مريضة
غيورة . قوة الله في وحدته ، وكذلك قوتي ستكون في وحدتي
بجوار الله ، فلن تخونني صداقته ، ولن تُغوزني محبته ، ولن تخذلني
نصيحته . وسأستمد مدداً من مدده ، فأقتحم المهالك ، وأركب
الأخطار حتى أموت . والآن أخرج إلى الشعب ، إلى عامة
الناس ودهمائهم ، فلعل الحب الذي أجده في عيونهم يفرج عني
كربة البغضاء التي أجدها في عيونكم . إنكم ستفرحون جميعاً
لحرقى ، ولكني إن سرت إلى النار ، فإنما أسير عبرها إلى الخلود
في قلوب الناس ، ففي هذه القلوب سأحيي أباد الآباد . والآن
تداركني بلطفك يا رحمن .

[تخرج عنهم ، فيمعنون النظر وراءها برهة في سكون كثيب ، ثم يأخذ
ذو اللحية الزرقاء في قتل لحيته] .

ذو اللحية الزرقاء : إن المرأة لا تطاق . أنا في الواقع

لا أبفضها ، ولكن ما الحيلة في هذا الطبع الغريب ؟
دعوا : أشهدُ الله لو أنها سقطت في اللّوار لقفزت وراءها
في كامل سلاحى أتقذها من الماء ، ولكنها إن فعلت في
كُميين قَعلة المجانين ، فأخذها العدو ، فإني لتاركها للأقدار تفعل
بها ما تشاء .

لاهير : إذن ققيدوني إن أردتم أن تمنعوني ، فإني أحسنّ أنى
تابِعُها ، ولو إلى جهنم ، كلما سمعتها تتحدث بهذه القوة وهذه
الحرارة .

المطران : إنها كذلك تمكّر على بصيرتى وتزعزع حكى .
إنها تنفجر انفجارات قوية تحمل الخطر في قوتها . إن الحفرة
فاغرةٌ فاها عند قدمها ، وستردى فيها ، ولن نستطيع منها .
ولسنا ندرى الخَيْرِ هذا أم لِشَرِّ يكون ؟

شارل : لو أنها حبست لسانها أو قبعت في بيتها !

[يخرجون وراءها مغمومين كئيبين]

المنظر السادس

[في مدينة رُوَان Rouen ، في الثلاثين من مايو عام ١٩٣١ . ردهة كبرى من الحَجَرِ في القلعة ، وقد رُتِّبَتْ لِحَاكَةِ فِي مَحْكَمَةِ بغير مُحَلِّفِينَ ، فالمحكمة محكمة الأسقف يشترك فيها ديوان التحقيق Inquisition : لهذا وُضِعَ فِي الْمَكَانِ كَرْسِيَانِ وَرُفْعًا عَلَى مَنَصَّةٍ جَنِبًا إِلَى جَنبٍ ، أَحَدُهُمَا لِلْأَسْقَفِ وَالْآخَرُ لِلْمَحْقُوقِ الْمُنْدُوبِ الْدِيَوَانِ ، وَهُمَا الْقَاضِيَانِ فِي هَذِهِ الْمَحَاكِمَةِ . وَوُضِعَ عَلَى جَانِبَيْهِمَا طَائِقَتَانِ مِنَ الْكِرَاسِيِّ ، صُنِّتَ عَلَى خُطُوطِ تَشَعٍّ مِنْ سِرْكَزِ الْقَاضِيَيْنِ بِمِحِثٍ تَصْنَعُ يَمْنَى الطَائِقَتَيْنِ مَعَ يَسْرَاهَا زَاوِيَةٌ مَنفَرَجَةٌ . فَهَذِهِ الْكِرَاسِيُّ الْقِسَاسُ وَدَكَاتِرَةُ الْقَانُونِ وَاللَاهُوتِ وَالرَّهْبَانِ الدُومِينِيكِيِّينَ Dominican Monks ، وَهُؤُلَاءِ جَمِيعًا خِبْرَاءٌ يَنْصَحُونَ الْمَحْكَمَةَ كُلَّهَا فِي اخْتِصَاصِهِ . وَفِي قَلْبِ الزَاوِيَةِ الْمَنفَرَجَةِ مَنضَدَةٌ لِلْكِتَابِ وَمَقَاعِدٌ لَمْ يَغِيرِ ذَاتَ ظَهْوَرٍ . وَكَذَلِكَ كَرْسِيٌّ غَيْرُ ذِي ظَهْرٍ مَصْنُوعٌ مِنْ خَشَبٍ خَشِينِ الْمَظْهَرِ ثَقِيلٍ ، فَهَذَا لِلسُّمَّةِ . وَكُلُّ هَذَا فِي الطَّرْفِ الْدَاخِلِيِّ مِنَ الرَّدْهَةِ . أَمَّا الطَّرْفُ الْخَارِجِيُّ مِنْهَا فَيَنْفَتِحُ عَلَى سَحْنِ الْقَلْعَةِ بِصَفٍّ مِنْ حَنِيَّاتٍ . وَالْمَحْكَمَةُ مَحْفُوظَةٌ مِنْ تَقْلِبَاتِ الْجَوِّ بِمُحْجَبٍ وَسِتَارٍ] .

[وَالنَّاظِرُ إِلَى الرَّدْهَةِ مِنْ أَوْسَطِ طَرَفِهَا الْدَاخِلِيِّ يَجِدُ كِرَاسِيَّ الْقَضَاءِ وَالْكِتَابِ إِلَى يَمِينِهِ ، وَكِرْسِيَّ السُّمَّةِ إِلَى يَسَارِهِ . وَيَجِدُ إِلَى يَمِينِهِ وَيَسَارِهِ أَبْوَابًا مَعْطُوفَةً الْأَعْلَى] .

[هذا عن المكان . أما عن الزمان فالوقت صباحٌ ضاحٍ من
أصبح مايو] .
[يدخل ورك Warwick ، يتبعه وصيفه ، من الباب المعطوفٍ أعلاه
بجوار مِنصَّة القضاء] .

الوصيف : [في قِحة] أظنك يا صاحب السعادة تدرك أنه
لا وجه لنا في البقاء هنا ، فهذه المحكمة محكمة إكليرية ، أما
نحن فقوة التنفيذ المدنية .

وَرِك : أنا مدرك ذلك ، فهل تفضل يا صاحب الوقاحة
فتبحث لى عن أسقف بوفيه ، وتُفهمه بالتلميح أنه إن شاء استطاع
أن يتحدث إلّى هنا قبل أن تبدأ المحاكمة .

الوصيف : [وهو ذاهب] نعم يا مولاي اللورد .

وَرِك : وانظر ما أنت صانع ، فلا تناده بصاحب القداسة
ولا ربّ الثَّقَى .

الوصيف : لا يا مولاي اللورد . ولكنى سأتلطف به وأرعاه ،
فربُّ الثَّقَى والقداسة سيأكل مِلءٍ فيه من الفلفل الحَرِّاق عندما
تدخل الفتاة إلى المحكمة .

[يدخل كوشون من نفس الباب الذى دخل منه ورك ، ومعه
راهب دومينيكي ، وكاهن يحمل أوراق القضية] .

الوصيف : صاحب النيافة الأكبر مولاي أسقف بوفيه ،
واثنان آخران من أصحاب النيافة .

وَرَك : اخرج واخفر الباب فلن يدخل علينا أحد فيقطع
علينا ما نحن فيه .

الوصيف : نعم يا مولاي [يخرج خفيفاً مرحاً] .

كوشون : نَعِمْتَ صباحاً يا مولاي .

وَرَك : ونعمت صباحاً يا مولاي . هل سبق أني حَظِيتُ
بلقاء إخوانك من قبل ؟ لأأظن ذلك .

كوشون : [يُعرفه بالراهب ، وهو على يمينه] هذا يا مولاي
الأخ جون لامِتر John Lamaitre ، من الدومينيكيين ، وهو
ينوب عن المحقق الأعظم في أمور البدع وشروطها بفرنسا . وهذا
هو إرل وَرَك يا أخي جون .

ورك : نياقتكم على الرجب والسعة . في إنجلترا بلادنا
لا يوجد عندنا مع الأسف محقق كما يوجد لديكم ، وكثيراً ما نفتقده ،
لا سيما في ملابس كهذه .

[يبتسم المحقق في بطاء وهدوء وينحن احتراماً . وهو رجل مسنّ ،
ولكن به بقية ظاهرة من السلطة والصلابة] .

كوشون : [يُعرف بالراهب وهو على يساره] وهذا السيد هو

الكاهن جون دستيفيه Canon John D'estivet ، عضو مجلس
أسقفية بايُو Bayeux ، وهو قائم فينا بممل المدعى .

ورك : المدعى ؟

كوشون : نعم . هو النائب على ما تسمونه في القانون المدني .

ورك : أى نعم . نائب . نائب . لى السرور الكثير بالترف

بك يا كاهن دستيفيه .

[دستيفيه ينحنى له . وهو رجل يتجه بسنه إلى ذروة الكهولة ،

لطيف الأدب ، ولكن من تحت ديباجته الناعمة مكر الثعالب] .

ورك : هل لى أن أتساءل إلى أى حد بلغت الإجراءات ؟

إنه قد مضى الآن تسعة أشهر منذ أسر البرجنديون الفتاة في

كُمين ، ومضى أربعة أشهر كاملة منذ ابتعتها منهم بمبلغ جم

من المال ، لا لغرض سوى أن يقضى فيها العذل ما يقضى .

ومضى ما يقرب من ثلاثة أشهر من يوم أن أسلمتها إليك ياسيدى

الأسقف إسلام امرأة متهمّة بالزندقة . فهل لى أن أعرض عليكم

فكرة لى خاطرة : إنكم تفضون زمناً طويلاً غير معقول فى

تلتس الحكم فى قضية يسيرة واضحة ؟ أما لهذه المحاكمة من آخر ؟

قاضى التحقيق : [مبتسماً] إنها لم تبدأ بعد أيها اللورد .

ورك : لم تبدأ بعد ! كيف ، وأنتم تعملون فيها من أحد عشر أسبوعاً ؟

كوشون : لقد واصلنا العمل فيها أيها اللورد فمقدنا للتحقيق مع الفتاة خمس عشرة جلسة : ستاً منها علنية ، وتسماً سرية .

قاضي التحقيق : [وهو مُصابٌ مبتسم دائماً] اعلم يا مولاي أني لم أحضر غير جلستين من هذه الجلسات . فهي جلسات كانت من إجراءات محكمة الأسقف لا ديوان التحقيق . وقد قضيتُ قريباً فقط بضرورة تدخلي فيها ، أي تدخل ديوان التحقيق فيها جنباً إلى جنب مع محكمة الأسقف . ذلك أني في بادئ الأمر لم أكن أحسب أن القضية قضيةُ زندقة أبداً ، بل عدتها قضيةً سياسية ، واعتبرتُ الفتاة أسيرة حرب . ولكن بعد حضوري جلستين من جلسات التحقيق لم يُمدد بدّي من اعترافي بأنها قضيةٌ من أخطر قضايا الزندقة التي عرفتها في حياتي . والسبيل الآن ممهدةٌ كل التمهيد ، وسنبداً بالمحاكمة هذا الصباح [يسير آخذاً ستمته نحو منصة القضاء] .

كوشون : نعم في هذه اللحظة إذا لم يكن لديك مانع أيها اللورد ..

ورك : [في لطف] هذه أخبار طيبة ياسيداي . ولكنى لن
أحاول أن أخفى عنكم أن قوس الصبر لدينا كاد ينقطع .
كوشون : لقد عرفتُ هذا عندما سمعتُ جنودكم يتهذدون
بالإغراق كلِّ من يعطف على الفتاة من أهل بلادنا .
ورك : يا للخبر ! أهبذا القدر يتهذونهم ! وعلى كل حال
فهم لا يضررون لك أنت إلا الود يا مولاي .

كوشون : [في شدة] أرجو أن لا يضرروا لى ودا ، فإنى
عازم أن أقضى بالعدل فى أمر هذه الفتاة . إن عدل الكنيسة
لا سخرية فيه يا مولاي .

المحقق : [وهو يعوذ] لا أذكر يا مولاي أن تحقيقا أعدل من
هذا وقع فى حياتى . إن الفتاة فى غناء عن محامين يداقمون عنها ،
فالذين يحاكونها أخلص الناس صداقة لها ، وهم جميعا يرجون
أحرّ الرجاء أن تنجو بروحها من هلاك مقيم .

دستيقه : سيدى ، إنى أنا المدعى ، فكان من واجباتى
الألمية أن أقوم بمرض الدعوى ضد الفتاة ، ولكن صدقنى لقد
والله وددتُ أن ألقى بالتهمة جانبا وأهرع إلى جانب الفتاة أرفع
عنها وأحميها ، لولا علمى أن رجالا أكثر منى علما وأرفع درجات
فى التيق والفصاحة والإغراء قد ذهبوا إليها يحاجونها ، ويجادلونها ،

وَبصَّرُونَهَا بِالخطرِ الَّذِي هِيَ مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِ ، وَبِالطَّرِيقِ السَّهْلَةِ الَّتِي تَسْلُكُهَا لِاجْتِنَابِهِ [يَنْفَجِرُ بَقْتَةً فِي فَصَاحَةٍ خَطَائِيَّةٍ يَسْتَأْ مِنْهَا كُوشُونَ وَالْحَقُّ أَشَدُّ اسْتِیَاءً ، وَكَأَنَّا قَدْ بَقِيَآ إِلَى عِنْدُنَا يُنْصَتَانِ إِلَى مَا يَقُولُ فِي مَوَاقِعِ رِضِيَّةٍ وَرِعَايَةِ أُبُويَّةِ] . لَقَدْ تَجَرَّأَ قَوْمٌ فَقَالُوا إِنَّا نُصَدِّرُ فِيهَا نَعْمَلُ عَنِ كِرَاهَةِ وَبُقُضَ . وَلَكِنَّ اللَّهَ شَهِدَ لَهُمْ لِكَاذِبُونَ . فَلْيَسْأَلُوا أَنْفُسَهُمْ : أَعَدَّ بِنَاهَا ؟ كَلَّا . وَلْيَسْأَلُوا أَنْفُسَهُمْ : هَلْ انْقَطَعْنَا أَوَّلًا عَنْ أَنْ تَرَجَّاهَا وَتَمَطَّفَهَا وَتَتَوَسَّلَ إِلَيْهَا أَنْ تَأْخُذَهَا الرَّحْمَةُ بِنَفْسِهَا فَتَعُودَ إِلَى كَنْفِ الْكَنِيسَةِ عَوْدَةَ فَتَاةٍ ضَالَّةٍ إِلَى كَنْفِ أُمِّ تَحْبِهَا ؟ هَلْ نَحْنُ ...

كُوشُونَ : [يَقَاطِعُهُ فِي جِنَاءٍ] تَبصَّرَ أَيُّهَا الْكَاهِنُ فِي الَّذِي تَقُولُ . إِنْ مَا تَقُولُ حَقُّ كُلُّهُ ، وَلَكِنَّكَ إِنْ أَنْتِ نَجَحْتَ فَأَقْنَعْتِ اللُّورْدَةَ ، فَلَسْتُ بِضَامِنٍ لِكَ الْحَيَاةِ ، وَلَا لِنَفْسِي .

وَرُكْ : [يُخَالِفُ كُوشُونَ فِيمَا يَخْشَى ، وَلَكِنَّهُ أَبْعَدُ مَا يَكُونُ عَنِ إِتْكَارِهِ] مَهْلًا ، مَهْلًا ، يَامُولَايَ . إِنْكُمْ قَسَاةٌ جَدًّا عَلَيْنَا نَحْنُ الْإِنْجِلِيزِيُّونَ الْمَسَاكِينُ . وَمَعَ هَذَا فَلَا شَكَّ أَنَّ لَنَا نِشَارَ كُلِّكُمْ رَغْبَتِكُمْ فِي تَخْلِيسِ الْفَتَاةِ ، وَهِيَ رَغْبَةٌ لَا شَكَّ مَصْدَرُهَا الْوَرَعُ وَالتَّقْوَى . بَلْ أَزِيدُ فَأَقُولُ لَكَ قَوْلًا وَاضِحًا قَاطِعًا إِنْ مَوْتَهَا ضَرُورَةٌ سِيَاسِيَّةٌ

آسَفُ لَهَا ، وَلَكِنِّي لَا أَجِدُ مَدْوَحَةَ عِنهَا . فَإِذَا أُطْلِقَتِ
الْكَنِيسَةُ سَرَاخَهَا ..

كوشون : [يخرج عن طوقه فيتهدّد في شراسة وزهو] إذا
أطلقتِ الكَنِيسَةُ سَرَاخَهَا ، فالويل كل الويل لمن يضع عليها
إصبعاً ، ولو كان الإمبراطورُ نفسه ربَّ هذا الإصبع . إن الكَنِيسَةَ
أيها اللورد لا تخضع للضرورات السياسية .

المحقق : [يتدخل بينهما في نعومة] لا يقلق بالك على النتيجة
أيها اللورد ، فإن لك في هذا الأمر حليفاً لا يُغلب ، يُصرّ على أن
تخرق الفتاة أشدّ من إصرارك .

ورك : هذا حليف نحن في شديد الحاجة إليه ، فمن يكون ؟
المحقق : الفتاة نفسها ، فإنك إن لم تسدّ فيها بقطنة ،
فستفتحها ، وكلّ مرّة تفتحها تُثبت التهمة على نفسها عشرات
المرّات .

دستيقه : هذا حق أيها اللورد . إن شعري يستقيم على
رأسي كلما سمعتُ فتاةً في هذا السن تنطق بكل هذا الكفر .

ورك : على كل حال قوموا لها بكل ما تستطيعون من معونة
مادتم توقنون أنها غير نافعة [يحدّد النظر في كوشون] إني ليُروني
الأسفُ إذا أنا اضطرّرت إلى العمل بغير رضا الكَنِيسَةَ .

كوشون : [يخلط ، في تهكم ، بين إعجاب باللورد واحتقاره له]
أقعد هذا يقولون إن الإنجليز منافقون ؟ إنك أيها اللورد تعمل
لحزبك حتى بما فيه هلاك نفسك . فأنا أمام هذا الإخلاص
لا أملك إلا الإعجاب . ولو أنى أنا لا أستطيع أن أذهب بنفسى
إلى الحد الذى ذهبت إليه ، فإنى أخاف عليها اللعنة .

ورك : إننا إن خفنا شيئاً لم نستطع أن نحكم إنجلترا يا مولاي .
والآن هل آذن لأهل بلدك أن يدخلوا إليك .

كوشون : نعم . تحسن صنعا أن تخرج لتستطيع المحكمة
أن تمنقده .

[يدور ورك على عقبه ويخرج عن طريق الصحن ، ويأخذ كوشون
مجلسه على أحد كرسيّ القضاء ، ويجلس دستيقيه إلى منضدة الكتاب
يفحص ملخص الدعوى] .

كوشون : [يقول عفواً وهو يتطامن فى مجلسه] هؤلاء الأشراف
من الإنجليز أوغاد أى أوغاد .

المحقق : [وهو يأخذ مجلسه على كرسيّ القضاء الثانى ، إلى يسار
كوشون] إن السلطة الزمنية تحمل من الرجال أوغاداً . فهم غير
متدرّبين على واجباتهم ، وهم لم ينحدروا عن الحواريين فليس فيهم
تراثهم ، وأشرافنا لا يقلّون عن أشرافهم سوءاً .

[يسرع خبراء الأسقف بالدخول إلى الردهة ، وعلى رأسهم القس
دي استوجمبر De Stogumber ، والراهب دي كورسل ، وهو قسيس
شاب في الثلاثين من عمره . ويجلس الكتّاب إلى المنضدة ، ويتركون
كرسيا خاليا في قبالة دسيفيه D'Estivet . ويجلس بعض الخبراء ،
ويظل بعضهم واقفين يتحدثون ينتظرون افتتاح الجلسة افتتاحا رسميا .
ويظهر الغضب والعناد على القس دي استوجمبر ، فهو من أجل هذا لا يأخذ
مجلسه . وكذلك الراهب لا يريد أن يجلس فيقف إلى يمينه] .

كوشون : صباح الخير ياسيد دي استوجمبر [يخاطب المحقق]
هذا قسيس كردنال مجلّتا .

القس : [يصحح ما قيل] كردنال ونشستر يا مولاي . إن
الذي احتجاجاً أريد أن أتقدم به يا مولاي .

كوشون : لقد تقدمت بالكثير من أمثاله .

القس : أنا في احتجاجي لي زميل يا مولاي . هذا السيد
دي كورسل يشركني في احتجاجي .

كوشون : على كل حال ماذا عندك ؟

القس : [معبّساً] تكلم أنت ياسيد دي كورسل ، إذ يلوح
لي أن نيافته لا يطعنني إلى قولي [يجلس في حلق إلى يمين كوشون] .

كورسل : مولاي ، لقد جهدنا جهداً كبيراً فاستخلصنا

أربماً وستين خطيئة يدور عليها اتهام الفتاة . والآن علمنا أنها خفّضت من دون استشارتنا .

المحقق : يا سيد كورسل ، أنا الذي خفّضتها . وإني لمجّيب أشدّ الإعجاب بغيرتك التي أظهرتها في استخلاصك لهذه الخطايا الأربع والستين . ولكن في اتهام الزنادقة ، كما في أى أمر من أمور الحياة الأخرى ، يوجد حدّ للكفاية من كل شيء . وعدا هذا فمليك أن تذكر أن أعضاء المحكمة ليس لهم جميعاً مثل ذكائك ودهائك وتبجرك ، وأن بعض ما تُظهر أنت من علم عظيم جداً قد يترامى لهم سخافة عظيمة جداً . فن أجل هذا رأيت أن أخفّض التُّهم الأربع والستين إلى اثنتى عشرة .

كورسل : [يُصق] اثنتى عشرة !!!

المحقق : صدّقنى إن فى الاثنتى عشرة كفايةً لما تريد .

القس : ولكن بعض التُّهم الخطيرة قد اختُصرت حتى انعدمت أو كادت . مثال هذا أن الفتاة اعترفت فعلاً بأن القديستين المباركتين مرغريت وكثيرينة ، وكذلك الملك الأعظم ميكائيل ، كلّموها بالفرنسية . وهذا اعتراف له خطورته .

المحقق : لا شك أنك تحسب أن خطابهم إياها كان لا بد أن يكون باللاتينية ؟

كوشون : لا ، بل هو يرى أنه يجب أن يكون بالإنجليزية .
القس : بالطبع يا مولاي .

المحقق : ولكن بما أننا جميعاً على ما أظن متفقون على أن الأصوات التي تسمعها الفتاة ليست سوى أصوات لشياطين يُعرونها باللعنة ، فلن يكون من التأديب في حقك ، أو حق ملك الإنجليز ، أن نزع أن الإنجليزية لغة الشياطين . وعلى هذا فاصرف النظر عما قلت . وعلى كل حال فالسألة لم تُحذف كل الحذف من التهم الاثنتي عشرة . والآن ياسادة اجلسوا جميعاً لنفتح الأعمال .

[يجلس كل من لم يكن جلس] .

القس : على كل حال أنا أحتج وكفى .

كورسل : إنه لَيَصُعب علينا أن يذهب جهداً هباءً . إن هذا مثل جديد لما لهذه الفتاة على المحكمة من مؤثرات شيطانية [يجلس على كرسيه ، وهو على يمين القس] .

كوشون : أتزعم أني واقع تحت مؤثرات شيطانية ؟

كورسل : أنا لا أزعم شيئاً يا مولاي ، ولكن يظهر لي أن مؤامرة دُبِّرت لكتمان واقعة لا بد من إفشائها ، هي أن الفتاة سرقت حصان أسقف سنليس Senlis .

كوشون: [بجاهد في كظم غيظه] ليست هذه محكمة للشرطة .
وبعد ، أفي مثل هذه السخافات تُنْفَق أوقاتنا ؟
كورسل: [ينهض وقد هزه ماسمع] مولاي ، أتسمى حصان
الأسقف سخافة ؟

المحقق : [في لطف] ياسيد كورسل ، إن الفتاة تزعم أنها
دفعت في هذا الحصان ثمنًا طيبًا ، وأن هذا الثمن إذا لم يكن وصل
إلى الأسقف ، فالذنب ليس ذنبها . وبما أن هذا الزعم قد يكون
حقا في هذه التهمة ، فقد يجوز جدا تبرئة الفتاة منها .

كورسل : هذا حق إذا كان الحصان حصانا عاديا كبعض
الأحصنة . ولكن حصان الأسقف كيف يمكن تبرئتها فيه ؟
[يعود فيجلس ، وقد أذهله العجب وقت فيه اليأس] .

المحقق: أقول لك ، في احترام شديد ، إننا إذا تشبَّنا بمحاكمة
الفتاة في ذنوب توافه ، ثم اضطررنا إلى تبرئتها منها ، فتحنا لها
الباب إلى الإفلات من جريمة الزندقة الكبرى ، وهي على ما أرى
لا تزال تُقرَّ باجترامها . فإِن أَجَلُ هذا أسألك ، إذا أُخِضَت الفتاة
أمامنا ، أن لا تذكر شيئًا عن أحصنة سرقتها ، أو رقصه حول
شجرة للجنّ مع أطفال القرية رقصتها ، أو صلاحه على بئر
مسكونة صلّتها ، أو أن تذكر شيئًا من تلك الأشياء العسرات

التافهات التي بذلتَ فيها هذا المجهود الكبير في استنباطها قبل
حضورى . إن فرنسا كلها ليس فيها قرية لا تستطيع أن تُتهم
بناتها بمثل هذه التُّهم ، فكهنَّ يرقصن حول أشجار مسكونة ،
وكهنَّ يصلين عند آبار مسحورة ، ومنهنَّ من لا تتحرَّج من
سرقة حصان البابا لو وجدتْ إليه سبيلا . فالزندقةُ الزندقةُ ياسادتي .
هى التهمة التي نحاكم من أجلها . إن اكتشاف الزندقة والتطهير
منها عملٌ تَخَصَّصتْ له وتوفرت عليه ، وأنا بينكم أمثل ديوان
التحقيق ، فلستُ قاضياً عادياً . فتمسكوا بتهمة الزندقة ياسادة
وانصرفوا عما عداها .

كوشون : أودَّ أن أذكر أننا بعثنا إلى قرية الفتاة نستخبر
عنها ، وأنها لم نجد شيئاً خطيراً نكاد نأخذه عليها .

القس { [ينهضان] لم نجد شيئاً خطيراً يا مولاي !
وكورسل { ويصرخان معاً } فالشجرة المسحورة ليست . . .

كوشون : [يخرج عن صبره] السكوت ، السكوت ! وإنه
تكلمتما فواحدًا بعد واحد .

[يسقط كورسل فى كرسيه مرتاعاً] .

القس : [يجلس وهو عابس غضبان] هذا ما قالته لنا الفتاة يوم الجمعة الفائت .

كوشون : وَدِدْتُ يَا سِيدِي لَوْ عَمَلْتُمَا بِنَصِيحَتِهَا . إِنِّي عِنْدَمَا قَلْتُ أَمْرًا خَطِيرًا قَصِدْتُ أَمْرًا يَبْلُغُ حَدَّ الْخَطُورَةِ عِنْدَ قَوْمِ رِجَاجِ الْعُقُولِ ثِقَالِ الْأَحْلَامِ كَالَّذِينَ هُمْ أَهْلٌ لِلْقِيَامِ بِأَمْرِ مِثْلِ هَذِهِ الْمَحَاكِمَةِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا . إِنِّي أُوَافِقُ زَمِيلِي الْمُحَقِّقَ عَلَى أَنَّ الْمَحَاكِمَةَ يَجِبُ أَنْ تَجْرَى عَلَى تَهْمَةِ الزُّنْدُقَةِ وَحِدهَا .

لدفينو Ladvenu : [وهو شاب من الدومينيكيين مدًا التنسكُ في قوامه فكان جميلا . وكان جالسا بجانب كورسل إلى يمينه] . ولكن حدثوني ، أفي زندقة الفتاة ضرر كبير ؟ أليست زندقتها محض سذاجة منها ؟ إن القديسين قالوا قَدَّرَ مَا قَالَتْ جَان .

المحقق : [تذهب رفته ويتكلم في جدِّ ظاهر] أخى مرتان Martin ، لو أنك رأيتَ من الزندقة ما رأيتُه ، إذن لما استخففتَ بها ولو صدرتَ عن أصول هي أبعد ما تكون عن مظاهر السوء والريبة ، حتى ولو صدرتَ عن أصول حيية من التقوى والصلاح . إن الزندقة تظهر أوَّلَ مَا تَظْهَرُ فِي أَنْاسٍ يَتَرَاهُونَ فِي كُلِّ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِهِمْ خَيْرًا مِنْ جِيرَانِهِمْ : فِي فَتَاةٍ رَقِيقَةٍ صَالِحَةٍ ، أَوْ فِي فَتَى أَطَاعَ اللَّهَ فِيهَا أَوْصَاءَهُ ، فَنَجَّرَ لِفُقَرَاءٍ عَنِ كُلِّ

ماله ، ولبس رداء الفقر ، وعاش عيشة الزهد ، وأذلّ من نفسه ،
وسخا بما في يده . فهذه الفتاة أو الفتى قد يُحدّثنا بدعة ، إذا هي
لم تُدْمَغْ بلا رحمة في حينها هزّت أركان الكنيسة هزّاً ،
وقوّضت قواعد الإمبراطورية تقويضاً . إن سجلات ديوان
التحقيق مليئةٌ بِقِصَصٍ لا نجرؤ أن نحكيها للعالم ، لأنها فوق
تصديق كل رجل طيب وكل امرأة طاهرة . ومع هذا
فهذه القصص تبدأ أول ما تبدأ كلّها بقوم بلهاء ، فيهم طيبةٌ
وعليهم قداسة . لقد شاهدتُ هذا يقع المرة بعد المرة . أنصتوا
لما أقول واذكروه . إن المرأة التي لا ترضى عن لباس المرأة
فتلبس لباس الرجل مثل الرجل الذي يخلع رداء الفرو ليلبس
كما كان يلبس حنّ الممدان . كلاهما يجرّان وراءهما حتماً — كما يجرّ
النهارُ الليل — جماعاتٍ من نائرين وناثرات يرفضون أن يلبسوا
لباساً أصلاً . إن الفتيات إذا هنّ أُبين الزواج ورفضن أخذ
المهود المعروفة ، والفتيان إذا هم رفضوا الزواج وعمدوا إلى
شهواتهم فرقموها فصيّروها إلهامات ربّانية ، فقد بدأوا عهداً
يتبعه لامحالة — كما يتبع الصيفُ الربيع — عهدٌ تتمدد فيه الأزواج
والزوجات ، يتلوه عهدٌ تُستحلُّ فيه مضاجعة المحارم . إن الزندقة
تترامى في أولها بريئةً ، أو فوق ذلك محمودةً ، ولكنها تجرّ في

أعقابها أهوالاً فظيمة من خبايا تمجها الطبيعة . فلو أنكم رأيتم الزندقة كما رأيتموها تفعل في الناس أفاعيلها لقام أرحمكم قلباً يُنحى باللائمة على الكنيسة أنها تأخذ الزنادقة بمثل هذه الرحمة التي تأخذهم بها . إن ديوان التحقيق قضى قرنين يناهض صنوفاً من هذا الجنون الشيطاني . وقد تبين له أن هذا الجنون يبدو دائماً قوّم جهلاء مغرورون ، يعارضون بأرائهم آراء الكنيسة ، وينتحلون لأنفسهم تفسير مشيئة الله . على أني أحذركم أن تقعوا في الخطأ الذي يقع فيه الناس كثيراً ، فتحسبوا أن هؤلاء البلهاء كذابون منافقون . فهم يمتقدون صدقاً وإخلاصاً أن وحي شياطينهم وحي من الله . لذلك أسألكم أن تحذروا أن يقلب عليكم ما أودعه الله في قلوبكم من رحمة . نحن جميعاً قومٌ رُحماء ، أو هكذا أرجو أن نكون ، وإلا فكيف تأتّى لكم أن تخصصوا حياتكم لخدمة عيسى الخنون ؟ أيها السادة ، بعد هنيئة تقع عيونكم على بُنيّة صغيرة تقيّة عفيفة . نعم هي كذلك ، فالأشياء التي يتحدث بها أصدقاؤنا الإنجليز لا يدعّمها دليل ، بينما الأدلة كثيرة على أن غلوّها الذي غلّت فيه كان غلوّاً في الدين والمكرّمات لا في الدنيا والديتات . وهي ليست من الفتيات التي تدل خشونة تقاطيعهن على جهود قلوبهن . وليست من اللاتي تقضى عليهن

الصفافاة الظاهرة فى وجوههن والقحة البادية فى سلوكهن ،
قبل محاكمتهن . والمُجَب الذى بثه الشيطان فىها فانسأقت به إلى
الموقف الخطير الذى هى فىه لم ىترك أثرأ على محىأها . وقد
تستغربون إذا قلت لكم إنه لم ىترك أثرأ حتى على طباعها ، فىما
سوى الأمور الخاصة التى تُعجب بنفسها فىها . لذلك ستجدون
فىها عُجبا شيطانىا ، وتواضعا طبيعىا ، قد جلسا من نفسها مجلسا
سوىا . فألى هذا فتنهوا ، ومنه فاحذروا . ومعاذ الله أن أدعوكم
إلى تقسية قلوبكم ، فإن عقابها - إن نحن قضىنا علىها - عقاب
غاية فى القسوة ىفقدنا الأمل فى رحمة الله إن نحن قضىنا به وفى
قلوبنا ذرة من ضعفن علىها . إنكم تكرهون القسوة ، وإن كان
منكم رجل لا ىكرهها فأنا أمره بأن ىنجو بنفسه وىفر من لعنة
الله بترك هذه المحكمة المقدسة توا . ولكن إن أتم كرهتم القسوة
فاعلموا أن أفسى القساوات أعقابا تسامح فى زندقة . واذكروا
كذلك أن أفسى المحاكم على متهم محكمة النوغاء من الناس إذا
تجمهروا حول من ىظنونه زندقا . أما الزندق فى محكمة
التحقىق فى ما من من سخط العامة ، وهو ضامن محاكمة عادلة ،
وإذا قضى باتهامه فهو لا ىموت إذا هو تاب وأتاب من بمد ذلك .
كم من زندق نجا بىحاته لأن دىوان التحقىق انتشله من أىدى

العامّة . وكم من زنديق نجح بحياته لأن الناس أسلموه طواعيةً إلى ديوان التحقيق لينظر في أمره . وقبل إنشاء الديوان ، وحتى في هذه الأيام في المناطق البعيدة عن الديوان ، يشتهب المشتبهون في الرجل فيتهمونه بالزندقة ، وقد يكون اتهاماً ظالماً جاهلاً ، فيرجم المسكين بالحجر ، أو يُقطع إرباً ، أو يُقتل غرقاً ، أو يحرق في داره هو وأولاده حرقاً ، دون محاكمة ، ودون اعتراف يُظهر نفسه ، ثم هو لا يدفن بعد ذلك إلا كما تُدفن الكلاب ، وكل هذه أفعال لها من الله كراهةٌ شديدة ، وللإنسان منها قسوة متناهية . أيها السادة ، إني رحيمٌ بطبعي ، رحيمٌ بمنصبي . والعمل الذي يفرضه عليّ منصبي قد يظهر قاسياً عند من لا يدرك أن القساوة الكبرى هي في الواقع في رفض هذا العمل . إني أفضل الحرق لنفسي على القيام بهذا العمل ، لولا أنني مقتنع بأن المدلّ بينٌ فيه ، والضرورة ملحةٌ به ، وأن الرحمة متغلغلةٌ في جوهره . فاصدروا في هذه القضية إذا ما صدرتم عن مثل هذا الاقتناع . واعلموا أن الغضب بئس الناصحُ فاطرحوه ، وأن الشفقة قد تذهب بكم مذهباً شراً مما يذهب بكم الغضب ، فاطرحوا الشفقة . ولكن لا تطرحوا الرحمة . وغاية الأمر أن تذكروا

أن العدالة لها المكان الأول . والآن أعند أحدكم يا سادتي قولٌ
قبل أن نستفتح المحاكمة ؟

كوشون : لقد نطقت بالذي كان في نفسي ، وعبرت عنه
أحسن من تعبيرى . ولا أعلم أن رجلاً برأسه عقل يستطيع أن
يجادل في أية كلمة سقطت من فيك . ولكن عندي كلمة أريد
أن أضيفها إلى كلماتك . إن صنوف الزندقة التي ذكرتموها فيها
أخشيشان وقلة تهذب ، وهي مُفْطِعةٌ مُرَوِّعةٌ ، ولكن إفْطَاعَهَا
وإِراعَتها كإفْطَاعِ الوباء الأسود وإِراعَتِهِ : تثور حيناً ثم تخمد
وتموت ، لأن العقلاء الأصائل لن يُغريهم شيءٌ بمضاجعة المحارم ،
ولن يُجَبِّبَ شيءٌ إليهم تعدد الأزواج والزوجات وما شابهها من
سائر الموبقات . ولكن هناك صنفٌ آخر من صنوف الزندقة
يواجه المرء حيثما توجه في أوروبا . هي بدعة جديدة تنتشر بين
رجالٍ عقواهم ليست بالضعيفة ولا بالمريضة . بل على النقيض
من ذلك ، هي بدعة يزيد العقل استمساكاً بها كلما زاد راحة
وقوة . وهي ليست من البدع التي يُضعفها في رأى الناس تطرفُ
أصحابها في الخيالات وغلوهم في الخزعبلات ، فهي خلوٌ من هذا
وذاك . وهي ليست من البدع التي يفسدها في رأى الناس
ما تتضمنه من شهوات اللحم المعروفة . ولكنها مع هذا ،

كثيرها من البدع ، تأذن للفرد الخطأ الفانى أن يناهض برأيه الخاص رأى الكنيسة ، وهو رأى وليد الحكمة ونتاج التجربة الطويلة . إن كيان الكنيسة الكاثوليكية كيانٌ ضخم ثابت ركيز ، فهو لن يتزعزع بسبب رجال عُري مجانين ، ولا بسبب خطايا نكطايا مؤاب وعمون^(١) . ولكنه كيان قد يُوتى من داخله ، ويمحان من جوفه ، ويتقضى ويقوّض حتى يكون خرابا يبابا بمثل هذه البدعة الكبرى التى يسميها القائد الإنجليزي بروتستنتية Protestantism .

الخبراء : [يهامسون] بروتستنتية ! ما هذا ؟ ماذا يعنى الأسقف بهذه ؟ أهى بدعة جديدة ؟ إنه ذكر القائد الإنجليزي . أسممتَ قط بالبروتستنتية ؟ ... وهلم جرا .

كوشون : [يستمر فى حديثه] وعلى ذكر القائد الإنجليزي ، أرجو أن أعرف ماذا أعدّ الأزل ورك للدفاع عن السلطة الزمنية إذا ظهر أن الفتاة شديدة المراس صليبية الرأس ، ثم تحرك الشعب إلى الرحمة بها .

القس : لا تخش شيئا من هذه الناحية يامولاى . فالإرل النبيل له على أبواب المدينة ثمانمائة رجل فى السلاح . ففتاكم لن تفلت

(١) هما ولدالوط . انظر نهاية الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين بالتوراة .

من بين أصابنا الإنجليزية ولو ناصرها أهل المدينة أجمين .
كوشون : [وقد تضايق فغضب] ألا يحمل بك ، وقد قلت
ما قلت ، أن تدعو الله أن يعينها على توبتها والتكفير عن خطيئتها .
القس : يُخَيَّلُ إِلَى أُنَى إِذَا دَعَوْتُ جَمْعُ بَيْنِ النَّقِیْضِیْنِ .
ولكن برغم هذا فأنا أوافق سيادتكم على ما تقولون .
كوشون : [يهز كتفيه يأساً منه واحتقاراً له] افتتحت الجلسة .
المحقق : أحضروا المتهمه .

لدفينو : [ينادى] المتهمه . أحضروها .

[تدخل جان من الباب المقبوض من خلف مقعد المتهمه ، في حراسة
جند من الإنجليز ، وفي رجلها القيد ، ويدخل معها الجلاد وأعوانه ، ثم
هم يسوقونها إلى مقعدها ويحلون القيد عنها ثم يقفون وراءها . وهي في
رداء أسود كأردية الوصفاء والحجاب . وقد ظهرت عليها آثار التعب من
طول حبسها ومن جهود التحقيقات التي سبقت هذه المحاكمة ، ولكنها
لا تزال تحتفظ بجميوتيتها . وتلقى الحكمة بنفس لم تُكسر وعزة لم تُنزل ،
ولا يظهر عليها أى ارتجاف من هذا الجمع الحاشد في روعته وهيبته وعبوسته
فَتَضَيِّعُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ عُنْصُرًا جَوْهَرِيًّا كَانَتْ لَا بَدَّ مِنْهُ لِيَبْلُغَ بِهِ حَدَّ
المهابة والإخافة] .

المحقق : [في حُنُوٍ] اجلسى يا جان [تجلس على مقعدها] لونك

اليوم متغير يا جان ، فهل أنت مريضة ؟

جان : أشكرك شكرا جميلا . عندي من الصحة الكفاية ،
ولكن الأسقف بعث لي شئوطا فأكلت منه فأحدث لي سوءا .
كوشون : أنا آسف ، لقد أمرتهم أن يرسلوه صاحباً .

جان : لقد أردت الاحسان إليّ ، وأعلم هذا ، ولكن هذا
السمك لا يوافقني ، وقد ظن الانجليز أنك أردت سعى .

كوشون } ماذا !
والقس [معاً] لا ، يا مولاي .

جان : [تستمر في حديثها] إن الانجليز مصممون على أن
أحرق كما تحرق الساحرات ، لذلك بعثوا إليّ طبيبهم ليصخني .
ولكنه أمر أن لا يدميني ، لأن القوم السفهاء يحسبون أن السجر
يخرج من الساحرة عند إدمائها . لهذا اكتفي بسبي فسماي أسماء
قدرة . لماذا تتركوني في أيدي الانجليز ؟ إن الواجب أن أكون
في يد الكنيسة . ولماذا تربطوني إلى ساق من خشب ؟ أخشية
أن أطيّر ؟

دسنيقيه : [في غير رقة] أيتها المرأة ، ليس لك أن تسألني
المحكمة ، ولكن نحن الذين نلقى عليك السؤال .

كوزسل : عندما حلّوا عنك القيد ، ألم تحاولي الهرب
بالنط من برج يبلغ ارتفاعه ستين قدما ؟ فإذا كنت لا تستطيعين

أن تطيرى ، فكيف تفسرين أنك لا تزالين على قيد الحياة بعد هذه النطة؟

جان : تفسير هذا أن البرج لم يكن بهذا العلو الذى هو عليه الآن . إنكم منذ أخذتم تسألونى عن البرج ، أخذ البرج يرتفع يوماً بعد يوم .

دستيقه : لماذا نططت من البرج؟

جان : كيف جاءك أنى نططت؟

دستيقه : وجدناك ملقاة فى الخندق حول القلعة ، فلماذا

هربت من البرج؟

جان : لماذا يهرب السجين من سجنه إذا وجد مهرباً؟

دستيقه : إذن أنت حاولت الهرب؟

جان : بالطبع نعم ، ولم تكن هذه أول محاولة من نوعها .

إنك إذا تركت باب القفص مفتوحاً طار المصفور .

دستيقه : [ينهض] إن هذا اعتراف بالزندقة ، وإلى هذا

ألفت نظر المحكمة .

جان : زندقة ايسى هذا زندقة ! أنا زنديقة لأنى حاولت

الهرب من السجن؟

دستيقه : بدون شك . إذا كنت فى يد الكنيسة فحاولت

عمداً أن تُقلتي منها، فأنتِ إذن تهريين من الكنيسة، وهذه زندقة .
جان : هذه سخافة بالغة لا أظن ممقلاً تبلغ به الغباوة إلى
حدّ تصديقها .

دستيفيه : أسمعْتَ يا مولاي كيف تسبني هذه المرأة وأنا
أؤدى واجبي [يجلس غاضباً] .

كوشون : قد سبق أن حذرتكِ يا جان من هذه الإجابات
الوقحة فهي لا تأتيك بخير أبداً .

جان : وماذا أصنع وأنتم لا تكلمونني بالمعقول . إنكم إذا
عَقَلْتُمْ عَقَلْتُمْ .

المحقق : [يتدخل] أرى هنا خطأ في الإجراء . إنك ياسيدي
المدعى نسيت أن الإجراءات لم تُفتَح رسمياً . إن الأسئلة لا تُلقى
عليها إلا بعد أن تحلف على الإنجيل أنها مستقول الحق كله .

جان : إنك تقول هذا لي كل مرة ، وقد قلت لك المرة
بعد المرة إنني سأخبرك بكل ما يتصل بهذه المحاكمة ، ولكنني
لن أقول لك الحق كله ، إن الله لا يأذن في الحق كله أن يقال .
وحتى إذا أنا قلته فلن تفهمه . والمثل القديم يقول : إن من قال
فوق ما يجب أن يقال فصيره إلى المشائق . إنني سئمتُ هذه

الناقشة . لقد كررناها تسع مرّات قبل هذه . إنى خلّفتُ بمقدار ما أريد أن أحلف ، ولن أحلف فوق ذلك أبداً .

كورسل : مولاي ، لا بد من تعذيبها .

المحقق : أسمعُ يا جان ؟ هذا جواب كل عناد ، ففكّرِي قبل أن تتكلمي . أأريتموها آلات التعذيب ؟
الجلّاد : إنها حاضرة يا مولاي وقد رأتها .

جان : لو مررتُموني عضواً عضواً حتى تخرج هذه الروح من هذا الجسد ، ما نطق لساني بشيء فوق ما نطق . ماذا عندي فوق هذا مما تفهمونه ؟ على أنّي لا أحتمل الألم . فإذا أنتم عدّبتُموني ، قلت لكم ما تشاءون حتى يذهب الألم فأعود إلى إنكاره ، فإذا أنتم صانعون ؟

لدفينو : هذا كلام معقول . يجب أن نسلك معها سبيل الرحمة .

كورسل : ولكن التقليد جرى بالتعذيب .

المحقق : ولكن التعذيب لا يكون خبطَ عشواء . إن المتّهمة إذا اعترفت عن رضا صار التعذيب حراماً .

كورسل : ولكن في هذا خروجٌ عن المعتاد وتنكّبٌ عن المعروف . إنها تأتي حلفَ اليمين .

لدينيو : أتريد تعذيب الفتاة لغير غرض سوى أن تستمتع
بعذابها .

كورسل : ولكنه ليس استمتاعاً ، وإنما هو القانون . إنه
المادة . إننا دائماً نأتيه .

المحقق : هذا يا سيدي غير صحيح ، إلا أن يكون الرجال
المحققون يجهلون موقفهم من القانون .
كورسل : ولكن المرأة زنديقة . إننا دائماً نعذب .

كوشون : [يقطع في القول] لن يكون اليوم تعذيبٌ إذا لم
تكن ثمة ضرورة ، فليكن هذا فصل الخطاب . لن أسمح
بإجراء يقال من بعده إننا استندنا في المحاكمة على اعترافات تُرعت
قسراً . إننا بعثنا لهذه المرأة أحسن وعظاظنا ، وخير دكاترتنا ،
يرجونها وينصحونها ويحضونها على تخليص روحها وجثمانها من
النار ، فهل بعد هذا نبعث الآن لها الجلاد ليدفع بها في النار .

كورسل : إنك يا مولاي لاشك رحيم ، ولكن في الخروج
عن المؤلف تبعة كبرى .

جان : أنت مغفلٌ نادر الوجود يا سيدي . « أصنع اليوم
ما صنعتُه بالأمس » . هذه قاعدتك الغالية ؟

كورسل : أيتها الفاجرة العاهرة ، كيف تجرئين
فتسميني مغفلا ؟

المحقق : صبرا يا سيدى صبرا ، فلن يطول بك الزمن حتى
يثارك منها شرثارة .

كورسل : [متمئا] مغفل حقا ! [يجلس فى سخط شديد] .

المحقق : وإلى أن يحين حين هذا ، علينا جميعاً ألا نزعج
كثيراً لما تفوه به هذه الفتاة . إنها ابنة راع يرعى الغنم ، ولسانها
به جانب خشن تعوزه الملاسة .

جان : لا . أنا لست ابنة راع ، ولو أتى ساعدت فى رعى
الأغنام ككل فتاة غيرى . إني أعرف من أمور المنزل ما تعرفه
سيدته ، فأعزل وأنسج ، وبارى فيها أية امرأة فى رُوَان Rouen .
المحقق : ليس هذا أوان الفرور يا جان . إنك فى خطر كبير .

جان : أعلم هذا . وهل أنسى كيف جُوزيت على ضرورى ؟
ألم يستهونى الفرور إلى أن لبست رداً المذهب فى الميدان
والحرب قائمة ، ففعل الخرقاء ، فمرفنى جندى برجندى ، فشدنى
من ورأى عن حصانى ، ولو لا هذا ما كنت اليوم بينكم ؟

القس : إذا كنت مُحَدِّقِينَ أشغال النساء ، فلماذا لا تقبمين

فى بيتك وتقومين بها ؟

جان : توجد نساء كثيرات تقوم بهذه الأشغال ، ولكن لا يوجد من يقوم بعملى .

كوشون : اتركونا من هذه الأمور فإنها توافه لا نكسب منها إلا ضياع الوقت . جان : سأسألك سؤالاً خطيراً جداً فتأمل قبل أن تجيبه فمليه تتوقف حياتك ونجاتك . هل تقبلين فى كل ما صنعت ، خيراً كان أو شراً ، حكم كنيسة الله فى أرضه ؟ وعلى الأخص فيما فعلت من أفعال ، وقلت من أقوال ، يتهمك بها المدعى فى هذه المحاكمة ؟ هل تسلمين أمرك فيها للكنيسة تفسرها بما أوحى الله ؟

جان : أنا بنت من بنات الكنيسة ، أمينة مؤمنة ، وسأطيع الكنيسة ...

كوشون : [يميل إليها بصدرة فى تلهف ورجاء] تطيعينها حقاً ؟
جان : ما دامت لا تأمرنى بالمحال .

[يمود كوشون فيرمى فى كرسية ، وهو يتنهد يائساً متحسراً . أما المحقق فيضغط شفة على شفة ويعبس . وأتما لدقيينو فيهب رأسه راثياً لجان] .

دستيقه : إنها تنسب الخطيئة والسخف إلى الكنيسة بقولها إن الكنيسة تأمر بالمحال .

جان : إذا أتم أمرتوني أن أعلن أن الذي قتلته وفعلته ،
وأن الذي رأيته من رؤى ، وتجلّى لى من أمور ، لم يكن مأثاه
من الله ، فأتم إنما تسومونى المحال ، ولا والله ما قبلتُ هذا بشيء
فى الدنيا أبدا . إن الذى فعلته باذن الله لا رجمة لى فيه ، والذى
أمرنى الله أو يأمرنى به سأفعله برغم كل حى . فهذا الذى أعنيه
بالمستحيل . فإذا أمرتنى الكنيسة أمرا - مهما كان - ينتقض
به أمر الله فلن أطيع للكنيسة أمرا فيه عصيان الله .

الخبراء : [وهم غضبون مستاءون أشد استياء] أوه ! الكنيسة
تنقض أمر الله . هذه زندقة مكشوفة . هذا كفر لا كفر
بعده وهلم جرا .

دستيقه : [يرى بأوراق الاتهام من يده] مولاي : أتريد شيئا
بعد هذا ؟

كوشون : أيتها المرأة ، إن الذى قتلته الساعة يكفى لحرق
عشرة من الزنادقة . ألا تأبهين للتذر ؟ ألا تفقهين ؟
المحقق : إذا قالت لك الكنيسة إن تلك الرؤى التى جاءتك ،
وما تجلّى لك من أمور ، إنما جاء به الشيطان ليضلك به عن سبيل
الله ، أفلا تؤمنين بقضاء الكنيسة وبأنها أعقل منك وأحكم ؟
جان : أنا أومن بأن الله أعقل منى وأحكم ، وأمر الله هو

المطاعُ . إن كل الأشياء التي عددتموها علىّ ذنوبا جاء تني من عند الله . وقد فعلتُ ما فعلتُ بأمر الله ، فلا أستطيع أن أقول غير هذا ، فإذا قال رجل من رجال الكنيسة خلاف هذا فلن آبه له ، وإنما آبه لله وحده ، ولأمره وحده أطيع .

لدفينو : [يجادلها في توسل كثير] إنك يا بُنَيَّتِي لا تفقهين ما تقولين . أتطلبين الموت ؟ أنصتِي إلىّ . أتقرِّين بالخضوع لكنيسة الله في أرضه ؟

جان : نعم ، ومتى أنكرتُ هذا ؟

لدفينو : هذا حسن ، ومعنى هذا أنك تخضعين لمولانا البابا ، ولكر دنالاته ، ومطارنته ، وأساقفته الذين يمثلهم هنا اليومَ مولانا الأسقف ، أليس كذلك ؟
جان : أنا أخضع لله أولا .

دستيقية : إذن فالأصوات التي تسمعين تأمرُك بالآ تخضعي للكنيسة ؟

جان : أصواتي لا تأمرني بعصيان الكنيسة ، ولكن طاعة الله تكون أولا .

كوشون : وأنتِ الحَكَم في ذلك لا الكنيسة ؟

جان : ومن يقضى لنفسى غيرُ نفسى ؟

الخبراء : [وقد استشنعوا ما قيل استشناعا فظيما ، فلم يجدوا كلمة
تؤدى ما وجدوا من شناعة] أوه !

كوشون : لقد أهلكت نفسك بلسانك . لقد جاهدنا فى
خلاصك من التهلكة حتى أشرفنا بأنفسنا على التهلكة . وقد
فتحننا لك الباب مرة بعد مرة ، وأنت تعلقينه فى وجهنا ووجه
الله فى كل مرة . فهل تدعين بعد الذى تقولين أن الذى أنت
فيه من لطف الله ؟

چان : إذا لم يكن ما أنا فيه من لطف الله ، فانى أسأل الله
لطفه . وإن كان ما أنا فيه من لطف الله ، فانى أسأل الله أن
يحفظه على .

لدفينو : هذا يا مولاي جواب جميل .

كورسيل : هل كنت فى لطف من الله عند ما سرقت
حصان الأسقف ؟

كوشون : [ينهض غضبا] لعنة الله على حصان الأسقف
وعليك . إنا هنا ننظر فى قضية زندقة ، ثم لا نلبث أن نصل إلى
جوهرها حتى يصدنا عنه مغفلون لا يفقهون من الدنيا شيئا سوى
الخليل والحمير [يرتجف غضبا وينصب نفسه على الجلوس] .

المحقق : سادتى ، سادتى : إنكم بالحاكم فى هذه التهم التافهة

خيرُ أعوان للفتاة على الفرار ، ولهذا لم يدهشنى أن ضاق نيافة
الأسقف بكم . ماذا يرى المدعى ؟ أيتشبت بهذه التهم الفارغة ؟
دستيشيه : واجبي يحتم على أن أتشبت بكل شيء ، ولكن
المرأة كفرت كفرا يعود عليها بالطرد من الكنيسة ، فاذا
تغنى مع هذه الكبيرة صفائر الذنوب ؟ أنا أشرك مولاي في ضيقه
بهذه الصفائر ، ولكنى بكل احترام أوجه النظر إلى جريمتين
فظيعتين خطيرتين ، لم تنكرهما الفتاة . أولاهما أنها تخاطب
الأرواح الشريرة ، فهى على اتصال بعالم خيىث . وثانيتها أنها
تلبس ملابس الرجال ، وهذا أمر شنيع فيه خروج على الطبيعة ،
وإهدار للعفة . ورجوناها ، وعاتبناها ، وتوسلنا إليها أن تخلع
هذه الملابس ، فرفضت حتى خلعت لتأخذ القربان المقدس .

جان : هل القديسة المباركة كثرينة روح شريرة ؟ وهل
القديسة مرغريت روح شريرة ؟ وهل ميكائيل الملك الأعظم
روح شريرة ؟

كورسل : وما أدراك أن الخيال الذى يبدو لك ميكائيل ؟
أليس يبدو لك طاريا ؟

جان : ولماذا يبدو لى طاريا ؟ أم تحسب أن الله فقير لا يقدر
على كسوته ؟

[عند هذه لا يتالك الخبراء أن يضحكوا لاسيا والضحك واقع ثم نقله
على كورسيل]

لدفينو : أحسنت جوابا يا جان .

المحقق : هذا في الواقع جواب طيب . ولكن ليس في
الأرواح الشريرة روح واحدة تبلغ البلاهة منها أن تتراءى لفتاة
صغيرة في صورة فاضحة تبعثها على النفور منها ، وهي إنما تريد
أن تُوقع في نفسها أنها رسول الملقى الأعلى . اسمي يا جان . إن
الكنيسة تقول إن هذه الأطياف إن هي إلا شياطين تستدرجك
إلى مواطن اللعنة ، فهل تقبلين ما تقوله الكنيسة ؟

جان : أنا أقبل رسالة الله ، ولا أدري كيف يرفضها رجل
يخلص الإيمان للكنيسة ؟

كوشون : أيتها التّعسة ، إنى أسألك مرة أخرى : أتدرين
ما تقولين ؟

المحقق : عراكك يا مولاي مع الشيطان لتخليص روحها
عراك فاشل ، ومجهودك في ذلك مجهود ضائع ، فهي لن تنجو
أبدأ . [إلى الفتاة] أما عن مسألة اللباس ، فأنا أسألك آخر مرة
أن تخلي هذا الزي الزرى ، وأن تلبسى كما يلبس النساء .

جان : لن أفعل .

دستيفيه : [يتنقض كالطير الجارح] خطيئة النسيان هذه

يا مولاي !

جان : [تتأزم] ولكن أصواتي تقول لي البسى كما

يلبس الجنود .

لدفينو : جان ، جان : ألا يُثبت لك هذا أن هذه أصوات

أرواحٍ شريرة ؟ أنتستطيعين أن تذكرى لنا سبباً واحداً يحمل

ملكاً من ملائكة الله على إسداء مثل هذه النصيحة الفاضحة ؟

جان : بالطبع أستطيع . إنها نصيحةٌ منطوقها بسيطٌ واضح

ما كنتُ أحسب أنه يتعمى على أحد . فأنا جنديّةٌ عشت بين

الجنود . وأنا الآن سجينّةٌ يجرُسُنِي جنود . فاذا أنا لبستُ لبسَ

النساء ، نظروا إلى نظرة الرجال إلى النساء ، فإلى أىّ حال كنت

أصير عندها ؟ أما إذا لبستُ ملابس الجنديّ ، نظروا إلى نظرة

الجنديّ إلى الجنديّ ، فأعيش بينهم كما كنتُ أعيش في بيتي بين

إخوتي . فهذا هو السبب الذي من أجله نصحتُ لي القديسة

كترينة أن لا ألبس ما تلبسُ المرأة حتى يجيئني أمرها .

كورسل : ومتى يجيئك أمرها ؟

جان : يجيئني عندما تنتشلوني من أيدي الإنجليز و جنودهم .

لقد قلت لكم أسلموني إلى الكنيسة ولا تتركوني ليلَ نهارٍ بين

أربعة من جنود الإِرْل وَرِك . أَيْن هؤُلاءِ تريدونى على الظهور
فى غلائل النساء؟

لدفينو : عِلْمَ الله أَن الذى تقوله خطأ فاضح ، ولكنى أرى
فيه ذرّة من فطنة أهل الدنيا قد يجوز مثلها على مثل هذه الفتاة
القروية الساذجة .

جان : لو كنا فى قرانا سُذجا مثلكم فى محاكمكم وقصوركم
لما وجدتم القمح الذى تصنمون منه خبز يومكم .
كوشون : أخى مرتان ، هذا جزاؤك منها على محاولتك
دفعَ السوء عنها .

لدفينو : يا جان ، إني أحاول أن أدفع عنك السوء . ومولاي
الأسقف يحاول أن يدفع عنك السوء . والمحقق يعطيك من
عدالته نفس القسط الذى يمطيه لابنته . ولكنك عمياء ، أعماك
صلفٌ زائد ، وكبرياء تترفع بك عن معونة الناس .
جان : لماذا تقول هذا ؟ أنا لم أقل ما يسىء . أنا لا أفهم
ما تقول .

المحقق : إن القديس أثنسيوس ، باركه الله ، قرّر فى تعاليمه
أن اللمنة تحق على من لا يفهمون . فلن يكنى المرء أن يكون
ساذجا . ولن يكفيه أن يكون ما يسميه السذج طيبا . إن سذاجة

البصيرة المَعْتَمَة والقلب المظلم كسذاجة البهيم ، سواء سواء .
جان : خذوها عني : إن في سذاجة البهيم لحكمة كبرى ،
وإن في حكمة العلماء أحيانا لسخافة كبرى .

لدفينو : نعمُ هذا ، ولسنا يا جان من الحماقة بحيث تظنن
فدعي هذه الإجابات البذيئة ودافعي الشيطان فإنه يعريك بها .
أتردين هذا الرجل الواقف وراءك [يشير إلى الجلاد]

جان : [تدور لترى الرجل] أهذا جلادكم؟ ولكن الأسقف
قال إنى لن أعذب .

لدفينو : لن تمذبن لأنك اعترفت بكل ما يكتفى للحكم
عليك بالإعدام . وهذا الرجل لا يعذب فحسب ، بل هو يميت .
أيها الجلاد ، أجب أسئلتى وأسمع الفتاة . أنت على استعداد
لإحراق زنديق في هذا النهار؟

الجلاد : نعم ، سيدى .

لدفينو : أجهزت الجذع الذى يُربط به الزنديق قبل الحريق؟
الجلاد : نعم سيدى ، نصبه الإنجليز في السوق ، ونصبوه
عاليا حتى لا أستطيع أن أقرب من الفتاة فأجمل موتها سريعا
سهلا . إنها ستموت موة شنيعة .

جان : [وقد دخلها الفزع] ولكنكم لن تحرقونى الآن؟

المحقق : لقد أدركتِ المآل أخيراً .

لدفينو : إن على الباب ثمانمائة جندي انجليزى يتربصون
اللفظة تخرج من قضاتك بالحكم بطردك من الكنيسة لينقضوا
عليك فيأخذوك إلى السوق للحريق . فهذا مآلك ليس بينك
ويينه إلا دقائق .

جان : [تنظر حولها فى حيرة اليأس تطلب النجدة] ربّاه .

لدفينو : لا تيأسى يا جان ، فالكنيسة رحيمة ، وسبيل النجاة
لا تزال مفتوحة ، فادخليها .

جان : [وقد دخلها الأمل بعد اليأس] نعم . إن أصواتى وعدتني
بأن لن أحرّق . والقديسة كترينة أمرتني بأن أتشجع وأن
لا أخاف .

كوشون . أيها المرأة ، هل إلى هذا الحد بلغ بك الجنون ؟
ألا تُدركين بمد كل هذا أن أصواتك قد خدعتك ؟
جان : لا ، لا . هذا مستحيل .

كوشون : مستحيل ! إن هذه الأصوات ستؤدى بك إلى
الطرد من الكنيسة ، ثم إلى هذا الجذع الذى ينتظر هناك
لتُحرّق عليه .

لدفينو : [يمجاهد فى تعزيز الحجة التى بدأها الأسقف] هل وقت

لك هذه الأصوات بوعد واحد منذ أسروك في كمين؟ إن
الشیطان قد خانك . إن الكنيسة تفتح لك صدرها لترتجى فيه .
جان : [وقد يئست] نعم ، هذا حق . إن أصواتي خدعتني ،
والشياطين هزمت بي ، وقد انهار إيمانِي . لقد غامرتُ كثيراً ،
وخاطرتُ ما خاطرتُ ، إلا هذه النار ، فلن يمشي برجليه طوعاً
إليها إلا مخبولٌ معتوه . إن الله الذي منحنى العقل لا يقبل أن
أمشي بهذا العقل راضيةً إلى مثل هذه الموتة .

لدينيو : الحمد لله الذي شاء لك النجاة في آخر ساعة .

[ثم هو يذهب مسرعاً إلى مقعد خالٍ بجوار الكتاب ، وينزع
صحيفة من الورق ثم يأخذ في الكتابة عليها في رغبة شديدة] .

كوشون : الحمد لله .

جان : وماذا على أن أفعل الآن؟

كوشون : تمضين إسهاداً بإنكار البدعة التي جئت بها .

جان : أمضي؟ معنى هذا أن أكتب وأنا أميةٌ لا أعرف

الكتابة .

كوشون : إنك أمضيت كُتباً عدةً فيما مضى .

جان : نعم . ولكن يدا كانت تُمسك بيدي فتهدئها بالقلم

الذى فيها . على أنى أضع علامتى^(١) على ما تريدون .

القس : [وقد كان يصنى فيزداد خوفاً وسخطاً على الناحية التى خال أن الحديث سيؤدى إليها] مولاي ، أ معنى هذا أنك تأذن لهذه المرأة أن تُفَلِّت من أيدينا ؟

المحقق : إن القانون يجب أن يجرى مجراه ، وأنت أيها القس تعرف القانون .

القس : [ينهض وقد ازرق وجهه من الغضب] أنا أعرف أن الفرنسىّ خوّان . [يلغظ القوم ، فيعلو بصوته على لفظهم] أنا أعرف ما يقول مولاي كرينال ونشستر عند ما يسمع بهذا . أنا أعرف ما يصنع أرل ورك عند ما يعلم أنكم تخونونه . إن على الباب ثمانمائة رجل ينتظرون حتى تُحرق هذه الساحرة اللعينة وأنوفكم راعمة .

الخبراء : [فى هذه الأثناء] ما هذا ؟ ماذا قال ؟ يتهمنا بالخيانة ! هذا لا يحمّل . الفرنسىّ لا يؤتمن ! أ سمعت هذا ؟ هذا رجل لا يطاق . من هو ؟ أهذا مثل القساوسة الإنجليز ؟ إنه مجنون . أو سكران . . . وهلمّ جرا .

(١) كان من لا يبرف الكتابة يصنع على الورقة علامة كائنة ما كانت تتوب عن اسمه ويطلب أن تكون رسم الصليب .

المحقق : [ينهض] السكوت ، السكوت ، ياسادة أرجوكم
أن تسكتوا . وأنت أيها القس ، تذكر منصبك الكنسى لحظة
واحدة . تذكر ما أنت وأين أنت . إني أمرك بالجلوس .

القس : [يطوى ذراعاً على ذراع ، فى عناد شديد ، ووجهه يختلج
اختلاجاً] أنا لا أجلس .

كوشون : سيدى المحقق ، إن هذا الرجل دعانى لوجهى
خائناً قبل الآن .

القس : نعم أبت خائن . وأتم جميعاً خونة . ماذا صنعتم
غير الركوع بين يدى هذه الساحرة اللعينة تسألونها التكفير
عما جنت .

المحقق : [يهبط إلى مقعده فى انقاد] إذا أنت لم تجلس ، فلا
يبقى إلا أن تقف . وهذا كل ما عندى .

القس : لن أقف [يضغط على « لن » ، ثم يرمى بنفسه فى مقعده] .
لدقينو : [ينهض ويده ورقة] مولاي : هذه صورة التوبة
التي تُمضيها الفتاة .

كوشون : اقرأها لها .

جان : لا تتكلف هذا المناء ، فأنا أمضيها .

المحقق : أيتها المرأة ، يجب أن تعرفى ماذا توقعين . اقرأها

لها يا أخى مرتان . وأتم فاستمعوا له جميعاً .

لدفينو : [يقراً في هدوء] أنا صاحبة التوقيع جان ، المعروفة على الأشهر بالفتاة ، أقرّ بأنى مذنبية شقية ، وأنى أذنبتُ أسوأ الذنب في الأمور الآتية : فقد ادّعت بالكذب أن وحيًا يجيئني من الله والملائكة والقديسين ، ورفضت في تمرّدٍ وعناد نُذِرَ الكنيسة بأن هذا الوحي من الشياطين يُضِلّون به عباد الله . وقد كفرت أشنع الكفر بارتدائي ملابس لا ترضاها الفضيلة ، مخالفتُ بذلك الكتاب المقدس وقوانين الكنيسة . وكذلك قصصت شعري كما يقصّه الرجال ، وحملت السيف لسفك الدم البشريّ ، وأغرّيت الرجال بذبح الرجال ، واستعنتُ بالمفاريث في خداع الناس ، ونسبت كل هذا في كفر بالغ وعناد شديد إلى الله جل جلاله . وإني بهذا أعتف بالخطايا الآتية : بالفتنة ، وبالوثنية ، وبالعصيان ، وبالعُجب ، وبالزندقة . وإني أتبرأُ الآن من هذه الخطايا جميعها ، وأقيلع عنها وأطرحها أطراحاً . وإني أشكر الدكاترة والقساوسة في خضوع أن هدوني إلى الحق وأدخلوني مرة أخرى في رحمة الله . ولن أعود إلى أخطائي السابقة . وسأظل في كنف الكنيسة المقدسة طيعةً لأيننا الأقدس بباروما وإني أحلف على كل هذا بالله العليّ العظيم وبالإنجيل الكريم .

وإشهاداً على هذه التوبة أضع اسمي عليها .

المحقق : أفهمته كلّه يا جان ؟

جان : [في غير اكرثا] واضح جدا يا مولاي .

المحقق : وهل هو حق ؟

جان : قد يكون حقاً . لو كان باطلاً لما جهّزتم لي النار في

السوق .

لدفينو : [يأخذ قلمه وكتاباً ، ويتجه مسرعاً نحوها خشية أن يصدر

منها ما يفسد الأمور مرة أخرى] تعالى يا بنيتي . وخذي القلم ودعيني

أمسك بيدك لتهدئي [تأخذ القلم ويبدأ بالكتابة مرتكزين على

الكتاب] جيم . ألف . نون . والآن ضعي علامتك بنفسك .

جان : [تضع علامتها ثم تعطيه القلم ، وهي في ضيق من ثورة روحها

على عقلها وجسدها] هاك !

لدفينو : [يضع القلم على المنضدة ، ثم يسلم التوبة إلى كوشون في

كثير من الاحترام] الحمد لله أيها الإخوان فقد عادت الشاة إلى

حظيرتها بعد الضلال . والراعي قد فرح لها ، وهي الخاطئة ،

أكثر مما يفرح لتسعة وتسعين من الصالحين^(١) [يعود إلى مقعده] .

المحقق : [يأخذ الورقة من كوشون] بهذه التوبة نعلن أنك

(١) يشير إلى ما جاء بالإنجيل .

سلمت من الخطر الذي كان يهددك ، فلن تطردى من الكنيسة
[يرمى بالورقة إلى المنضدة] .

جان : أشكرك .

المحقق : ولكن بما أنك أذنبت في حق الله والكنيسة
المقدسة إذ نابا كبيرا ، وأدعيتِ الدعاوى ، وتغطست وتكبرت
تكبرا شديدا فاضحا ، وبما أننا نرجو لك التكفير عن سيئاتك إذا
أنت تأملتِها فريدةً وحيدة ، وبما أننا نرجو لك في هذه الوحدة
بعداً عن العواية والرجوع إلى تلك الخطايا ، لهذا نحكم عليك ،
خير روحك ، ورجاء توبة نرجوها لك تمحو عنك أدران الذنوب
وتردك في النهاية إلى الله طاهرةً مطهّرةً ، نحكم عليك بأن
تأكلى خبز الندامة ، وتشربى ماء الكرب ، في سجن دائم إلى
آخر يوم لك على هذه الأرض .

جان : [تنهض في دعر وغضب شديد] سجن دائم ! إذن

لا تطلقون سراحي ؟

لدقينو : [وقد أخذ العجب بعض الشيء] نطلق سراحك بابنتي

بمد الذي أتيت من خبائث ؟ أتخلمين ؟

جان : إذن فردّ إلى الورقة وما كتبتُ عليها [تسرع إلى

المنضدة وتنزع الورقة من عليها وتمزقها شراً تمزيقاً] أشعلوا النار . حياة

السجون كحياة الفئران في الحجور ، خيرٌ منها النار فدوئكم
فأوقدوها . ما كذبتُ أصواتي أبداً .

لدينيرو : چان ! چان !

چان : ما كذبتُ أصواتي . لقد أخبرتني أنكم مغفلون ،
[تحدث هذه الكلمة استياءً كبيراً] ونصححتني أن لا أستمع إلى كلمات
منكم خالبة ، وأن لا أرتكن إلى صدقة منكم كاذبة . وعدتموني
الحياة ثم ها أتم تكذبون [تُسمع من القوم نائرة غضب] . كل
حياة عندكم حياةٌ ما نبض القلبُ فيها . كل حياة عندكم حياة
إلا حياة الحجر . إني لا أخشى الخبز والماء . إني أعيش على الخبز ،
فتي سألتكم غيره ؟ وليس في شرب الماء عذاب ما دام الماء نقياً .
ليس في أكل الخبز عذاب ، ولا في شرب الماء كرب ، ولكنَّ
الكربَ والعذاب أن تُعلقوا دُونِي الأبواب فلا أرى نور السماء
ولا بهجة الأرض في حقولها وأزهارها ، وأن تُقيّدوني بالسلاسل
فلا أستطيع أن أركب في الرجال للقتال أو أن أتسلق الجبال ،
وأن تحملوني على أخذ أنفاسي من هواء فاسد في جوٍّ رطب
مظلم ، وأن تضربوا حجبا بيني وبين كلِّ شيء من شأنه أن يأخذ
بيدي إلى كنف الله ، ويعود بي إلى محبة الله ، وقد كادت تذهب
بها من قلبي هذه الخابثُ التي تأتون والحماقات التي تصطنعون .

إن ما تعرضون على شرٍّ من تنور الإنجيل الذي أُنحى سبع
مرّات . إنى أستطيع أن أستغنى عن جواد حربى ، وأستطيع أن
أروح وأعدو أجرٌ ذيلَ النساء ، وأستطيع أن أدعَ الأعلام
والأبواق والجند والفرسان تمرّ بى وتحلّفنى وراءها كما تحلّف
سائر النساء . نعم أستطيع كل هذا إذا أبقيتم لى الريح أسمع
حفيفه فى الشجر ، والقنبرة أسمع تفريدها فى نور الشمس ،
والشاة الصغيرة أسمع ثغاءها وهى تجرى فى الغابة فى صَفْوِ هوائها
وموفور ضيائها ، والأجراسَ أجراسَ الكنيسة تُرسل إلى النّعم
على الريح بأصوات قديساتى . بدون هذه الأشياء لا أستطيع
العيش ، فإذا أتم رأيتم أن تحرمونى منها — إذا أتم رأيتم أن
تحرموا منها أى إنسان ، فهذا رأى يحمل فى طيّاته الدليل على أن
مأتاه من الشيطان ، ويحمل الدليل كذلك على أن رأى ماتاه
من الله .

الخبراء : [فى اختلاط وجلبة] هذا كفر ! هذا كفر ! إن
الشيطان قد ركبها . تقول إن رأينا من عند الشيطان ، وإن رأينا
من عند الله ؟ هذا فظيع . إن الشيطان قد حلّ فىنا ...
وهلمّ جرّاً .

دستيقية : [يملو بصوته على الجلبة] إنها قد ارتدّت إلى زندقتها .

إنها عنيدة لا يمكن إصلاحها . إنها غير جديرة بما بذلنا لها من
رحمة . إني أطلب الحكم بقطعها من الكنيسة .

القس : [إلى الجلاد] إلى نارك فأشعلها . إلى النار بها .

[يخرج الجلاد وأعوانه إلى الصحن مسرعين] .

لدفينو : أيتها الخبيثة . إذا كان الوحي الذي يأتيك من الله ،

أفا كان في وسمه أن يُنجيك مما أنت فيه ؟

جان : إن طرائق الله في تصريف الأمور غير طرائقكم .

إن الله قد شاء أن أرتقى في أحضانه ولكن عبّر النار . ذلك لأنني

ابنته ووليته ، وأنكم لا تستأهلون أن يعيشت فيكم مثلي . فهذه

آخر كلماتي إليكم .

[يقبض عليها الجنود] .

كوشون : [ينهض] لا تقبضوا عليها بمد ، فنحن لم نقرُغ .

[يكف الجند منتظرين ، ويسود سكوت كسكوت الموت . ثم يتجه

كوشون نحو المحقق يرّمقه بعين سائلة ، فيهرّ المحقق رأسه إيجاباً . فيقوم

الاثنتان معاً في عبوسة واتناد ، فيرتلون الجمل الآتية ترتيلاً ، كلٌّ في

دوره] .

كوشون : نحكمُ عليك بأنك مرتدةٌ زنديقة .

المحقق : وبأنك من الكنيسة مطرودة .

كوشون : ومن جسمها مقطوعة .

المحقق : وبمُجْدَامِ الزندقة موبوءة .

كوشون : آله من آلات الشيطان .

المحقق : وفرعٌ خبيثٌ وَجَبَ اجْتِثَاثُهُ من شجرة الإيمان .

كوشون : فنحن نطردك ونقطعك ، وتترك للسلطة

الزمنية تفعل فيك ما تشاء .

المحقق : ونُنذِرُ السلطة المذكورة أن تقصد في حكمها عليك

فيما يختص بالموت وتقطيع الأعضاء [يجلس] .

كوشون : ونأذن لأخينا مرتان أن يتقدم لك بمراسم التوبة

إذا بدت منك أية بادية للتوبة .

القس : إلى النار بالساحرة [يندفع إليها ، ويساعد الجند على

دفعها وإخراجها] .

[يخرج الجند بجان عن طريق الصحن ، فينهض الخبراء ويخرجون

وراءهم في غير نظام ، إلّا لدثينو ، فيرى مكانه وقد أخنى وجهه في كفيه] .

كوشون : [كان قد همّ بالجلوس ، ولكنه لا يكاد يرى ما فعل

القس حتى يعود إلى النهوض] لا ، لا . هذا خرقٌ في الإجراء .

يجب أن يحضر نوابُ السلطة الزمنية ليتسلموها هنا منّا .

المحقق : [يقف كذلك] إن هذا القس رجل جهول لا شفاء

لجمله .

كوشون : أخانا مرتان ، اذهب وارقب ما يصنعون . يجب عليهم ألا يخرجوا على القانون .

لدقينو : إن واجبي أن أكون إلى جانبها الآن ، فارقب أنت ما يصنعون ، واستخدم أنت سلطتك في حماية القانون [يسرع في الخروج] .

كوشون : إن هؤلاء الإنجليز لا يطاقون . إنهم سيذفون بها في النار دون إبهال . انظر !

[يشير إلى الصحن ، وقد ظهرت فيه النار واشتد ضياؤها واضطرب فاحرًا منه وضح النهار . ولم يكن بقى في قاعة المحكمة غير الأسقف والمحقق] .

كوشون : [وقدم بالتهوض] لا بد أن نقف هذا . المحقق : [في هدوء] نعم . ولكن إياك والمجلة الزائدة يا مولاي .

كوشون : [يتمهل في نهوضه] ولكن ليس في الوقت سعة . المحقق : يجب أن نعمل في حدود النظام التام . وإذا اختار الإنجليز سبيلا معويًا فليس من واجبنا تقويمهم . وغلطة في الإجراء الآن قد تكون نافعة لنا في المستقبل . فمن يدري ؟ وعلى كل حال فمن صالح الفتاة أن ينتهي أمرها سريعًا .

كوشون : [يسترخى فى جِلسته] هذا حق . أظن أنه لا بد لنا من الصبر حتى ينتهى هذا الأمر .

المحقق : ستموّد هذا يا عزيزى الأسقف . إن المرء ريب العادة . إني قد اعتدت النار . إنها لا تلبث أن تنتهى . ولكن الأمر الفظيع فى كل هذا رؤيةُ فتاة صغيرة ومخلوقة بريئة تحطم عظامها بين قوّتين هائلتين ، قوّة الكنيسة وقوّة القانون .

كوشون : أتسمّيها بريئة !

المحقق : نعم فى غاية البراءة . ماذا تفهم هى من الكنيسة ، وماذا تفهم من القانون ؟ إنها لم تفهم كلمة من كلماتنا . إن الجاهل هو الذى يحيق به العذاب . هيّا بنا وإلا فاتنا الختام .

كوشون : [يذهب معه] أنا لا آسف إن فاتنا ختامها ، فأنا لم أتعوّد مثلك هذه الخواتيم .

[ويبنام يخرجون ، يدخلُ وركُ فيلقام] .

ورك : أوه ! أنا متأسف على دخولى ، فقد ظننت أن الأمر

انتهى [بتصنّع الخروج] .

كوشون : لا تخرج يا مولاي ، فقد انتهى كل شيء .

المحقق : إن إعدامها ليس فى يدنا يا مولاي ، ولكن من

المرغوب فيه أن نشهد الخاتمة . فمن إذ ذلك ... [ينحنى ثم يخرج عن طريق الصحن] .

كوشون : يوجد شك في أن مواطنيك اتبعوا القانون يا مولاي .

ورك : قيل لي إن هناك شكاً في أن سلطتك تجرى على هذه المدينة يا مولاي . إنها ليست في أبرشيَّتكَ . وعلى كل حال فإذا أنت تحمّلت التبعة في هذه ، تحمّلت أنا التبعة فيما بقي .

كوشون : إننا جميعاً سنسأل عن هذا أمام الله . فصباح الخير يا مولاي .

ورك : مولاي ، صباح الخير .

[يتراشقان بنظرات مكشوفة العداة . ثم يخرج كوشون فيتبع المحقق . أما ورك فيبقى ، ثم ينظر حوله فلا يجد أحداً ، فينادى في طلب أحد] .

ورك : هالو ! هل من رجلٍ هنا ! [سكوت] هالو ! هل من رجل ؟ [سكوت] هالو ! بريان Brian ! يا ولد يا خبيث ، أين أنت ؟ [سكوت] أيها الخفراء ! [سكوت] ذهب الكل ليشهدوا بالحريق ، حتى هذا الولد الصغير .

[يقطع السكوت صرخ رجل يبكي ويُعول إعوالم الهاويس] .

ورك : ما هذا الذي أسمع ... ؟

[يدخل القس من الصحن مترنحاً كالخبول ، ودمعه يجرى على وجهه
مدراراً . وهو الذى كان يصرخ هذا الصريح المؤلم الذى سمعه ورك . يدخل
ويعشى فى غير اتران إلى كرمى التهمة فيرتدى عليه وهو يعول إعوالا يفتت
الأكباد] .

ورك . [يذهب إليه ويربّت على كتفه] ما هذا ياسيد جون ؟
ما الذى جرى ؟

القس : [يقول لورك وهو يمسك بيديه متوسّلاً] مولاي !
مولاي ! بحق المسيح صلّ على روحيّ المذنبه الشقيّة .

ورك : [يهديّ من روعه] نعم ، نعم . بالطبع سأفعل .
ولكن مهلا ، رويداً . . .

القس : [يبكى بكاء شديداً مرّاً] هل أنا رجل فاسق يا مولاي ؟
ورك : لا ، لا ، أبداً .

القس : إني ما قصدت شرا . إني لم أكن أدرك هذا المنظر
كيف يكون .

ورك : [يتصلّب بعدلين] آه ! أنت رأيتّه ؟

القس : إني لم أدري ما كنت أصنع . إني جهول متهوراً خرق .
ستقع علىّ لعنة الله من أجل ما صنّعت .

ورك : لا ، لا . إن الحادث بالطبع حادث مؤلم ، ولكنه لم يكن مِنْ فِعْلِكَ .

القس : [وهو يتفجع] أنا الذى جعلتهم يفعلونه . لو أنى عرفت من قبل ما أعرفه الآن لا نزعها انتزاعاً من أيديهم . إنك لا تعرف ما أعرف . إنك لم ترَ ما رأيت . إن الكلام مع الجهل يسير . إن المرء يحدّر عقله بالكلام حتى لا يبقى منه إلا ما يبقى للمجانين . إن المرء يصبّ اللعنة على رأسه ، لأنه يلتذّ صبّ الزيت على جهنم المتأججة من نار غضبه . حتى إذا تكشّف له الأمر فى صميمه — حتى إذا تكشّف له ما صنعت يدها قبيحاً ذمياً فأعمى بصره ، وأخذ بخنّاقه فخبس أنفاسه ، وأمسك بقلبه فقبضه وضيّقه حتى كاد يمزقه — عندئذ — عندئذ ... [يسقط على ركبتيه] . يا إلهى أبعِدْ هذا المنظر عن عيني . يا إلهى أطنئْ هذه النار بين جوانحي . لقد صرختُ إليك وألسنة النار تندلع إليها . ربّاه ، ربّاه ، ربّاه . إنها الآن فى كنفك ، أما أنا فى الجحيم إلى أبد الأبدين .

ورك : [يرفعه فى غير اتئاد حتى يقف على رجله] قم ، قم ، يارجل . تصبّر ، تصبّر ، وإلا تحدّثت المدينة كلها بهذا [يرمى به فى غير لطف كثير على كرسي إلى جانب المنضدة] إذالم يكن لك من أعصابك

ما يحتمل هذه المناظر فلم لا تنيب عنها كما أغيب ؟
القس : [وهو مشتت الفكر فاقد الإرادة مخذول] إنها طلبت
صلياً ، فربط لها جندى عودين وأعطاهما إياها . شكراً لله أنه
كان انجليزيا . لقد كان في وصى أن أصنع ما صنع ، ولكنى لم
أفعل . إني نذلّ جبان . أنا كلب مكلوب . أنا مفقّل . ولكنه
كان مثلى انجليزيا .

ورك : يا لمفقّل . إنهم يحرقونه لو استطاع القسسُ
إمسأكه .

القس : [يصيبه التشنج فيرتج] بمض الناس ضحكوا منها .
هؤلاء كانوا يضحكون من المسيح لو أنهم حضروه . إنهم كانوا
فرنسيين يا مولاي . أنا أعلم أنهم فرنسيون .
ورك : صه ! بمض الناس قادم ، فتماسك .

[يدخل لدقينو من مدخل الصحن ، فيمر على يمين ورك ، وهو
يحمل صليب أسقف كان قد أخذه من كنيسة . يدخل وهو هادئ
النفس ، ولكن وجهه عابس] .

ورك : أخبرتُ أن الأمر انتهى يا أخانا مرتان .
لدقينو : [يلغز في القول] لاندري يا مولاي ، فلعلها البداية .

ورك : ماذا تعنى بالضبط ؟

لدينو : إني أخذتُ لها هذا الصليب من الكنيسة لتظل
تراه للنهاية . إنه لم يكن لديها صليب غيرُ عودين وضعتُهما على
صدرها تحت رداها . فلما استمرت النار وزحفتُ حولنا ، رأَت
أنى لو بقيتُ أحمل الصليب أمام عينها لامتدَّت إلى النار فأحرقتنى .
عندئذٍ أنذرتنى وسألتنى أن أنزل وأنجو بنفسى . مولاى : إن
فتاة تستطيع وهى فى مثل هذه المحنة أن تصرف من بالها إلى خير
غيرها فتاة لا يمكن أن يكون الشيطان قد أوْحى إليها . وعندها
اضطرتُّ أن أتزع نفسى والصليبَ من موقف الخطر الذى
كنت فيه . فلما اختفى الصليبُ عن نظرها ، أشاحت بوجهها
إلى السماء . ولستُ أظن أن السماء عندئذٍ كانت فارغة . إني موقن
أن الله تجلَّى لها ، فلما رأَت وجهه مؤاسياً حناناً ، هتفت باسمه ،
ثم ماتت . فهذه ليست النهاية لها ، بل البداية .

ورك : أنا أخشى أن يكون لما حدث أثر فى الناس .

لدينو : لقد كان له أثر فعلا يا مولاى — فى بعضهم . لقد
سمعت ضحكا ، سألنى إذا قلت إني أرجو وأعتقد أنه ضحكٌ
من انجليز .

القس : [ينهض كالمجنون] لا . لم يكن من انجليز . لم يكن
هنالك إلا رجل انجليزى واحد عرَّ قومَه ، رجلٌ فاسق ، كلبٌ

مسمور ، هو أنا دى استوجبر [يخرج هاتما على وجهه وهو يصرخ] فليمدبوه . فليحرقوه . سأذهب فأصلى على رمادها . أنا يهودا ، ليس بيننا خيار . سأشوق نفسى .

ورك : أسرع ، أسرع إليه ، يا أخانا مرتان . إليه ، إليه قبل أن يحدث سوءاً بنفسه .

[يخرج لدفينو مسرعا ويحمله ورك في خروجه . ثم يدخل الجلاد من الباب الذى يقع خلف منصة القضاء ، فإذا عاد ورك لقي الجلاد وجها لوجه] .

ورك : من أنت يا رجل ؟

الجلاد : [في وقار] أنا لا يناديني أحد برجل يا مولاي . أنا أستاذ الجلادين فى مدينة رُوان ، والجلادة صناعةٌ صعبةٌ تحتاج إلى حذق كثير . إني أتيت لأخبر مولاي أن أوامره قد انقذت .

ورك : أسأل عفوك ومعدرتك يا أستاذ الجلادين . لقد ضاع عليك ما كنت تبغى للناس من بقايا القتيلة ، ولكنى سأعوّضك عن هذا . أنت وعدتني أنك لن تبقى على شيء منها ، فلا عظمة ولا ظفر ولا شعرة .

الجلاد : إن قلبها أبى أن يحترق يا مولاي ، ولكن كل

ما تخلفَ منها فهو في هذه الساعة في قاع النهر . لقد سمعتَ
يا مولاي آخرَ ما يُسمعُ عنها .
ورك : [في ابتسامة مرّة ، وهو يذكر ما قال لدفينوا] آخرَ
ما يُسمعُ عنها ! ليت شعري أهذا آخره !

المنظر الختامي

[ليلةٌ عصبيةٌ من ليالى يونيه عام ١٤٥٦ ، شديدة الريح مضطربة ، جاءت بعد أيام شديدة الحرّ من أيام الصيف ، فكثرت من أجل ذلك برقعها ودوّى رعدھا . أما المكان فجبرة نوم في قصر ملكي بها سرير رقد عليه شارل السابع ملك فرنسا ، وهو المعروف قديما بالدوفين . أما الآن فلقبوه شارل القاتم . وهو في عامه الحادي والخمسين . وفي أوسط الحجر نافذة شكل أعلاها كسّن الريح . وقد وضع السرير على منصّة ترتفع عن الأرض درجتين ، وذلك في جانب من جوانب الحجر لكي لا يحجب النافذة . وأظلت السرير مظلةً نُقِشت عليها شارة الملك . ولولا هذه المظلة ، ولولا وسادات من الريش هائلة ، لما فرّق الإنسان بين هذا السرير وبين أريكة عريضة فرُشت عليها ملاءاتٌ وعُلقت ستائر . من أجل هذا كان التأمم مكشوفاً كله للناظر إليه من ناحية رجله] .

[ولم يكن شارل نائماً ، بل كان راقداً يقرأ في فراشه ، أو على الأصح كان يطالع صوراً في كتاب لفوكيه^(١) ، وقد ثنى ركبتيه ليتخذ منهما للكتاب مسندا . وكان إلى يساره ، إلى جانب السرير ، منضدةٌ عليها صورة للهدراء مريم تضيئها شموع مصبوعة . وعلى الحوائط عُلقت ستائر

(١) هو جان فوكيه Jean Fouquet رسام فرنسي شهير من الذين أسسوا الفن الفرنسي ولد في عام ١٤١٥ ومات في عام ١٤٨٠ . وصور لشارل السابع صورة مطقة اليوم في متحف اللوفر بباريس فهو من معاصريه .

منقوشة فسترتها من السقف إلى الأرض ، وكانت تضطرب في هب الريح .
وكانت هذه الستائر المصوّرة أبين ألوانها الأصفر والأحمر ، فكما انفرجت
مع الريح ترامت للناظر أوّل وهلة كأنها ألسنة اللهب] .

[وكان باب الحجر على شمال شارل وأماته ، قريبا من أبعدر كن
منه . وكان في الفراش ، في مُتناول يده ، جرسٌ جميل الصنع مزوّق
كالذى يستخدمه الخفراء للانذار إذا أوجسوا خيفة] .

[ويقلب شارل صحيفة من الكتاب . وتدقّ ساعة بعيدة دقا يُسمع
خفيفا يؤذن بانتصاف الساعة . فعندها يطبق شارل الكتاب ، فيُسمع
صوت إطباقه ، ثم يرمى به جانبا . ثم يمد يده إلى الجرس فيهرزه هزا عنيفا
فيحدث صوتا يُسم الآذان . عندئذ يدخل لدفينو على الملك ، فيمشى إليه
مشية انتادٍ فيها الصلابة والغرابة ، وقد تقدم به السن خمسة وعشرين عاما
فوق ما عهدناه ، وهو لا يزال يحمل الصليب الذى كان حمّله في رُوان
عند ما حُرقت جان . ولم يكن شارل ينتظره ، فهو لذلك يفزع منه ويرى
بنفسه خارجَ سريره إلى الجانب البعيد عن الباب] .

شارل : من أنت ؟ أين وصيف الحجر ؟ ماذا تريد ؟
لدفينو : [وهو جادٌ متوقّر] إني آتيك بأخبار عظيمة سارة ،
فافرح أيها الملك ، فاللّوثة التى فى دمك قد طُهرت ، والوصمة
التي بتاجك قد غُسلت ، والعدل الذى تأخّر طويلاً ، قد
فاز أخيراً .

شارل : من أنت ؟ وما الذى تقوله ؟

لدفينو : أنا الأخ مرتان .

شارل : ومن يكون الأخ مرتان ، ولا مؤاخذة ؟

لدفينو : أنا الذى حملتُ هذا الصليب لما اُحرقت الفتاة .

وقدمضى الآن على إحراقها خمسة وعشرون عاماً : نحو من عشرة آلاف يوم . وفى كل يوم من هذه الأيام دعوت الله أن يبرئ فتاته على الأرض كما برأها فى السماء .

شارل : [وقد عاد إليه اطمئنانه فجلس على ذيل السرير] أى نعم

أذكر الآن . لقد سمعتُ باسمك . إن بك مسأ من الفتاة

لا يفارقك . أحضرت التحقيق ؟

لدفينو : وشهدتُ فيه ؟

شارل : هل انتهى ؟

لدفينو : نعم قد انتهى .

شارل : بخير ؟

لدفينو : إن لله طرائق غريبة .

شارل : وكيف هذا ؟

لدفينو : فى المحاكمة القديمة قضى القضاة بالزندقة على قديسة ،

فأرسلت بسبب هذا إلى النار لتلقى جزاء الزنديقات الساحرات .

ففي تلك المحاكمة جرى الحق على ألسنة القائلين ، واجريت
الإجراءات في حدود القانون ، وبُذِل للفتاة فوق المألوف من
رحمة الراحين ، فلم يقع فيها من أخطاء إلا ذلك الختام الأسود
من حُكِم كاذب ونار تأكل ولا ترحم . أما في هذه المحاكمة
الحاضرة التي خَلَقَهَا الآن ورأى فقد وقعت فيها الأيمان الحائنة ،
والدعاوى الكاذبة ، ووقع فيها الفساد مزوّقا ، ووقع فيها تجميح
لموتى قاموا في إخلاص بما تراءى لهم أنه الواجب الذي لا مِرْيَةَ
فيه . ووقع فيها غير ذلك يامولاي خروج عن موضوع القضية
سؤال إليه الجبن ، ووقعت شهادات بأقاصيص لا تجوز على أبله .
ولكن أتدرى ماذا خرج من هذا التلويت للقضاء ؟ ومن هذا
التشنيع على الكنيسة ؟ ومن هذا المعتك الذي غلب فيه الكذبُ
والغباء ؟ خرج منه الحق أبلجَ واضحا كأنه قرة الجبل والشمسُ
من فوقه . خرج منه ثوب البراءة ، وقد غُسل ما عليه من سُخام
الخطب . حياة القديسة مُجِّدت . والقلب الصادق الذي عاش
رغم النار قد قُدِّس . والأكذوبة الكبرى قُطِع لسان من
افتراها إلى الأبد . والغلظة المظمي قد صُحِّت أخيراً على مشهد
من الناس أجمعين .

شارل : يا صديقي ، ما دام أن الناس لن تقول الآن إن التي

تَوَجَّهْتُ سَاحِرَةً زَنَدِيقَةً ، فَلَسْتُ أَبَالِي كَيْفَ حَلَلْتُمُ الْعَقْدَةَ .
وچان ما كانت لتبالي ما دام الختام طيباً . إنها لم تكن من هذا
الصف المزمّت . إني أعرفها جيداً . والآن هل تم ردُّ اعتبارها
إليها ؟ إني أوضحت لهم أني لن أقبل هَوَادَةَ فِي هَذَا .

لَدَيْنُو : نَعَمْ ، فَقَدْ أَعْلَنُوا عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ أَنَّ قَضَاتِهَا
الْأَقْدَمِينَ كَانُوا مُفْسِدِينَ غَشَّاشِينَ نَصَّابِينَ حَقُودِينَ . أَرْبَعَةَ
أَكَاذِيبَ يَا مَوْلَايَ .

شارل : لَا تَحْفَلْ بِهَذِهِ الْأَكَاذِيبِ فَقَضَاتِهَا قَدْ مَاتُوا .
لَدَيْنُو : لَقَدْ أَلْنِي الْحُكْمَ الْقَدِيمَ الْإِنَاءَ تَامَا ، وَاعْتَبِرْ كَأَنَّهُ لَمْ
يَكُنْ فَلَاقِمَةً لَهُ وَلَا أَثْرَ .

شارل : هَذَا جَمِيلٌ . إِذْنِ فَلَنْ يَسْتَطِيعَ الْآنَ أَحَدٌ أَنْ يَتَحَدَّى
صِحَّةَ تَتْوِيحِي ؟

لَدَيْنُو : تَتْوِيحُكَ الْآنَ كَتَتْوِيحِ الْمَلِكِ دَاوُودَ وَشَرْلَمَانَ .
كُلِّهَا فِي الْقَدْسِيَّةِ سِوَا .

شارل : هَذَا غَايَةُ الْأَمَلِ . تَصَوَّرْ خَطَرَ هَذَا عِنْدِي .

لَدَيْنُو : إِنْ أَتَصَوَّرَ خَطْرَهُ عِنْدَهَا .

شارل : إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ، فَلَيْسَ مَنَا مِنْ عَرَفَ كَيْفَ
كَانَتْ تَقْوَمُ الْأَشْيَاءُ . إِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ اخْتَلَفَتْ عَنْ كُلِّ النَّاسِ . وَهِيَ

لا بد كافلةٌ أمورَ نفسها بنفسها أينما حلت ، فأنا لا أستطيع أن أرهاها ، وأنت لا تستطيع أن ترعاها ، ومهما ظننتَ بها ، فأنتَ في نظرها دائماً دونها قدرأ . أنصتَ إلى ما أقوله فيها واحفظه عني : إنك لو استطعتَ بعثها من جديد فأنا ضامن لك أن هؤلاء الناس يحرقونها في ستة أشهر أو دونها برغم ما هم فيه اليوم من حبها وتقديسها ، وأنتك ستقوم بحمل الصليب عند حرقها كما فعلتَ في المرة الأولى ، فاقطع ما بينك وبينها ، ودعها وشأنها [يصلب على نفسه] مستريحةً في قبرها ، ودعنا من الخوض فيها ، فحسبُك شؤونك وحسبي شؤوني .

لدينيو : أعوذ بالله من قطعة تمنعني حظي منها ، أو تمنعها حظها مني . [ثم هو يدور فيتجه إلى الباب ليخرج في خطى واسعة ، كما دخل أولاً ، وهو يقول] مِنَ الآنَ لن تطأ قدمي أرضَ القصور ولن يجرى لساني بالحديث إلى الملوك .

شارل : [يتبعه إلى ناحية الباب وهو يصيح خلفه] أرجو لك الخير الكثير من ذلك يا ولي الله ! [يعود إلى وسط الحجرة ، ثم يقف يحدث نفسه] إن هذا رجل عجيب . كيف يا ترى دخل هنا ؟ أين رجالي [يذهب جازعاً إلى السرير فيهب الجرس . وعندها تهب في الحجرة من الباب المفتوح هبةٌ من الريح تضطرب لها الحوائط اضطراباً ،

وتنطقُ "الشروع فينادى في الظلام] هالو! أحداً يدخل فيُغلق! النوافذ
فالريح تطير بالأشياء . [يلع البرق فتضي النافذة ، فتظهر فيها صفحة
من شبح إنسان] من هذا ؟ من هنا ؟ الممونة ، النجدة ! قاتل !
قاتل ! [يقصف الرعد ، فيقذف بنفسه في السرير ويتسّر فيه باللائع].
صوت جان : مهلا يا شارل مهلا . ما هذا الصراخ . إنه لن
يسمعه أحد . أنت نائم [تترأى جان إلى جوار السرير في غير وضوح
كبير في ضوء أخضر باهت] .

شارل : [يُطلُّ من تحت اللحاف] جان ! أنتِ روحها يا جان ؟
جان : ولا هذه يا فتى . كيف تكون روحٌ لفتاة مسكينة
محروقة ؟ إنما أنا حلمٌ أنتِ حامله [يزيد الضوء ، ويمتدل شارل ويجلس ،
فيظهر الاثنان ظهوراً بيناً] أنتِ أكبر مما كنتِ يا فتى .

شارل : نعم قد زادت سنى . ولكن حدثيني ، أحقا أنا نائم ؟
جان : غلبك النوم وأنت تقرأ في كتابك السخيف .
شارل : هذا عجيب .

جان : أعجب منه أنى ميّنة .

شارل : أحقا أنت ميّنة ؟

جان : ميّنةٌ كأتمّ ما مات إنسان . لقد خرجتُ عن

جسدى .

شارل : عجيب جدًا والله . هل آلمك كثيرا ؟

جان : ما الذي آلمني كثيرا ؟

شارل : الحرق .

جان : آه ! الحرق ! إنني نسيت فإكاد أذكر . أعلن أنه
آلمني أولًا ، ولكن بعدها اختلطت الدنيا فلم أسترجع صوابي
إلا بعد أن خلصتُ من جسدي . ولكنني أوصيك ألا تلعب
بالتار فلنا منك أنها لا تؤلم . كيف حالك من بعدها ؟

شارل : حال لا بأس به . أتعلمين أنني قدتُ جيوشي بنفسى
وكسبت وقائع ؟ ونزلت في الخندق ، في الماء والدماء ، إلى
خصرى ؟ وصعدت السلم على جدران القلاع والسماء تمطر
حجرا وقطرانا ساخنا من فوق ؟ فعلتُ ما كنت تصنعين يا جان .
جان : حقا ! إذن فقد خلقتُ منك رجلا بعد بأس طال

يا عزيزي شارل .

شارل : أنا أسمى الآن شارل الفاتح . لقد وجب أن أتشجع
لأنك كنت شجاعة . كذلك أجنس Agnes حبَّتني بعض
الشجاعة .

جان : أجنس ؟ مَنْ أجنس ؟

شارل : أجنس سورييل Agnes Sorel . إنها المرأة التي

أحببتهما . أنا أحلمُ بها كثيراً — أنا لم أحلم بك قبل الآن أبدا .

جان : هل ماتت مثلى ؟

شارل : نعم . ولكنها لم تكن مثلك . إنها كانت جميلة جدا .

جان : [تضحك ملء فيها] ها ، ها ، أنا لم يكن بي جمال .

أنا كنت دائما جليقة جافية ، جنديّة في جنود ، حتى كدت أكون رجلا ، ويا ليتنى . فعندها ما كنت أحدثتُ لكم جميعا كل هذه

المتاعب . ولكن همّي كان في السماء ، ومجدُ الله ملء نفسي .

فرجلا كنتُ أو امرأة ، لم يكن بدّ من إزواجكم ما ظلت

أنوفكم في الوحل مفروزة . وعلى كل حال قل لي ماذا جرى بعد

أن ضاقت بكم الحيلُ معشرَ الحكماء فلم تجدوا منها مخلصا إلا أن

تصنعوا مني كومةً من رماد .

شارل : إن أمك وإخوتك طلبوا إلى المحاكم أن يعيدوا

النظر في قضيتك . فقضت المحاكم بأن قضاتك الأقدمين كانوا

مفسدين غشّاشين نصّابين حقودين .

جان : إنهم ما كانوا كذلك . إنهم كانوا جماعة من جهّال

مساكين لم يقلّوا إخلاصا عن نظائرهم ممن قضوا بحرق مخلوقات

هي خيرٌ منهم .

شارل : إن الحكم الذي أصدره عليك قد أُلغى إلغاءً ومُسح

مسحا ، فهو ممدوم كأن لم يكن ، فلا قيمة له ولا أثر .
جان : أنا أحرقتُ على كل حال . أيستطيعون إلغاء ما كان
من حرقى ؟

شارل : إنهم لو استطاعوا إلغاءه لترددوا فيه . إنهم قرروا أن
يقام صليب جميل حيث قام جذع الحريق ، وذلك للرحمة والذكرى .
جان : إن الصليب لا يبرّر الرحمة والذكرى ، بل الرحمة
والذكرى هما اللتان تبرران الصليب . [تدور مشيحةً عنه ، وقد غفلت
عنه] [إنى سأعيش في الناس فوق ما يعيش هذا الصليب .
وسيدكرنى الناس إذا أمتت رُؤانُ فلم يذكرُوا أين قامت .
شارل : ها أنتِ تروحين وغرور يومك كغرور أمسك ،
لم ينقص أبدا . كان بك أولى وأجل أن تشكرى لى صنيعى أن
حققتُ لك المدالةَ أخيراً .

كوشون : [يظهر عند النافذة ، بينهما] كذبت !

شارل : أشكرك .

جان : من هذا ؟ لكأنى به بطرس كوشون ! كيف حالك
يا بطرس ؟ وأى القِسم أعطاك الزمان بعد أن أحرقتنى ؟
كوشون : قِسمَة السوء . إنى أشكو عدل الإنسان . إنه
ليس من عدل الرحمن .

جان : ألا تزال تحمل بالعدل يا بطرس ؟ ألم تر ما جرّه العدل
على ؟ ولكن قل لي ماذا جرى لك ؟ أحيى أم ميّت ؟
كوشون : ميّت مهتوك العِرض مَهِين . لقد تبِعوني وراء
الموت ، فنبشوا قبري ، واستخرجوا جسدى ورموا به فى
المجارى التى تحمل أقدار الناس .
جان : جسّدك الميّت لم يُحسّ المِعولَ ولا المجارى كما أحسّ
النارَ جسدى الحى .

كوشون : ولكنها قفلةٌ تؤلم العدالة ، وتفسد الإيمان ،
وتزعزع أركان الكنيسة . إن هذه الأرض الجامدة لتبيد
كالبحر الخلّوان تحت أرجل الرجال ، أجسادهم وأرواحهم على
السواء ، إذا ما قُتل الأبرياء باسم القانون ، ثم بُرئت ساحتهم بتجريح
قوم بيض القلوب أطهار .

جان : على كل حال ، أرجو يا بطرس أن يصلح الناس على
ذكرى . وهم ما كانوا ليذكرونى لولا أنكم أحرقتمنى .
كوشون : سيفسّد الناس على ذكرى ، فهم سيرون فى
الشرّ ينتصر على الخير ، والكذب على الصدق ، والقسوة على
الرحمة ، وجهنم على الجنة . فهم إذا ذكروك انتعشت قلوبهم ،
وهى تنحور إذا ذكرونى . ومع هذا فالله يعلم أنى كنت عدلاً فيما

قضيت ، رحباً فيما أتيت ، مخلصاً في قرارة قلبي للذي ارتأيت ،
وما كان في طَوْقي أن أصنع غير ما صنعت .

شارل : [يخرج من الخفته في غير نظام ، ويجلس على جانب السرير
جلسته على سرير الملك] نعم ، نعم . إن أكبر الفساد يأتي منكم أتم
معشر الرجال الأخيار . انظرْ إليَّ . أنا لست شارلَ الخَيْرِ ، ولست
شارلَ الحكيم ، حتى ولا شارلَ الكاسر . بل إن عُبادِ جان قد
يسمونني شارلَ الجبانَ لأنني لم أنتشلها من النار . ولكني مع كل
هذا لم أفسد في الأرض كما أفسدتم . أنتم أيها الناس تضعون
رؤوسكم في السماء ثم تنظرون ، فتحسبون الدنيا قد انقلبت رأساً
على عقب ، فتتفقون العمر لتتعدلوها ، فإذا بكم تقلبوها . أما أنا
فأخذُ الأشياء كما وجدتْها . فرؤوس الأشياء ما أجده في أعاليها ،
وأرجلها ما أجده في أدانيها . وأحاول دائماً أن لا أرتفع ببصرى
كثيراً عن هذه الأرض . إني أسألكم برغم ما تأخذونه عليَّ ،
هل وجدتم أن ملكاً من ملوك فرنسا فعل خيراً مما فعلت ،
أو أحسن فيما قدَّره الله عليه فوق ما أحسنت ؟

جان : أنت ملك فرنسا الآن حقا يا عزيزي شارل ؟

أذهب الإنجليز عنكم ؟

دعوا : [يدخل بين الستائر على يسار جان ، تشتعل الشموع من

ذات نفسها فتضى درعه وعباءته فيشيعان البهجة في المكان [لقد
أنفذت وعدي . قد ذهب الإنجليز .

جان : حمداً لله ! ففرنسا الجميلة اليوم بقعة من بقاع الجنة .
حدثني عن الحرب يا چاك . هل أنت الذي قُذت الرجال ؟ هل
بقيت تقود جنود الله إلى يوم موتك ؟

دنوا : أنا لم أمت بعد . إن جسمي نائم مرتاح في فراشي في
شُتودان Chateaudun . إن روحك استدعت رُوحى هنا .

جان : قل لى هل حاربتهم على طريقتى يا چاك ، لا على
الطريقة العتيقة التي كان همها المزايدة في الفداء ؟ هل حاربتهم على
طريقة الفتاة : نفاطرتهم بالأنفس في سبيل الموت بقلوب مليئة
بالشجاعة فارغة من الأحقاد ، لا يهتمها بعد الله غير فرنسا حرة
والفرنسيين أحراراً ؟ أ كانت طريقتى يا چاك ؟

دنوا : كانت أية طريقة خلناها تؤدي إلى النصر . ولكن
الطريقة التي نجحت دائماً كانت طريقتك ، فاعلمي أنك أحسنت
الإحسان كله يا چان . إني كتبت عنك كتاباً جميلاً أرسلته إلى
المحكمة عندما جددوا محاکمتك ليردوا الأمور إلى نصابها . لعل
أخطأت لما تركت القسس يحرقونك ، ولكنى كنت مشغولاً
عنك بالحرب ، ورأيت أن هذا من شغل الكنيسة لا شغلي . ولم

أجد نفعا في أن نُحرق نحن الاثنين . أم ماذا ترين ؟
كوشون: نعم ، نعم ، ألقِ باللائمة على القساوسة . إنى أقولها
قولة مَنْ أصبح لا يطلب المديح ، ولا يخشى أن يُذمَّ بالقبيح :
إن خلاص الدنيا لا يتحقق على أيدي الجند ولا أيدي القساوسة ،
ولكن على يد الله وقديسيه الأطهار . إن كنيسة الله في أرضه
قد أرسلت هذه المرأة إلى النار ، ولكن النار شقت ، حتى وهذه
المرأة تحترق فيها ، فكانت وهاجة كالسراج ، واندلمت أستها
بيضاء تعلن نصر الكنيسة في السماء .
[تدق الساعة ثلاثة الأرباع ، فيسمع صوتُ خشن ذكْرٍ يعنى بلاء
فيه أغنية مرتجلة] :



طَمْ . طَمْ . بَرَبْرَ طَمْ لَمْ سَمْنُ سَلَقَمْ طَمْ
قَدَيْسُ مَعُوجِ الفَمِّ أَزْعَرُ هَوَزُ بَعْرُورَمْ
شُرْمُ بَرْمُ ، بَرَبْرَ طَمْ

[يدخل من بين الستائر جندي انجليزى غليظ المظهر عربيده ،
فيمشى بين جان ودنوا]

دنوا : أى شعور خبيث علمك هذا الشجر الخسيس ؟

الجندي : ليس في الأمر شاعر ، بل نحن الذين ألقناه ونحن
نسير في الصفوف . ولسنا من الأعيان ولا من الشعراء ، بل هي
الموسيقى تندفق بالطبيعة من قلوب الشعب :

طَمْ ، طَمْ ، بَرَبَزَ طَمْ لَحْمٌ سَمْنٌ سَلَقَمَ طَمْ
قَدِيسٌ مَعُوجُ الفم أَزْعَرُ هَوَزٌ بَعْرُورَمَ

فهذا كلام فارغ لا معنى له ، ولكنه يقوينا على السير .
سيداتي وسادتي ، أنا طَوْعُ أمركم . من منكم طلب قديسا ؟
جان : هل أنت قديس ؟

الجندي : نعم سيدتي ، قديس جاء توّا من جهنم .
دوا : قديس من جهنم !

الجندي : نعم ، أيها الضابط النبيل . أنا في يوم إجازة من
إجازاتي . إن لي يومَ إجازةٍ كلِّ عام . هذا جزائي الوحيد عن فَعَلَةٍ
الخير الوحيدة التي فعلتها في حياتي .

كوشون : أيها الشقي ، أفى كل سِنِي حياتك لم تفعل
إلا حسنة واحدة ؟

الجندي : أنا لم أفكر فيها ولم أقصد إلى عملها ، فهي إنما
جاءتني بالطبيعة ، ولكنهم حسبوها لي .

شارل : وما هي ؟

الجندي : فعلةٌ كأسخف ما تكون الفعلات ، كنتُ ...

جان : [تقطع عليه الحديث ، وتخطو إلى السرير وتجلس إلى جنب

شارل] إنه ربط عودين معا وأعطاها لفتاة كانت على وشك أن تحرق .

الجندي : هذا صحيح ، فمن أين جاءك الخبر ؟

جان : لا تبألِ من أين جاءني ، وقل لي أتعرفها إذا رأيتها ؟

الجندي : لا يستطيع مثلي أن يعرف كل الفتيات . إن الفتيات

كثيرات ، وكلهن ينتظرن من الرجل أن يدكرهن كأنما الدنيا بها فتاة واحدة . ولكن هذه الفتاة التي أحدثكم عنها لا بد أن

كانت من صنف ممتاز ، لأني من أجلها أستمع بيوم إجازة كل عام .

أنا الآن طليقٌ إلى الساعة الثانية عشرة تماما ، وفي هذه الفترة أنا

قدّيس ، فأنا في خدمتكم وطوع أمركم ياسادتي النبلاء وياساداتي

الجيلات .

شارل : وبعد الساعة الثانية عشرة ؟

الجندي : بعد الساعة الثانية عشرة أعود إلى المكان الأوّل

بأمثالي .

جان : [تهض] تعود إليه ! أنت ! أنت الذي أعطيت
الفتاة الصليب ؟

الجندي : [يعتذر عن فعلته كأنها عمل لا يليق بالجنود] ، وماذا
كنت أصنع . إنها هي التي طلبته . وكانوا على وشك إحراقها .
وكان حقها في الصليب كحق أيهم . وكان لديهم عشرات من
الصلبان . وكانت البليّة بليتها لا بليتهم . فأى ضرر في هذا ؟
جان : أيها الرجل ، أنا لا أومك . ولكني لا أطيق أن
أتصور أنك ستذهب إلى هذا العذاب .

الجندي : [في ابتهاج] إنه ليس بالمذاب الكبير يا سيدتي .
تفسير هذا أني تعودتُ عذاباً أكبر .

جان : عذاب أكبر ! أكبر من جهنم ؟

جندي : خمس عشرة سنة قضيتها في حروب فرنسا ، ثم
جاءت جهنم بعدها فكانت نعمة بالنسبة إليها .

[ترفع جان يديها توسلا إلى الله ، وتذهب إلى صورة العذراء تطلب
في كنفها الوقاية من بأس الإنسانية] .

الجندي : [يستمر] إن جهنم لسبب ما توافقني . ويوم إجازتي
كان علىّ ثقيلًا في البدء كأنه يوم أحدٍ كثيرٍ المطر . ولكني

اعتدته الآن . إنهم يقولون لى لىنى أستطيع طلب إجازات غيره
بمجرد إحساسى بالحاجة إليها .

شارل : كيف يجد المرء جهنم ؟

الجندى : لن تجد فيها كثيراً مما تكره يا سيدى . جوّها
مفرح . كأنك سكران دائماً دون أن تدفع للخمر ثمننا . وصُحبةٌ
من أرقى طبقة : أباطرة ، وبابوات ، وملوك من كل صنف . وهم
ينتهبوننى لأنى أعطيت الصليب لتلك الفتاة اللعناء . ولكنى
لا أعبأ بما يقولون . وأنهمض لهم فأقول : إن هذه الفتاة اللعناء
لها حق فى الصليب فوق حقكم ، فلولم يكن لها هذا الحق
لكانت هنا فى جهنم مكانكم . وهذا يقطع ألسنتهم ، فلا يستطيعون
إلا تحريق أضراسهم ، على طريقة أهل جهنم ، فأضحك منهم ،
وأنصرف عنهم وأنا أغنى أغنيتى القديمة : طَمْ ، طَمْ ، بَرَبْرَ طَمْ —
هالوا ! من ذا يقرع الباب ؟

[ينصتون ، فيسمع صوت قرع خفيف متصل] .

شارل : أُدْخِلْ .

[ينفتح الباب ويدخل قسيس عجوز أشيب ، وقد تقوس ظهره ،
وارتسمت على فه ابتسامة فيها البلاهة ممزوجة بحب الخير . يدخل وبعده
إلى جان] .

الزائر الجديد : عفواً سادتي وسيداتي . لا أودّ أن أقطع عليكم ما أتم فيه . أنا قسيس إنجليزي مجوز مسكين لا يُخشى منه ضرر . كنت في سابق أيامي قسيساً للكردنال : لمولاي كردنال ونشستر . أنا چون دي استوجبر ، في خدمة أسيادي . [ينظر فيهم متسائلاً] هل قلم شيئاً ؟ أنا متأسفٌ لأنني أصمُّ بعض الشيء . كذلك في شيء - كيف أقول - نعم ، قد لا يكون لعقلي دائماً كل صوابه . ولكن هذا لا ضرر منه ، فالقرية صغيرة وسكانها قليلون ، وأنا في الكفاية . نعم في الكفاية . إنهم فيها يحبونني ، وأنا بينهم أستطيع أن آتي ببعض الخير . ذلك أني متصل بأهل الجاه وهم يقبلون رجائي .

جان : مسكين يا چون . ماذا أدّى بك إلى هذا الحال ؟
دي استوجبر : إنني أسأل أهل قريتي أن يكونوا على غاية الحذر . أقول لهم : « إنكم إذا استطعتم أن تروا ما تفكرون فيه ، لفكرتم فيه على خلاف ما تفكرون . إنكم لو رأيتموه لهزّكم هزّةً عنيفة . أي نعم ، هزّةً عنيفة جداً . » فيقولون جميعاً : « نعم يا أبانا ، إنا نعلم أنك رجل رحيم ، وأنتك لن تؤذني ذباباً . » فهذا قول جميل يُريحني كثيراً . أنا بطبعي لست رجلاً قاسياً .

الجندي : ومن قال إنك قاس ؟

دى استوجبر : آه إني فعلت فَعَلَة قاسية مرَّةً ، لأنني لم
أكن أعرف كيف تكون القسوة . لأنني لم أكن رأيتها قط .
فترى من ذلك أنه لا بد لك من رؤيتها ، فإذا رأيتها فقد نجوتَ
واهدتيت .

كوشون : ألم يكن لك في آلام المسيح عبرةٌ كافيةٌ ؟
دى استوجبر : لا . لا . لا أبداً . إني رأيت آلام المسيح
في الصور ، ورأيتها في الكتب ، وتأثرتُ بها تأثراً كبيراً على
ما حسبت . ولكن لم يكن لشيء من هذا فائدة . فلم يَهْدِنِي
المسيح وما لاقاه من ألم ، ولكن هدتني فتاة رأيتها بعيني تُحرق
فتموت . منظر فظيع . أواه . فظيعٌ جداً . فهذا الذي هداني .
وبعد صرت رجلاً غير الذي كنته قبلاً ، ولو أن صوابي ينيب
عني أحياناً .

كوشون : أمعنى هذا أنه لا بد من مسيحٍ يُعَذَّبُ ويُقْتَلُ
في كل جيلٍ لِيَهْدِيَ مَنْ لا خيال لهم ؟
جان : إذا كنت باحتراقٍ قد نَجَّيتَ من كانوا يقيمون تحت
عذاب هذا الرجل إذا هو لم يرني أحترق ، فوالله ما كان
حرقى عبثاً .

دى استوجبر : لا . لا . لست إياها . أنا نظرى ضئيف

فلا أستطيع أن أتميز ملامحك . ولكنك لست إياها . لا . لا .
إنها أحرقت حتى لم يبق إلا رمادها . إنها ماتت . ذهبت .
ذهبت .

الجلاد : [يدخل من وراء ستارة السرير عن يمين شارل ، فيكون
السرير بينهما] إنها أكثر منك حياة أيها الرجل . إن قلبها أبي
أن يحترق ، وأبي أن يتقل في الماء فيغرق . إنى كنت أستاذاً في
صناعتي - كنتُ خيراً من جلاد باريس ، وخيراً من جلاد
تولوز ، ولكنى لم أستطع قتل الفتاة . إنها قاتمة حية في كل مكان .
الإرل ورك : [يدخل خطف البرق من وراء ستائر السرير من
الناحية الأخرى ، فيقف إلى يسار جان] سيدتى ، تقبلى تهنتى على ردِّ
اعتبارك . أحسُّ أن علىَّ لك اعتذاراً .
جان : ما عليك من شيء .

ورك : [فى لطف وانسراح] إن إحراقك كان إحراقاً سياسياً .
أوكد لك أنه لم يكن بينى وبينك كراهة شخصية .
جان : إن قلبى لا يحمل منك حفيظة يا مولاي .

ورك : جميل منك أن تلقينى بهذا الكرم ، فهو دليل على
حسن النشأة وطيب الارومة . ولكنى لا بدُّ لى من الإلحاح فى
اعتذار طويل . فالحق أن هذه الضرورات السياسية تنقلب أحياناً

فتكون أخطاء سياسية ، وهذه الضرورة بالذات كانت من أسوأ الأخطاء . فروحك يا سيدتى غلبتنا على أنفسنا برغم ما حملناه إليك من الخطب . والتاريخ سيدكرنى من أجلك ، لصلة أخشى أن لا تكون من أسعد الصلات .

جان : نم ، لم تكن بالضبط من أسعد الصلات أيها الرجل المهذار .

ورك : ومع هذا ، فهم إذا نصّبوك قديسة فسيرجع فضل هذا إلى ، كما يرجع إليك الفضل في تاج هذا الملك المبخوت .

جان : [تشيح عنه بوجهها] ليس لرجل فضل على ، والفضل كله لروح الله التى ملأتنى . ولكن كيف أكون أنا قديسة ! وماذا تقول القديسة كترينة والقديسة مرجريت إذا رأتا فتاة فلاحه تبحى فتأخذ مجلسا إلى جوارهما .

[يظهر فجأة أمامهم فى الركن الذى على يمينهم رجل عليه سيا الاكليروس ، فى سترة سوداء وسروال أسود ، وعلى رأسه قبعة طويلة على أسلوب القبعات فى عام ١٩٢٠ . وعندها يتحدثون فيه النظر ، ثم يظلم الضحك فيقههون] .

الرجل : لم هذا الضحك يا سادة ؟

ورك : أهنتك على ابتكارك زيا بلغ الغاية فى الإضحك .

الرجل: أنا لا أفهم. إنكم جميعاً في ملابس من صنع أهوائكم
لبستموها للتشكر والتلهي. أما أنا ففي زيّ محتشم .
دنوا: كل لباس من صنع الهوى ، وللتلهي ، إلا جلودنا .
الرجل: لا تؤاخذوني . أنا هنا في صدّدٍ واجبٍ جدّيّ ،
فلا أستطيع أن أدخل في مناقشات مستهترة . [يُخرج ورقة ، ثم
يستقيم في وقفته استقامة جافة يقتضها واجبه] إني أرسلتُ لأعلن في
الملا أن جان درك ، المشتهرة فيما مضى بالفتاة ، بناء على تحقيق
أمر به أسقف أرلين

جان: [تقاطعها] آه ! إنهم لا يزالون يذكرونني في أرلين .
الرجل: [يؤكد الكلمات إظهاراً لغضبه من المقاطعة] — أمر به
أسقف أرلين للنظر في دعواها القداسة
جان: أنا لم أدع شيئاً أبداً .

الرجل: [بمثل توكيده الفأث] — قد بحثت الكنيسة دعوى
جان درك المذكورة بحثاً دقيقاً بالطريقة الممهودة . فيما أن
الكنيسة قد منحتها على التتالي رتبة المحترمة ، ثم رتبة المباركة ،
فقد رأت أن تعلن في الناس أنه كان لجان المذكورة صفاتٌ
للبطولة وتجلياتٌ للوحي اختصتها بها العناية الربانية ، ورأت أن
تدعو جان المحترمة المباركة المذكورة إلى الدخول في شعب الدولة

المسيحية في السموات العلى باعتبار أنها القديسة جان . . .

جان : [في ذهول] القديسة جان !

الرجل : وبما أن اليوم الثلاثين من مايو هو يوم وفاة المذكورة بنتِ الله ، الطاهرةِ المطهَّرة ، فقد تقرر أن تُعقد لذكراها صلاة خاصة في كل كنيسة كاثوليكية في الثلاثين من مايو من كل عام إلى آخر الزمان . وقد أصبح من الجائز الذي يُقره القانون أن توهبَ المعبدُ باسمها ، وأن تخصص لها ، وأن توضع صورتها على مذابح هذه الكنائس . وقد أصبح من الجائز الذي يقره القانون ويدعو إليه الدين أن يركع لها المؤمنون ، ويصلُّون بدعواتهم وصلواتهم عن طريقها إلى رب العرش في السموات العلى . . .

جان : لا ، لا إن القديسة هي التي تركع [تسقط على ركبتيها وهي لا تزال في ذهول] .

الرجل : [يُشهر الورقة وهو يتنحى جانبَ الجلاد] تحرَّر في الكنيسة البازيليكية بالفاتيكان في اليوم السادس عشر من الشهر مايو من عام ١٩٢٠ .

دنوا : [يرفع جان] نصفُ ساعة كَفَّتْ لِحرقك ، ولكن

لظهور الحقيقة فيك احتاج الناس إلى أربعة قرون يا قديستي
العزيزة .

دى استوجبر : سيدى ، أنا كنت مرة قسيس كردنال
ونشستر . وكانوا يلقبونه دائماً ويلُخون في تلقيبه بكردنال انجلترا
فأنا وسيدى الكردنال نرتاح جميعاً إذا ارتفع للفتاة تمثال جميل
في كندرائية ونشستر . فهل تظن أنهم يقيمون لها تمثالا هناك .
الرجل : لا أستطيع أن أقول ، فالكندرائية التي تذكروا وقعت
مؤقتا في أيدي الزنادقة الانجليكانيين .

[تظهر من النافذة صورة كالطيف للتمثال الموجود بكندرائية
ونشستر] .

دى استوجبر : انظروا ! انظروا ! هذه ونشستر .
جان : أهذا تمثالي ؟ إني كنت أصلب من هذا على رجلى .
[يخفى الطيف]

الرجل : قد سألتى رجال السلطة الزمنية بفرنسا أن أذكر
أن تمدد التماثيل للفتاة يكاد يسد حركة المرور . فأنا أذكر هذا
مجاملة لهم ، ولكن لن يفوتنى أن أقول بالأصالة عن الكنيسة
إن حصان الفتاة لن يقف في سبيل الحركة ويشلها أكثر من
غيره من الأحصنة .

چان : أنا مغتبطة بأنهم لم ينسوا حصاني .
[يظهر طيف لتمثال كتدرائية رانس] .

چان : أهذا الشيء القليل المضحك أنا ؟

شارل : هذه كتدرائية رانس حيث توجّجتى . فهذا لا بد
تتألك .

چان : من كسر سيفي ؟ إن سيفي لم يكسر أبداً . إنه سيف
فرنسا .

دنوا : لآخزنى ، فالسيوف يمكن إصلاحها . إن روحك لم
تُكسر أبداً ، وأنت روح فرنسا .

[يختنى الطيف . وعندئذ يظهر المطران والحقق على يمين كوشون .
وشماله] .

چان : إن سيفي لم تفرغ بعدُ فتوحاته ، وهو الذى لم يرتفع
لضربة أبداً . إن الناس أتلفوا جسدى ، ولكنى رأيت الله بروحى .
كوشون : [يركع لها] إن القتيات فى الحقول يَحمدونك ،
لأنك رفعتِ أبصارهن فعرفن أن ليس بينهن وبين الله حجاب .
دنوا : [يركع لها] إن الجندي يحمدونك وهم يحتضرون ، لأنك
عنوان مجدهم يوم الدين .

المطران : [يركع لها] إن أمراء الكنيسة يحمدونك ، لأنك

غسلت الملة من أحوال أصابها بها حبثهم لدنياهم .

ورك : [يركع لها] إن النصحاء المكرة الخبثاء يحمّدونك
لأنك قطعت العقّد التي زمّوا بها أرواحهم .

دى استوجبر : [يركع لها] إن الرجال الشيوخ الحمق
يحمّدونك وهم على فراش موتهم ، لأن سيئاتهم فيك انقلبت
حسنات .

المحقق : [يركع لها] إن القضاة في عمّاية القانون وأسرهم
يحمّدونك لأنك أطلقت رأى الفرد من قيده وروح الإنسان
من عقابها .

الجندي : [يركع لها] إن الأئمة خارج جهنم يحمّدونك ،
لأنك أريتهم أن نار السعير التي لا تحمد أبداً ناراً مقدّسة .

الجلاد : [يركع لها] إن الجلادين والمعدّيين يحمّدونك لأنك
أثبتت أنهم أبرياء مما قتلت أيديهم من النفوس .

شارل : [يركع لها] إن المتواضعين غير الأديعاء يحمّدونك ،
لأنك حملت عنهم في شهامة أعباء ناءوا بحملها .

جان : الويل للناس إذ يحمّدني الناس جميعاً . فتّقوا أذهانكم
واذكروا أنى قديسة ، وأن القديسات تقدّر أن تأتي بالمعجزات .

والآن حدثوني بالذي ترون : هل أنهض من بين الأموات وأعود
فيكم إلى الحياة ؟

[ينهض الجميع مذعورين ، وعندئذ يهبط على المكان ظلام فاجئ
تمجى معه الحيطان فلا يرى إلا السرير والرجال] .

جان : ماذا جرى ! هل لا بد من حرق مرة أخرى ؟ أليس
لى عند أحدكم كنف رحيب ؟

كوشون : الموت خير للزنادقة . إن عيون أهل الدنيا
لا تميز بين الزنديقة والقديسة ، فارحمهم [يخرج من حيث أتى] .
دنوا : اعذرنا يا جان فنحن لا نزال غير أهل لك . أنا حائد
إلى فراشي [يخرج هو أيضاً] .

ورك : إننا نأسف على أخطائنا الصغيرة . ولكن الضرورات
السياسية لا بد منها ولو أخطأت أحياناً . لهذا تفضلني فأذني لى ..
[يخرج بخفة وقد تبين الحكمة فى الخروج] .

المطران : إن رجوعك لن يجعل منى رجلا كالذى ظننتنى
إياه . وكل ما أقوله أنى إذا لم أجسر على مباركتك ، فإنى مع هذا
أرجو أن ينالنى حظ من بركتك . وإلى أن يحين أو ان هذا فإنى ...
يخرج .

المحقق : إنى فى الأموات ، وقد شهدت بأنك ساذجة بريئة

ولكنى مع كل هذا لأرى كيف يمكن الاستثناء عن ديوان
التحقيق والأحوال هي ما هي . لهذا . . . [يخرج] .

دى استوجبر : أرجو أن لا تعودى . يجب أن لا تعودى
فلا بد أن أموت مطمئنا . اللهم أنزل على عبادك السلام [يخرج] .

الرجل : إن الرأى برجوعك إلى الدنيا لم يخطر لهم على بال
عند ما نصبوك قديسة ، فلا بد لى من الرجوع إلى روما للحصول
على تعليمات أخرى [ينحنى المنهاة رسمية ثم يذهب] .

الجلاد : أنا جلادُ أستاذ في صناعتي ، فلا بد لى من التفكير
في صالح مهنتى . وعلى كل حال فواجبى الأول لأولادى وزوجتى .
أهلىنى للتفكير [يذهب] .

شارل : عزيزتى المسكينة جان . لقد هربوا منك جميعاً إلا
هذا الجندى الحقير الذى لا بد له أن يمود إلى جهنم إذا اتصف
الليل . فإذا بقى لى أنا أن أصنعه إلا أن أتبع دُنوا فأذهب إلى
فراشى كما ذهب [يذهب إلى سريره] .

جان : [وهى حزينة] طاب لك الليل يا شارل .

شارل : [يتم كالنعسان وقد دفن رأسه فى وسادته] طاب ليلك
[يذهب فى النوم فيكفُ الظلامُ سريره] .

جان : [إلى الجندي] وأنت يارجلأى الوحيد ، ماذا عندك من
الساوى للقديسة جان ؟

الجندي : قولى لى ، ما قيمة هؤلاء الملوك والضباط
والأساقفة والمحامين وأمثالهم ؟ إنهم يتركون الجنديّ منا فى الخندق
يدعى إلى أن يموت ثم هم يلقونه بعد ذلك فلا يجد منهم إلا خدوداً
مصعرة وأنوفاً عالية . إنى أرى أن حقلك فى التمسك بأرائك مثل
حقهم فى التمسك بأرائهم ، أو هو أكبر من حقهم [يجلس كمن
استقرّ لإعطاء محاضرة طويلة فى الموضوع] . المسألة يمكن إيضاحها على
النحو الآتى . فإذا . . . [تسمع الساعة من بعيد تدق الدقة الأولى مؤذنة
بانتصاف الليل] لا تؤاخذينى . موعدٌ لا بد من وفائه [يخرج على
أطراف أصابعه] .

[تنجم الشعاعات المختلفة من النور فتتركز على جان ، من فوقها ،
فتراعى بيضاء ناصعة البياض . أما الساعة فتدوم على دقاتها] .

جان : أى ربّ ، وقد خلقت هذه الأرض الجميلة ، متى
تستقبل هذه الأرضُ قديسيك بالترحاب ؟ متى يارب ، متى ؟

مقدمة المؤلف^(١)

جان ذات السجايا الأصيلة والطبع المنطرس

جان دَرَكْ ، فتاة قروية من الفوج^(٢) Vosges ، وُلدت في نحو عام ١٤١٢ ، وأُحرقت بتهمة الزندقة والسحر والعرافة في عام ١٤٣١ ، وبُرئت ساحتها نوعاً ما ، وأعيدت إلى شيء من مكانتها عند الناس في عام ١٤٥٦ ، ولُقِّبت «مكرمة» عام ١٩٠٤ ، واذن في الناس بأنها «مباركة» في عام ١٩٠٨ ، ثم قُدِّست أخيراً في عام ١٩٢٠ .

وهي أشهر مجاهدة قديسة في تاريخ النصرانية ، وأغرب شخصية بين الكفائيات الممتازة الشاذة الأطوار في القرون الوسطى . وكانت تعتنق الكشلكة باعترافها ، وكانت شديدة التقوى فيها ، وبدأت حرباً شعواء على أتباع هوس^(٣) Hus ، ولكنها

(١) لم نُؤخر هذه المقدمة عن الرواية في الطبع لأنها دون الرواية قدرأ .
فقد مات برناردشو لرواياته تأليف تصلح أن تستقل بذاتها من حيث أقدارها . ولكن أخرناها ليكون القارئ أهم لها بعد قراءة الرواية . وفي المقدمة ما يدل على أن كاتبها يفرض أن القارئ عالم بها أو أنه رآها تمثل على المسرح .

(٢) مقاطعة شرقية من مقاطعات فرنسا .

(٣) هو المصلح الديني الشهير ، ولد في بوهيميا عام ١٣٧٣ وأُحرق حياً =

مع كل هذا كانت في الواقع من شهداء البروتستنتية السابقين وكانت كذلك إحدى رُسل الوطنية الأولين . وكانت من الفرنسيين أول من طبق المذهب الواقعي في الحرب على نحو ما فعل نابليون ورفضت أسلوب زمنها في القتال ، وقد كان على نظام الفراسة والفرسان رياضةً وهواً ، وكان رهاناً ومقامرة ، يأسرون فيه ويؤسرون ، فيفتدون ويُفتدون ، ثم يعودون بالفدى إما كاسيين وإما خاسرين . وكانت أول من ارتأت رأياً جديداً في زى النساء : أن يبدلن ملابسهن بملابس أليق بهن وأوفق لهن . ورفضت أن يكون لها حظ النساء فعاشت كالرجال تلبس ما يلبسون وتحارب كما يحاربون ، فسبقت في ذلك الملكة كرسيتينا^(١) ملكة السويد بقرنين ، دع ما كان من الفارس ديون^(٢) Chevalier D'Eon ومن العدد العديد من بطلات أُنثيات

= من أجل تلاميجه عام ١٤١٥ . تعلم في جامعة براغ ثم كان مدرساً فيها ثم عميداً لكلية الفلسفة بها ثم مديراً للجامعة . وطرده البسايا من الكنيسة صرتهن ثم حوكم وأُحرق وذرى رماده في نهر الرين .

(١) هي ملكة السويد ولدت عام ١٦٢٦ وماتت عام ١٦٨٩ . تولت الملك وسنها ١٨ سنة وأحسنت فيه إحساناً كبيراً وكانت ترعى العلوم والفنون وأربابها . وطلبت رعيتهما منها أن تزوج فرفضت الزواج كرهاً له . وتزوجت عام ١٦٥٠ واتخذت لنفسها لقب « ملك » . وفي عام ١٦٥٤ اعتزلت الملك وساحت بقية عمرها في أوروبا واعتنقت المذهب الكاثوليكي فيها .

(٢) هو فرنسي ذو شخصية هزلية تفوق فارساً وقانونياً ودبلوماسياً . ولد =

خاملات الذكر تسترن فتزيّن بزى الرجال ليخدمن في البحر والبر
بجّارة وجندا . وجاهدت أن تفرض نفسها ودعاواها على الناس
فرضا في كل هذه المناحي ، فشاع اسمها وذاع في غرب أوروبا ولم
تكن بلغت بعدُ المشرين ربيعاً ، والحق أنها لم تبلفها أبداً . فلا
غربة بعد هذا أنها حُومت ثم أُحرقت . وكانت حجّة قضاتها
في الظاهر أنها ارتكبت عدّة من جرائم كبرى لا نعدّها نحن
اليوم جرائم كبرى ولا نعاقب عليها بمثل ما عاقبوا ، ولكنهم
أحرقوها في واقع الأمر لظنهم لا تطاق فيها وتبيح لا يُغتفر
من أنثى . وهى في سنّها الثامنة عشرة ادعت لنفسها ما لا يدعيه
أكثر البابوات إعجاباً بنفسه ، وفوق ما يدعيه أكبر القياصرة
إدلالاً بسلطانه . فادعت أنها رسول الله وسفيره المفوض وأنها
في الواقع عضو من كنيسة الله في السموات المُلى وهى لا تزال
في صورة اللحم على هذه الأرض . ونصّبت نفسها وصية على

= عام ١٧٢٦ . وأرسل عام ١٧٥٥ في مهمة شاقّة في بلاط روسيا نلبس لها ملابس
النساء . وعين أخيراً سفيراً لانيجلترا ثم اختلف مع حكومته ففارقتها وعاش في لندن
في شبه نفي . وفي هذه المدة كان يلبس ملابس النساء أحياناً حتى شك الناس في
رجولته . وعاد إلى فرنسا عام ١٧٧٧ فأمر بأن يظل يلبس ملابس النساء ثم عاد إلى
انيجلترا وهو امرأة حيث مات في فقر مدقع عام ١٨١٠ . وأثبت الكشف الطبي عندئذ
سلامة رجولته . ويظهر أن المستر برنارد شو لا يؤمن بما أثبتته الكشف الطبي .

مَلِكُهَا . وأرسلت إلى ملك الإنجليز تأمره بالتوبة وبالطاعة
لأمرها . وخطبت القساوسة والساسة فألقت عليهم الدروس
والمواعظ ، فإن حاجَّوها أسكتتهم ، وإن ناهضوها نحتهم .
وأطلعها قواد الجيش على خُطَطهم فسخرت بها وبهم ، وسلبت
منهم جنودهم فقادتهم إلى النصر على خُطَط من عندها . وكانت
تحتقر رجال الحكم ، آراءهم وأحكامهم وسلطانهم . وتهزأ من
رجال الحرب وما يدبِّرون من حِيَل الحرب وأفانينها ، وكانت
تعالى في احتقارها وهزُّها وتظهرهما في الناس إعلناناً . فلو أنها
أوتيت الحكمةَ والمَلِكَ معاً ، فاجتمع في صلبها جلالُ الكهنوت
ومجد الملوك ، إذن لمكَّرت صفو الحكومة بدعاواها وغطرستها
وسلوكتها تمكيراً شديداً ، ولأقلقت بالها بمثل ما أقلق قيصر
Caesar^(١) بدعاواها وغطرسته بالـ كسيوس Cassius^(٢) . ولكنها
نهضت من الحضيض إلى العلاء نهضة باغثة ، فلم يكن للناس فيها
إلا رأيان ، رأى يقول إنها آية من آيات الله ، ورأى يقول إنها
امرأة ثقيلة الظل لا يطيقها إنسان .

(١) هو يوليوس قيصر دكتاتور روما القديم الشهير . وكسيوس عدوه
وصاحب المؤامرة التي قضت على حياة قيصر قتلاً بالخنجر في اجتماع السيناتور الروماني
في ١٥ مارس سنة ٤٤ قبل ميلاد المسيح .

جان وسقراط

لو أن جان كان بها حب الذات ، أو لو أنه كان بها خبائة أو جبن أو نذالة أو غباوة لكانت من أبغض الشخصيات التي عرفها التاريخ لا من أحبها . ولو أنها كانت من السن بحيث تعرف الأثر الذي تحدثه في الرجال عند ما تصيب ويخطئون ، وتدرک شعور الذلّة التي كانوا به عند ذلك يشعرون ، أو لو أنها عرفت كيف تملّقهم وتسوسهم ، إذن لعاشت طويلاً بقدر ما عاشت الملكة إليصابات^(١) Elizabethi . ولكنها كانت صغيرة السن ، وكانت ساذجة قليلة التجريب ، فلم يكن بها شيء من تلك الصناعات والمدهانات . فإذا عارضها معارض فظنت الحماقة فيه ، لم تستطع عليه صبراً ، وصارحته بأنه أحمق وبأنها لا صبر لها عليه . وكانت من السذاجة بحيث أنها كانت كلما قومت للرجال معوجاً ، أو حتمهم مواقع الزلل والإضرار ، حسبت أنها أسدت إليهم جيلاً فاستوجبت عليهم شكراً . وليس هذا بغريب ، فالعقول الكبيرة الرجيحة يصعب عليها دائماً فهم ما تستثيره من حقد وما توقده من غضب بفضحها جهالات قوم

(١) ملكة الإنجليز وقد تولت الحكم من عام ١٥٥٨ إلى عام ١٦٠٣ .

ذى عقول أخف في الميزان وزناً . حتى سقراط^(١) على ما بلغ من سن كبيرة وما كسب من خبرة طويلة ، لم يدافع عن نفسه لدى محاكمته دفاع رجل فقهٍ هذا وقدّر الغضب الطويل المركوم الذي رَكَمته ضدّه السنون حتى انفجر مُدَوِّياً يطلب موته . وما كان الرجل الذي قام على اتهامه في تلك المحاكمة بندي الخطر الكبير ، فلو أنه وُلد بعد عصره بثلاثمائة وألْفِي عام لكان كبعض من نلقاهم اليوم في عربات الدرجة الأولى من قُطُر الضواحي غادين إلى المدينة^(٢) في زحمة الصباح الأولى أو رانحين عنها في الأمساء . فلم يكن لديه في الواقع ما يقوله في اتهامه إلاّ أنه وأشباهه لا يطيقون أن يفتضحوا فتنشّر غباواتهم وتُعرّى سواتهم كلما فتح سقراط

(١) سقراط هو الفيلسوف الإغريقي الشهير . ولد في أثينا حول عام ٤٦٩ قبل الميلاد . وكان نحائناً فناً وكان جندياً شجاعاً ثم قاضياً . واختلف مع رجال الحكم فاعتزل الحياة العامة وعلل ذلك بأن صوتاً في ضميره دعاه إلى ذلك . وأخذ في التذك فنجح في التغلب على شهواته وكانت حادة بطبيعتها . وكان لا يكتب شيئاً عن فلسفته فلم يخلف للناس شيئاً منها . ولكنه كان يدور بين الناس يباحثهم ويناقشهم فلم يصمد له في النقاش أحد فأثار عليه ذلك حقد الكبراء وخلق له الأعداء . وفي عام ٣٩٩ قام رجل من قادة الدماء يتهمه بانكار دين الأمة وإفساد شبابها . فدافع سقراط عن نفسه وقال إن رسالته نحو الجهل الشائع ومقصده خير الناس وإن حياته بركة على الأثينيين فلو أُنْعِي من الموت جاهد في ذلك ما استطاع . ولم يعبأ بالموت . وحكم عليه بالموت ورفض فرصة هيئت له لهربه . وبعد ثلاثين يوماً من حكم الأعدام شرب السم وهو هادي النفس رزين فات في عامه السبعين سنة ٣٩٩ قبل الميلاد .

(٢) يقصد بالمدينة لندن . وهذا تهرِيس رجال الأعمال في لندن من ذوى الثراء والنباء على ما يرى شو .

فاه . ولكن سقراط لم يدرك هذا ولم يخطر شيء منه على باله ، فأعجزه إحساسه بقصوره عن فهم مراعى هذا الاتهام إيجازاً كبيراً . ومضى يُثبت أنه جندي قديم ، وأنه رجل طاهر الذيل شريف العيش ، وأن متهمة صلف غبي ، فلما أثبت من ذلك ما أراد ، كان في إثباته هلاكه والقضاء عليه . قضى عليه جهله بمبلغ ما أثاره رجحان عقله في قلوب الرجال من خوف وكره . وما كان يحمل سقراط لهم في قلبه إلا الخير ، وما كان يدرك إلا أنه أسدى إليهم كل معروف .

فرق ما بين چان وبين نابليون

وإذا كان سقراط بعثل هذه السذاجة في مثل هذه السن ، فتصور كيف كانت سذاجة چان في السابعة عشرة . كان سقراط رجلاً ذا حجاج ونقاش ، وكان يؤثر في عقول الرجال في بطن وسكون . أما چان فكانت امرأة عمالة تعمل في أبدان الرجال بشدة وفي غير هواة . وهذا لا شك هو السبب في أن سقراط احتمله معاصروه عصراً طويلاً ، أما چان فأعدموها وهي لم تشب وتكتمل . ولكن كليهما جمع إلى مقدرة مُحيفة صراحة وتواضعاً وميلاً للخير كان من غير المعقول أن يؤدي بهما إلى

تلك الكراهة الغاضبة التي أهلكتها . فهما لهذا لم يفهما لتلك الكراهة سبباً أو معنى . ونايليون كانت له مقدرة خفيفة كالتى كانت لهذين ، ولكنه لم يكن مصارحاً مجاهرآ ، وكان مغرضاً فلم يندع فى رواجه عند الناس ولم يخطئ معناه أبداً . وسئل مرة كيف يتصور حال الناس إذا تلقت نعيه فقال سيتنفسون الصعداء . ولكنه من الصعب على أصحاب العقول الجبارة الذين لا يفضون ولا يؤذون أن يتصوروا أن رفقاءهم على الرغم من هذا يكرهون جبارة العقول ولا يألون جهداً فى إهلاكهم ، لا عن حسد فحسب ، ولا لأن وضعهم إلى جنب رجال أعلى منهم منزلة وأسمى يجرح نفوسهم ، ولكن لأنهم بكل بساطة وبكل إخلاص وصراحة يخافونهم ويخشون من مكانهم إلى جانبهم . والخوف يدفع بالخلاق إلى الغلو ويجمع بهم إلى أبعد الحدود ، والخوف الذى يثيره ذو المكانة الأسمى ظاهرة معضلة من ظواهر النفس لا يمكن بالنطق تفسيرها . وبما أنه خوف لا حد له فهو لا بد بالغ كل مبلغ ، خارج عن كل طوق ، إذا لم يكن عند الخائفين الهالعين ما يخفف من حدته ويهون من سورته ، كاسباب تحملهم على أن يفترضوا قصد الخير أو يكفؤوه فيمن أثاروا خوفهم ، أو تبعه أدبية يحملها هؤلاء يفترضها الخائفون

أو يكفلونها فيهم . واختصاراً يبلغ هذا الخوف ما يبلغ إذا لم يكن
باعثه ذا مقام رسمي يبعث في الناس شيئاً من ضمان واطمئنان .
ولنضرب مثلاً لذلك هيرودس^(١) Herod وبيلاطس^(٢) Pilate ،
وكذلك حنّان^(٣) Annas وقيافا^(٤) Caiaphas ، سموا جميعاً على
قربانهم سموّاً رسمياً شرعياً وكذلك عرفياً فكان سموّاً أثار خوفاً ،
ولكنه كان خوفاً محتملاً لأنه كان خوفاً معقولاً من عواقب
محدودة متقاة ، تراءى أنها قد تكون مجلبة للخير ومدفعةً للسوء .
أما المسيح فإن سموّه في غربته أربّ كل من لم يتحسسوا فيه
معنى الخير ، فكان جزاؤه منهم صريح الفزع الهلع : أن اصلبوه .

(١) ملك اليهود من عام ٤٠ إلى ٤ قبل الميلاد ، بدأ بحكم طبرية ثم تدرج إلى
أن صار ملكاً بعمونة أنتوني الروماني . كان ذا كفاية ممتازة في السياسة والحرب
والعمارة أكتسب اليهود مجداً كبيراً ولكنه كان ذا شهوة عنيفة جامحة حدث به إلى قتل
زوجته وأخاها وجدها وأبها وأولاده منها . ومات عند مولد المسيح عليه السلام .
(٢) هو والى أورشليم الروماني وقت محاكمة المسيح . جاء في إنجيل متى :
« ولما كان الصباح تناور رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يدوع حتى يقتلوه
فأوثقوه ومضوا به ودفعوه إلى بيلاطس النبطي الوالي » . وجاء فيه بعد هذا ما يدل
على تلكؤ بيلاطس في الحكم بالاعدام على عيسى وميله إلى العدالة ، ولكنه وقع عليه
الحكم أخيراً لما خاف هياج الشعب . وجاءه في المساء رجل غني من الرامة اسمه يوسف
كان تلميذاً ليسوع ، فطلب إلى بيلاطس جسداً من صلب فأمر بالجسد أن يسلم إليه .
(٣) قيافا كان رئيس كهنة أورشليم الذين تألبوا على قتل المسيح . وحنان
حموه . وإلى حنان هذا ساق الجند المسيح بعد أن قبضوا عليه في البستان ، فأرسله
حنان إلى قيافا فسأله عن تلاميذه ثم أرسله إلى الوالي بيلاطس حيث حكم عليه بالاعدام .
جاء في إنجيل متى : « ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه
ومضوا به إلى حنان لأنه كان حياً قيافا الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة » .

شرب سقراط كأسه ، وقتل المسيح صبوا على صليبه ^(١) ،
وأُحرقت جان على ركازتها ، على حين أن نابليون يموت على فراشه
حتف أنفه بنفض النظر عما كان من أسره في جزيرة سانت هيلينا
St Helena ، وعلى حين أن العدد العديد من أوغاد رسميتين يقومون
في الناس فيخيفون ويُذعرون ولكنهم لأسباب ظاهرة يموتون
حتف أنوفهم في أوج الملك وسلطان الأمم ، مثبتين بهذا أن
القديسين أقرب إلى التهلكة من الغزاة الفاتحين . أما الذين جمعوا
إلى القداسة غزوة الغزاة كحمد وجان فقد أدركوا أن القداسة
لا بد أن تُحمى بالغزو ، وأن الشهادة في الهزيمة والأسر . فأُحرقت
جان ولم ترفع يده في أصحابها لخلاصها . فالرفقاء الذين اتبعوها إلى
النصر ، والأعداء الذين اقتضحوا بها في الهزيمة ، وملك الفرنسيين
الذي توجهه ، وملك الإنجليز الذي رفست بتاجه في اللوار ، كل
هؤلاء كانوا سواء في النبطة بقطع دابرها .

أ كانت جان بريئة أو مذنبه ؟

وتلك حالة ما كانت تصير إليها جان إلا بسبب تدن في
سفه وإسراف وفساد ، أو بسبب تفوق يسمو إليه كل نبيل
طاهر . فأى هذين العاملين دفع بها إلى ما لها المعروف ؟ سؤال

(١) مكنا يرى المؤلف .

لا بد من مواجهته . وقد واجهه معاصروها وأجابوا عنه في غير صالحها بعد محاكمة غاية في الدقة غاية في العدالة . ومضى خمس وعشرون سنة بعد ذلك ففضى القوم في أمرها بنقيض ما قضت به المحكمة الأولى ، بأن « ردّوا اعتبارها » إليها ورفعوها إلى مكاتبا الأولى من احترام الناس وإجلالهم . ولكن الذين قضوا بهذا الحكم لم يقصدوا منه ظاهره ، وإنما أرادوا به توكيد ما كان من تتويج شارل السابع وتصحيحه . ثم جاء بعد هؤلاء خلف أجمعوا على تبرئتها ونقض ما كان من تجريمها فكان نقضاً نفخاً مؤثراً عما عنها كل شائبة ، وانتهى إلى تقديسها ، وأدّى عدا هذا إلى اتهام قضاتها الأقدمين اتهاماً لم يزل إلى اليوم أكثر إجحافاً وأقل إنصافاً من اتهامهم القديم إياها . ومهما يكن من فساد والتواء في « ردّ اعتبارها » الذي كان في عام ١٤٥٦ ، فإنه أظهر للناس أدلة تكفي لإقناع كل نقاد متّزن معتدل بأن جان لم تكن امرأة صخّابة سليطة ، ولم تكن عاهرة ولا ساحرة ولا كافرة ، ولم يكن لها من عبادة الأوثان إلا بمقدار ما للبابا منها إن كان له فيها نصيب ، ولم تسلك قط سلوكاً معيباً إلا أن تكون احترفت الجندية ولبست ملابس الرجال وإلا أنها تهجّمت وتجرأت . ولكنها برغم هذا كانت لطيفة المزاج

بشوشة ، وكانت بكرأ عذراء ، وكانت تقيّة ، وكانت لاتشرب
الحمر إلا قليلا (كان طعامها خبزاً مغموساً في خمر فرنسا العادية ،
وهي ماء الشراب عند الفرنسيين ، فهل كان هذا إلا تقشفاً ؟)
وكانت شفوقة رحيمة . وبرغم جنديتها وشجاعتها وشدة
مِراسها في الحرب كانت على نقيض الجندي لا تحتل السّفّة في
القول ولا الخلاعة في السلوك . وذهبت إلى مصرعها شريفة
الذيل طاهرته إلا من عبقرية بالغة هي التي صيرتها إلى ما صارت
إليه . فمن المبت بعد هذا إضاعة الوقت في تَخْطِيء ما جاء عنها
في الجزء الأول من الرواية التاريخية « هنري السادس » التي
ظهرت في عهد الملكة اليصابات ^(١) ونُسبت زعماً إلى شيكسبير ،
فقد صورتها مناظرها الأخيرة بصور مزرية قدرة إرضاء
لوطنية ^(٢) حادة ضلّت سواء السبيل . وقد غسلت السنون عن
جان كل الأدران والأقذار التي أهيلت عليها فلم يبق لكاتب
حديث ما يفسله . وإنما المسير غسل الأدران التي أهيلت
على قضاتها بما اتهموها قديماً . والمسير كذلك غسل الطلاب
الذي نشره كشيافاً عليها حتى أخفى معالمها فلم يعد يتعرّفها

(١) ملكة الانجليز الذي عاش في زمانها شكسبير وقد مرّ ذكرها .

(٢) يقصد الوطنية الانجليزية وكان الانجليز أعداء جان والفرنسيين .

من ورائه أحد . فإن السفاهة الوطنية المتطرفة لما فرغت من إسداء ما أسدت لها من أسواء ، قامت السفاهة الطائفية [في هذه الحالة السفاهة البروتستنتية] فأخذت من شهادتها في سبيل الله سبباً تضرب به الكنيسة الكاثوليكية وديوان التحقيق ، وأى سبيل إلى ذلك أيسر من قصة تصاغ تكثر فيها المفاجآت وتتوالى الفجيعات ، تكون بطلتها جان وأشرارها الكمثلة وقضاء ديوان التحقيق . فهذه القصة التي صيغت محض افتراء ، فجان أصابت من الكنيسة وديوان التحقيق قسطاً من العدالة أكثر مما يناله اليوم منهم من نوعها وفي مثل مكانها من أية محكمة زمنية حاضرة . هذا فضلاً عن أن حكما الذي وقّع عليها كان وفق القانون كلّ الوفق . وما كانت لتصلح بطلاً للقصة التي أرادوها : فتاةٌ بديعة الحسن أضناها الحب ترامت على بطل يضارعها حسناً . فقد كانت جان قديسةً عبقريةً أبعداً ما تكون امرأةً من بطلاً قصةً مشجبةً هزّاةً بحبها وفجائتها .

ولنعد إلى هاتين الكلمتين ، القديسة والعبقرية ، لتناكد من وضوح معناهما وتحديدده . أما العبقرية فهي أن يكون المرء بصيرة ترى أكثر مما يراه الناس ، وتنفذ في بواطن الأمور أكثر من نفاذهم ، فيكون لها من ذلك مقاييس لقيم الأشياء

غيرُ مقاييسهم ، وأن يكون المرء عدا هذا نشاط جمّ يدفع به إلى إنفاذ ما تستدعيه هذه البصيرة وما توجهه هذه المقاييس على الأسلوب الذى يأتلف ومواهب المرء وكفاياته الخاصة . أما القداسة فهى أن يسوس المرء نفسه على خصال الكمال ويرؤىها على ألم الفضيلة ومخبتها ، وأن يمتاز بإلهامات أو يكتسب قوًى مما تسميه لغة الكنيسة خوارق ، فيتأهل عندئذ لأن يكون قديساً . فالمؤرخ إن كان كرهاً للنساء يعتقد أن المرأة لا تنبغ فيما جرى العرف به أن يكون من عمل الرجال . فهو لن يستطيع أن يقدر ما أتته جان من الأعمال ، ونبوغها إنما ظهر فى الجندية والسياسة . وإن كان المؤرخ لا يؤمن إلا بالقياس ، ولا يُخْرِج إلا بالدليل ، فلا مناص له من جحود القداسة وإنكار القديسين ، وعندئذ لا يستطيع أن يتصور لجان وجوداً أو يتعرف لها شهياً . فؤرخها الأصح يجب أن يكون خلواً مما كان بالقرن التاسع عشر من زَوْغ وميل ، ويجب أن يفهم المصور الوسطى والكنيسة الكاثوليكية الرومانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة فهما أوفى كثيراً مما فهما مؤرخونا الرديكاليون Whig ، ويجب أن يكون فى مقدوره أطراحُ المصبية الجنسية وما يتصل بالنساء من أقاصيص الهوى ، وأن يعتبر المرأة أنثى الجنس البشرى

لا نوعاً منفصلاً مستقلاً من الحيوان يختلف عن الرجل اختلافاً كبيراً يتميز بمفاتيح خاصةٍ وسخافاتٍ خاصةٍ .

جمال چان

ولإيضاح النقطة الأخيرة لإيضاح إجمال أقول إذا أنت وقعت على كتاب عن چان يبدأ بذكر جمالها وقاتن حسنها فاعتبره فوراً قصةً غرام لا تاريخاً لچان . فلم يدع أحد من رفقائها في القرية أو في البلاط أو في نُحَيْم الجند أنها جميلة أبداً ، حتى ولا عندما أجهدوا أنفسهم ليكسبوا عطف الملك عليها ويسرّوه بامتداحها . وكل الرجال الذين أشاروا إلى هذا الأمر أكدوا في غير لبس أن فتنة الإناث أعوزتها لدرجة خالوا أنها معجزة إذا هم اعتبروا أنها كانت في زهرة الشباب ونضارة الصبا ، وأنها مع هذا لم تكن دميعة ولا لُحْمَةً ولا مشوّهة ، ولم يكن بها ثقل أو فظاظة . والحق البين أنها ، ككل امرأةٍ متجربةٍ آمرةٍ ناهية ، لم تنزل ميدان الحب لأن الرجال خافوها قهيبوها فلم يقموا في هواها . أما هي فلم تفقد أنوثتها برغم أنها ندرت إلى حدٍّ أن تبقى عذراء ما عاشت ، وظلت فعلاً عذراء ولكنها قطُّ لم تقطع قطعاً باتاً بأنها لن تزوج أبداً . ولكن

الزواج وما يستدعيه بادىء بدء من منازلة فتابعة فاقتناص زوج لم يكن من صناعتها . فقد كان لها في الحياة شغل عند ذلك . قال الشاعر ييرون^(١) Byron : « حب الرجل يشغل بعض عيشه ، وحب المرأة يملأ كل وجودها » . فهذه قاعدة لا تنطبق على جان إلا بمقدار انطباقها على جورج واشنطن^(٢) George Washington أو أي ذكّر غيره من رجال الحياة وأبطالها . ولو أن جان عاشت في عصرنا هذا لبيعت صورتها على بطاقات البريد وهي في

(١) الشاعر الإنجليزي المعروف ، ولد في لندن عام ١٧٨٨ من أبوين ناهيين . ومات أبوه وهو في الثالثة من عمره ، فكفلته أمه ، وكانت مسرفة في أهوائها وشهواتها ، فأثر ذلك في ابنها لما شب ، فكان مسرفاً في شهوته مهتاج النفس أفاقا . وفي عام ١٧٩٨ صار لورداً بالوراثة من عم أبيه ، فانتقل إليه مع اللقب مقر الأسرة وثروتها . وفي عام ١٨١٥ تزوج ، ولكن اللادي بيرون هجرته بعد عام من زواجها فكسب من ذلك سحق الناس ، فترك إنجلترا غاضباً ناذراً أن لا يعود إليها . فطوف في أوروبا وأقام في إيطاليا زمناً ، وفي عام ١٨٢٤ ناصر الإمبريق في حرب استقلالهم ضد الترك ، فجاءته حمى لم تمهله إلا أياماً فمات في عامه السابع والثلاثين . وشعره يحمل طابع حياته .

(٢) هو أول رئيس لجمهورية الولايات المتحدة . وهو متحدر من أصل إنجليزي . ولد عام ١٧٣٢ ميلادية في فرجينيا ، ومنذ عامه التاسع عفر أخذ يتقاف في مناصب الجيش . وحارب القوات الفرنسية في الشمال كثيراً . ولما وقعت حرب استقلال أمريكا قاد قواتها في ظروف غير ملائمة منها عداء ضباطه له . ولما وقعت معاهدة الصلح اعتزل الحياة ورفض أن يجزى على خدماته إلا ما تحمله من النفقات فعلا . وفي عام ١٧٨٧ رأس المؤتمر الذي أسس الروابط بين الولايات المتحدة وأنشأ الدستور الذي لا يزال إلى اليوم قائماً . وانتخب أول رئيس للجمهورية عام ١٧٨٩ وأعيد انتخابه عام ١٧٩٣ ، وقبل أن تنتهي مدة هذه الرئاسة استقال ، ولكن لما ساء ما بين فرنسا والولايات عاد يقود قوات البلاد . وكان في رأسته للجمهورية قديراً . وكان ذا عقل كبير ارتفع به عن كل حزبية . ومات فبكاه كل الأحزاب .

زى قائد جيش لا سلطنة حرم . ومع كل هذا فلدى سبب واحد يجعلنى أعتقد أن وجهها إن فقد الحسن فقد كان عجيباً يستوقف الناظر إليه . ذلك أن نحأتاً من معاصريها نحت تمثالاً لامرأة شابة على رأسها خوذة ولها وجه وحيد في فته ، لا بأنه المثل الأعلى في الوجوه ، ولكن بأنه صورة مأخوذة من وجه حتى غريب لا يشبه وجهاً رآه إنسان لامرأة أبداً . والظن أن فئاناً قد اتخذ جان أنموذجاً له وهى لا تدرى . وليس لدى من برهان على هذا ، ولكن تلك الأعين المتباعدة الشاذة تبعث في الخاطر هذا السؤال بقوة : « إذا لم يكن هذا التمثال لجان فلمن هو ؟ » . من أجل هذا لن أتقصى الأدلة فقد كفانى هذا دليلاً ، فن ينكر دعواى فيه فأنا أتحداه أن يجد لها نقضاً . إنه وجه عجيب ولكنه ليس عجيباً بحاله وفتنته ورقته ، ولن يجد فيه طلاب الجمل المسرحيون شيئاً مما يطلبون ، فإن كانوا لا يزالون في ريب بعد هذا ، فأنا أروى لهم عن صاحبتة حقيقة غير ذات جمال تذهب بما بقى في نفوسهم من ريب ، ذلك أنها اتهمت بأن وعدت رجلاً بالزواج ، ثم نقضت عهدها ، فلما جاءت إلى المحكمة دافعت هى عن نفسها بنفسها وكسبت القضية .

مكانة چان فى المجتمع

كانت چان ابنة لمزارع يُعدّ عينا من أعيان قريته ، ويقوم
عن القرية بما يتصل بالإقطاع من أعمال ، فيفاوض عنها الرؤساء
الإقطاعيين المجاورين ومن ينوب عنهم من محامين . وكان للقرية
حصن يحتوى فيه أهل القرية إذا غزاهم غاز فأهمل وهُجر ،
وخرج من أيديهم ، فألف والدها جماعة من سته من المزارعين
ليستولوا على الحصن مرة أخرى ليكون للقرية وقاء كلما دامهم
مداهم . وعندما كانت چان طفلة كانت تذهب أحيانا إلى الحصن
لتلعب فيه فتدعى أنها أميرة القصر الصغرى ، فتشركها أمها
وإخوتها فى لعبها ، فيأخذون مكانهم من بلاط القصر فيسلكون
مسلكا لا يزرى بهم كثيرا . فهذه الحقائق لا تدع لنا عذرا فى
الجرى على ما جرى به العرف القصصى الذى يفرض دائما أن
البطلة إما أميرة وإما شحاذة . ويشبه أمر چان فى هذا الصدد
ما كان من أمر شيكسبير ، فقد زعموا أنه كان فاعلا أجيبرا
لا يقرأ ولا يكتب ، ثم اتخذوا من هذا الزعم القليل أساسا بنوا
عليه أبحاثا كثيرة متراكبة متراكمة ، فكان بناء كالمهم المقلوب
له جرم كبير واسحقير . وأنعمضوا العين عن دليل غاية فى

البساطة : أن أباه كان يعمل في التجارة ، وأنه كان يوماً وافر
النعمة ثريا ، وأنه تزوج من امرأة كان لها بعض المكانة في
المجتمع . كذلك يميل بعضهم إلى زحزحة جان عن مرتبتها في
المجتمع إلى مرتبة دونها فيصورونها فتاةً راعيةً أجيرة ، في حين
أن الفتاة الأجيبة الراقية في قريتها كانت إذا نادتها فإنما تدعوها
سيدة المزرعة الصغيرة .

إن الفرق بين جان وشيكسبير أنها كانت أميةً وأنه لم
يكن أمياً . فقد ذهب إلى المدرسة وعرف من اللغتين اللاتينية
والإغريقية بمقدار ما يستتقى خريج الجامعات منها ، أي شيئاً
قليلاً لا يُغنى شيئاً . أما جان فلم تكن تعرف كيف تقرأ أصلاً .
قالت : « أنا لا أعرف ألفها من بائها » .

ولكن كثيرات من أميرات ذلك العهد وعهود بعده طويلة
كانت لا تعرف القراءة . خذ مثلاً « ماري أنطوانيت »^(١)
Marie Antoinette ، فإنها في مثل سنّ « جان » ما كانت تدرى
أن تهجّي اسمها هجاء صحيحاً . ولكن ليس معنى هذا أن جان
كانت فتاة جاهلة ، أو أنها أحسّت بما يُحس به الأمي في عصرنا

(١) صفري أولاد الإمبراطور فرنسيس الأول ومارية تريزا . وهي أرشدة
النسا وملكة فرنسا ، حيث تزوجت الدوفين الذي صار فيما بعد لويس السادس عشر ملك
فرنسا . ولدت في فيينا عام ١٧٥٥ وأعدمت في باريس بالجيلوتين عام ١٧٩٣ .

هذا من استحياء وخزي وعجز عن دخول المجتمع والتقدم فيه .
وهي إن فاتها أن تعرف كيف تكتب الكتب والرسائل ، فقد
كانت تملئها وتُعنى بها عناية شديدة تغلّو فيها غلواً كبيراً .
وسماها بعضهم فتاة راعية في وجهها فأنكرت ذلك بشدة ،
وتحدّثت أياً امرأة من أى منزل طيب أن تباريها في فنون البيت .
وكانت تفهم موقف أمّتها فرنسا من السياسة والحرب أحسن
كثيراً مما يفهم خريجات جامعاتنا اليوم من موقف أمّهم ، وه صدر
علمهن ذلك الصحفُ السيارة . وأغرمت الناس باتباعها ، فكان
أول متبعتها جارّها لها كان قائد حامية في فوكولير Vaucouleurs ،
جاءته فأخبرته بأن جيوش الدوفين Dauphin هُزمت في وقعة
هيرنجز Herrings قبل أن يأتيه الخبر الرسمي عنها بزمن طويل
نخال أن وحيا جاءها فأخبرها خبرها . ولكن علم الشؤون العامة
والاهتمام بأموال البلاد لم يكن بالشئ الغريب بين المزارعين في
ريف تجتاحه الحرب اجتياحاً . فالساسة كثيراً ما كانوا يجيئونهم
عند أبوابهم في سيوف مسلولة ورماح مُشرّعة فلم يكن بدّ من
مراسلتهم . ولم يكن لأهل جان بدّ من معرفة ما يجري في بلاد
عمّها الإقطاع . ولم يكن أهلها أثرياء ، فعملت جان في الحقول
مثل ما عمل أبوها ، فسأقت الأغنام إلى المراعي ، وقامت .

بأشبه هذا من الواجبات . ولكن لا يوجد دليل ولا شبه دليل يفيد أنهم كانوا فقراء مُدَقِّعِينَ . وليس من سبب يُسْتنتج منه أن چان استؤجرت كما تستأجر الخادِمات ، أو أنها غُصِبَت على العمل أبداً إذا ما هي شاءت أن تدَّعه لتذهب إلى قسيس القرية لتعترف إليه ، أو أن تعبت بزمنها تترقب رؤاها أو تتسمع « لأصواتها » في أجراس الكنائس . ومجمل القول أن چان كان حظها من طيب المحتد ومن حسن التثقيف أكثر كثيراً من حظ كثيرات من طبقة بنات البلد السخيفات ممن يحتقرن العمل والعاملات .

أصوات چان ورؤاها

إن أصوات چان ورؤاها لعبت بسمعتها الألاعيب . فن أجلها عدّها قوم مدخولةً ممرورة ، وعدّها آخرون كذابةً نصّابةً ، ومن أجلها حَكَمَ عليها قومٌ بمعالجة السحر وهواصلّة الشيطان واحرقت من أجل هذا ، ومن أجلها منحوها البركة ونفحوها بالقداسة أخيراً . وليس في هذه الأصوات والرؤى ما يثبت شيئاً من ذلك أو يؤدي إليه . ولكن اختلاف النتائج يكشف عن قلة ما عرفه المؤرخون ذور الخيال المنطقي عن عقول الناس ، فهم يجهلون كيف تعمل ، وحتى عقولهم هم يجهلون كيف

تدار. فإن في البشر أناسا احتد خيالهم واتقد، حتى إذا خطرت لهم فكرة جاءتهم صوتا مسموعا. وقد يترأى لهم كأن خيالا ينطق بها. وفي مستشفيات المجانين كثير من القتلة ما قتلوا إلا طوعا لأصوات هكذا سمعوها. فقد تسمع امرأة صوتا يأمرها أن تذبج زوجها وأن تخنق ولدها وهما ناعمان فلا تجد مفرأ من طاعته. وعندئذ تتدخل خرافة طبية شرعية قديمة تسود في محاسننا تقول بأن المذنب إذا أتى الإجرام بتأثير خيالات كهذه لا يسأل عما يفعل، وإنما يعتبر مجنوناً ويعامل معاملة المجانين. على أنه ليس كل من رأى رؤية أو سمع هُتافاً مجرماً سفاهاً. فالمبقرية لها وحيها ولها إلهامها ولها استنتاجات تتخرج في بطن وخفاء من فروض دفينية في دخيلة النفس فهي تجرى فيها دون أن يحس صاحبها بها. وكل ملابسات المبقرية هذه قد تتمثل صوراً وأطيافا كالتى رأتها جان وغير جان. فسقراط ولوثر^(١)

(١) هو المصلح الدينى البروتستنتى الألمانى . ولد عام ١٤٨٣ من أب فقير يعمل فى مناجم الفحم . علمه أبوه فبدأ حياته بأن كان قسيساً كاثوليكياً ولكنه خرج على الكنيسة الكاثوليكية وتزوج راهبة ممن اتبعن تعاليمه وجاء منها بأولاد ستة وأخذ يناهض الكشلكة والإمبراطور . وفى عام ١٥٣٠ أعلن فى الناس عقيدته البرتستنتية الجديدة . وكان بدأ فى عام ١٥٢١ بمعوة أصدقائه فى ترجمة الإنجيل إلى الألمانية فأتمه فى عام ١٥٣٤ . فزاد هذا العمل الكبير فى توطيد تعاليمه فى ألمانيا .

Luther واشفندنبورج^(١) Swendenborg وبلاك^(٢) Blake كل هؤلاء رأوا أطيافاً وسمعوا أصواتاً كالتى سمعتها ورأتها القديسة جان والقديس فرنسيس^(٣) Francis . ونيوتن^(٤) Newton لو كان خياله يُفرَم بالمفاجئات المؤثرات وينحو منحى الدرامات

(١) عالم على سويدي المولد والنشأة والتعليم ، ولكنه رحل إلى هولانده وفرنسا وانجلترا فدرس فيها جميعاً . وتابع أبحاثه العلمية والفلسفية من بعد ذلك . وفي عام ١٧٤٣ اتصل لأول مرة بعالم الأرواح . قال إن عين شخصه الباطن انفتحت فرأت الجنة والنار وعالم الأرواح ، وفي هذا العالم تحدث إلى معارفه الداهيين وإلى عظماء المصور البائدة والمحاضرات الفائرة . وكان له حظ كبير من احترام الناس له ، فوقعت تصريحاته عن تلك الاتصالات الروحانية موضع الفرية من أفهام الناس ، لأنهم لم يستطيعوا اتهامه بالكذب لأنه كان أميناً صادقاً ، ولا بالجهل لأنه كان عالماً متبحراً ، ولا بالبله لأنه كان شديد الذكاء ، وكان فوق هذا جميعاً .

(٢) هو وليم بلاك شاعر ورسام وفنان مما . ولد في لندن عام ١٧٥٧ ومات عام ١٨٢٨ . كان شعره غزيراً ، وكانت رسوماته غامضة تنحو على الأغلب مناحى الرمز والاستعارة . وكان مما تفردت به عبقريته أنه كان ينظر إلى نتاج خياله من أشياء وأشباح فيتضح له انضاحاً بالفاً حتى لكأنها تتجسد له فيراها ويسمعا ويسمها ويمسها حه الأشياء ذات الأجرام .

(٣) أغلب الظن أن المؤلف يقصد القديس فرنسيس مؤسس الطريقة الفرنسيسكانية ولد في أسيسى بإيطاليا عام ١١٨٢ ومات فيها عام ١٢٢٦ . ولم يكن في بدء حياته كثير الورع ولم يعزف في شبابه عن ثمرات الدنيا . ولكنه مرض في عام ١٢٠٢ مرضاً شديداً خرج منه شديد السخط على أسلوب حياته . ثم تطور فزهد وتشف وتوسم خطوات المسيح ما استطاع فبلغ في ذلك مبلغاً بعيداً .

(٤) هولاسحق نيوتن العالم الإنجليزى المشهور ولد عام ١٦٤٢ ومات عام ١٧٢٧ تعلم في جامعة كبريدج ونبغ في الرياضة النبوغ المروف . وهو صاحب نظرية الجاذبية . وقد هبطت إلينا مع الأجيال حكاية عنه طريقة تزعم أن تفاحة رآها تسقط في جنيته هي التي اقترحت عليه آراء أدى تفكيره فيها إلى اكتشاف تلك النظرية وإلى هذه الحكاية يصير المؤلف .

والمسرحيات لرأى خيال فيثاغورس^(١) رأى لعين، ولرآه يدخل إليه في البستان فيعمل له كيف سقطت التفاحة عن شجرتها . وعندها ما كان يجوز لأحد أن يتخذ من نظرية الجاذبية أو مما عُرف عن صاحبها من صحة العقل دليلا يثبت به أن الطيف الخداع الذي رآه حقيقة واقعة . وعدا هذا، وفوق هذا، لو أن نظرية الجاذبية اكتشفها نيوتن على يدى هذا الطيف بدلا من اكتشافها بالطريقة العادية ما كان بين الطريقتين فرق أبداً، ولما امتازت أولاهما على أخراهما بمقال ذرة من إجماز . كذلك صحة عقل نيوتن لا يستدل عليها من الطريقة التي سلكها في اكتشافها وإنما مما في النظرية ذاتها من دلائل التعقل . فلو أن نيوتن طلع عليه طيف فيثاغورس فأخبره أن القمر مركب من جُبن أخضر لسقناه إلى حيث يساق المجاذيب . ولكن نظرية الجاذبية الذي جاء بها نيوتن نظرية مستنتجة بالأدلة وقد وافقت

(١) فيثاغورس هو الفيلسوف الإغريقي . ولد حول عام ٥٨٢ قبل الميلاد . قيل إنه جمع علمه من سوريا وفينيقيا وبابل والهند ومصر . والتف حوله تلاميذ فتكونت منهم رابطة قوية لدرس فلسفته والعمل بها واشتدت هذه الرابطة من الوجهة الد اشتدادا كبيرا ، وكانت تناصر الحزب الأرستقراطي ، فعادها الحزب الديمقراطي اضطر فيثاغورس إلى الاعتزال . ومن عقائد فيثاغورس أن الأرواح تتناسخ لذ يذبح قط حيوانا ولم يأكل لحما . ومن تعاليمه احترام الروابط الإنسانية كرابطة ال بزوجه ، والولد بأبيه وأمه ، والناس بقضائهم وحكامهم وهلم جرا . وإلى فيثاغورس ينسب إثبات النظرية السابعة والأربعين من الكتاب الأول لإقليدس في الهندسة .